# جُندِيٌّ في خِدمَةِ السَّلام



مذكرات كبير المراقبين الدوليين
الجنرال كارل فون هورن

فلسطين اليمن الكونغو

# جُنديٌّ في خِدمَةِ السَلام





الجنرال كارل فون هوزن

# جنديٌّ في خدمةِ السّلام

دار النهار للنشر ش.م.ل
بيروت - لبنان

نقل الكتاب الى العربية
الدكتور جـــورج ديب

# المقدمة

خلقت سكوتا اكره التصاريح . الصحفيون في السويد يقولون ان المحار مخلوق ثرثار اذا قيس بكارل فون هورن . وقد رسخت سنوات خدمتي في الامم المتحدة هذه الفكرة نفسها عند الصحفيين في العالم . وكم من مرة رفضت دعوة الكثيرين الى كتابة مذكراتي عن الفترة التي كنت فيها موظفا دوليا . لذلك اجدني بحاجة الى تفسير ظهور هذا الكتاب .

كنت وما أزال مؤمنا بالامم المتحدة . غير انني اليوم أعي الضرورة الملحة لاعادة النظر في العمليات العسكرية التي تخاض تحت راية الامم المتحدة حفاظا على السلام . وهذه المهمة تقع على عاتق الدول الاعضاء والامانة العامة ، خصوصا وان الاعتقاد يسود اليوم ان « تأمين حضور دولي » يكفي لحفظ السلام . ان العسكريين قلما ينظرون الى الحروب واهدافها بالمنظار الذي ينظر به السياسيون اليها . فكيف تراهم يتفقون على الوسائل والطرق لبعثة عسكرية دولية تتضارب فيها صلاحيات السياسيين والعسكريين ؟ ذلك ان القرارات السياسية تصبح آنذاك وسائل لخداع النفس ، بينما يبقى الجنود في المستنقعات وتلهث الامم المتحدة بحثا عن وسائل لتمويل البعثة .

لكل قائد ولاء ذو وجهين: ولاؤه لرؤسائه ، وولاؤه للجنود الذين يعملون معه . واذا ما حدث صراع بين الولائين ، فان ولاء القائد لرؤسائه يجب ان لا يؤدي به الى الغاء ولائه لجنوده . وهذا ما حملني على الاستقالة من منصبي . وفي هذا الكتاب قصة هذه الاستقالة واسبابها .

اشعر انني لست بحاجة إلى تبرير اعمالي . لكن واجبي واخلاصي نحو زملائي الذين اتوا من مختلف البلدان وعملوا معي يجبروني على الكلام . كذلك اود ان اعطي اولئك الذين يقرأون هذا الكتاب مادة للتفكير ، كما اود ان اعمل على تجنيب قادة الامم المتحدة العسكريين الكثير من الم الخيبة .

واذا كان الجنود الدوليون قد نجحوا بتجنب تلك الصعوبات أو البعض منها ، فاني إعتبر ان هذا الكتاب قد حقق الهدف الذي كتب من اجله .

لم اعرض مسودة هذا الكتاب على الامين العام للامم المتحدة وذلك لانني لم اتوقع ان يوافق عليها ، ولانني فضلت ان لا اسبب له الاحراج الذي قد تسببه مراقبتها . غير انني آمل في ان هذا الكتاب سيساعده ، ولو بطريقة غير مباشرة ،على نيل موافقة الدول الاعضاء في الامم المتحدة على اية مقترحات قد يتقدم بها من اجل تحسين جهاز حفظ السلام في العالم .

لم احاول ان انهي كتابي بتقديم اية مقترحات في هذا السبيل . لانني اعتقدت ان لمثل هذه المقترحات حظ اوفر من النجاح ان هي اتت من سواي .

وقد اقتصرت في هذا الكتاب على تسجيل اختباراتي وانطباعاتي فقط . ومن المؤكد أن إنتقادات كثيرة ستوجه الي . اما انا شخصيا فاني لا ادعي العصمة عن الخطأ . ولكنني اتساءل : هل كانت الامم المتحدة تقدم على تجديد عقد عملي بعد انتهاء مدة خدمتي لو أن انطباعاتي المسجلة في هذا الكتاب كانت دائما مخطئة ؟

كارل فون هورن

آذار ١٩٦٦ .

# المحتويات

الى جنـــود الامم المتحدة

# التدرّب مِن أجل السّلام

# الفصل الاول

حبذا لو كان باستطاعتي ان اوصي بالجندية الدولية مهنة توفر الهدوء لصاحبها . ففي أيام السأم بالقدس وصنعاء والحر بمدينة ليوبولدفيل ، طالما طـــاقت نفسي الى السكون الذي يخيم على حقول منطقة سكانيـــا السويدية وغاباتها حيث ولدت .

عرفت سكانيا ، صومعة السويد الان ، المشاكل من قبل . ذلك في ١٦٥٨ ، عندما احتج سكانها على سلخهم عن الدانمارك . كان احتجاجهم واضحا ومريعا ، بحيث فكر ملك السويد ، جديا ، بترحيلهم الـــى هولنـــدا او بولنـــدا .

كان من غرابة الصدف ان يستقر في السويد قبل خمسين عامـــا رجل هولندي اسمه بـــاريدون فون هورن ، اعطي امتيـــازات عديدة فـــور وصوله من امستردام الى بلد الغابات والبحيرات ، اعترافا بفضله علـــى المساعدات المادية الكبيرة التي كان قد قدمها الـــى جيوش « غوستفوس ادولفوس » في حرب الثلاثين سنة .

ان باريدون احد اجدادي . وهو يعود بنسبه الى عائلة المانية الاصل، مما يخولني ان ادعي نسبا دوليا . فما ان استقرت عائلة فون هورن في وطنها الجديد حتى اخذت موهبة جمع المال التي اتصفت بها تضعف مع امتـــزاج دمها الهولندي بدم العائـــلات السويدية عن طريق الزواج . وسرعان مـــا تقلص عدد رجال الاعمال فيها ، وازداد عدد البحارة المفلسين ، والجنـــود والموظفيـــن .

وهكذا كان من الطبيعي ان ينخرط جدي هننغ منذ مئة سنة في سلك الجندية ويدخل الكلية العسكرية الملكية السويدية . بقي هناك ثماني سنوات اختفى بعدها فجأة من تلك المؤسسة العظيمة . وعند البحث عنه تبين انه التحق بالجيش الدانماركي الذي كان يخوض حربا ضروسا . وكان القتال عنيفا بصورة خاصة في مقاطعة سلازفيك الدانماركية موضع النزاع بيـــن الدانمـــارك وبروسيا ، بقيادة بسمارك الحازم .

لم تنفـــع فروسية الدانماركيين امام آليات الحرب البروسية ، وبدت

النتيجـــة معروفة سلفا . ووقع جدي اسيرا في معركة ديبول بعد مضي وقت غير طويل . وكانت الاشاعات تقول ان مصير جميع الاسرى غير الدانماركيين هو الاعدام رميا بالرصاص .

لحسن الحظ ، كانت روح الفروسية التي اشتهر بهـــا البروسيون تقرر مصير الاسرى في تلك الايام . وهكذا خرج جدي من الاسر ليجد نفسه في بحر من المشاكل عند عودته الى وطنه . ومهما يكن السبب الذي برر به هروبه ، فالمهم انه كان سببا مقنعا ، اذ ان الملك شارل الخامس عشر اهتم بـــه شخصيا ومنحه رتبة ملازم ثان في فرقة الحرس المشاة .

تلك كانت خبرته الوحيدة في الحرب . وبعد مضي وقت قصير تزوج من البارونة فلورانس بوند ابنـــة نبيل سويدي كان قد تقـــاعد من الجيش وعاش حياة الكسل ومارس بلا استحقاق حياة الاغنياء المرفهين ، بيـــن الجياد والكلاب والبنادق .

وقد وفق جدي بحماة ذات شخصية فذة تركت اثرا كبيرا في مستقبل عائـــلة فون هورن . كانت البارونة فلورانس بوند ايرلندية . ولا اعلم اذا كانت هي التي اورثتني حدة الطبع ( كما يدعي بعض اصدقائي ) . لكنني اعترف بان الدم الايرلندي الذي اخذته منها قد امدني بشيء من النزعـــة الثوريـــة .

كان والدي ، الابن الثاني من ذلك الزواج ، مصدر قلق لوالديه . اذ اتضح مع مرور الاعوام ان الذكاء لم يكن احدى المواهب التي ورثهـــا . فصب اهتمامه على الصيد ، والكلاب ، والخيل ، لا على مستقبله ، ممـــا جعل والديه يعتقدان انه لا يصلح الا لاحد شيئين : العمـــل في الكنيسة او الانخـــراط في الجنديـــة .

واختار والدي له الانخراط في الجندية . وعندما استقرت حالـــه ، فرضت هواياته عليه زواجا جلب له الاستقرار المادي ايضا . اذ ان الزوجة التي اختارهـــا ( او بالاحرى التي اختارته ) كانت امـــراة جميلة تدعى مرتا شترنسورد ، وهي الشقيقة الوحيدة لستة صبيـــان في عائلة تملك اراضي واسعة في سكانيا .

ولما كانت عائلة شترنسورد تنتمي بنسبها الى فرنسا ولتوانيا والمانيا، اصبحت شجرة العائلة شجرة دولية حقا . ولم يكن هذا كل ما ورثته عن والدتي . اذ ورثت عنها موهبة اتخاذ القرارات بنفسي والتمسك بها مهمـــا لقيت من معارضة .

ولدت في الخامس عشر من شهر تموز سنة ١٩٠٣ . ولعل حبي للسفر

هو وليـــد تلك الرحلة الاولى التي التحقت بها مع عـــائلتي في هنوفر ، بعد شهر من ولادتي . كان والدي آنذاك تلميذا في الكليـــة الامبراطوريـــة للفـــروسية في المانيـــا .

تركت مهارة والدي في ركب الخيل اثرا لا يمحى في ذهن الالمان ، كما تركت المانيا في ذهني اثرا لا يمحى . ذلك انني ، منذ تلك السن الطريـــة بدأت أتعلم مهنتي كلغوي . ومع اني لا اذكر شيئـــا عن السنتين الاولين اللتين كنت فيهما هناك ، الا ان اللغـــة الالمانية بقيت لغتي الاولى بالرغم من عدم حاجتي اليهـــا في السنوات التي تلت عودتنا مـــن المانيا الـــى السـويد ، بعد التحاق والدي بكلية الفروسية . وهناك عشت بالقـــرب من اسطبلات الخيل ، لكنني لم اولع بها كوالدي . ولحسن الحظ لم أكـــن اعلم ما يخبئه لي المستقبل .

نشأت صبيا حساسا خجولا ، ميالا الى التفكـــير لا الرياضة . وفي المدرسة ، طيلة اربع سنوات من الجوع المدقع سببتها الحرب العالمية الاولـــى ، كرست نفسي للمطالعة . كانت الجغرافيا اول مادة تركز اهتمامي عليهـــا . ولكنني كنت دائما احب اللغات واجد تعلمهـــا سهلا . وسرعان ما وجدت نفسي منغمسا في قراءة الكتب الانكليزية ، من قصص وتاريـــخ ، فعرفت اذ ذاك ميولي الحقيقية . فانصرفت الى قراءة التاريخ العسكري البريطاني . وبعد قليل لم يبق شيء لا اعرفه عن الجيش الانكليزي وعاداته وتقاليده وسجلاته الحافلة بالحملات العسكرية الشهيرة في جميع اصقاع الارض . فاعتبر ذلك ، في المدرسة ، امرا غير عادي ، بل غير طبيعي . فقد كانت السويد ، لقرون عديدة ، تتطلع الى المانيا وفـــرنسا كمصدر للثقافة والالهام العسكري . لذلك اذهلت معرفتي بالتاريخ العسكـــري البريطاني وباللغة الانكليزية الدارجة اساتذتي وزملائي في المدرسة ، وكان عجبهم يتحول في كثير من الاحيان الـــى سخرية .

هذا الولع الباكر ساعدني كثيرا فيما بعد ، ذلك انني منذ تلك الايام لم اترك فرصة تفوتني دون ان أضيف كثيرا من الالفاظ الدارجة في اكثر من اثنتي عشرة لغـــة الـــى ما كان عندي منها في اللغة الانكليزيـــة .

ووسط المفاوضات الدقيقة مع الالمان والروس والانكليز وغيرهم كنت اكتشف بسرور ان اكثر القضايا تعقيدا يمكن حلها باللجوء الى استعمال كلمات دارجة بلغة الخصم المفاوض . ولم يكن يضحكني اكثر من نظـــرة الذهول التي كانت ترسمها بعض الكلمات الدارجة على وجوههم . ولو جاءت مثل هذه الكلمات في مقامها ، كانت ، في رأيي ، افضل طريقة لاخراج المفاوضين من الجمود الى الحركة .

كان لا بد لي من الدخول في سلك الجندية . وغالبا ما اتساءل عما اذا كنت قد اتخذت القرار الصحيح . لكن في ذلك الوقت كان هنالك سبب كاف لاختياري الجندية ، وهو ان والدتي عارضت هذه الفكرة . ولعله من المضحك القول ان اهم مزايا عائلتي عدم التقيد بمعارضة الوالدين . بالطبع ، كان هنالك عوامل اخرى ، منها ان ضائقة مالية ابعدت عني تحقيق حلمي بحياة حرة في الجامعة ، ومنها ايضا اني كنت افتش عن الثقة بالنفس فتصورت ، اني لا اجد تلك الثقة الا في الهروب من عالم الكتب الى عالم التحدي والخشونة الذي توقعت ان يوفره لي سلك الجندية .

أضف الى هذا ، ان جو البيت كان يضعني دائما على حافة الثورة . كانت حساسيتي شديدة في سن السابعة عشرة ، ولم اكن ادري آنذاك ان موقف والدي مني كان يهدف الى ترسيخ ثقتي بنفسي ، مع انني كنت أعلم شدة حاجتي اليها . ولا زلت اذكر كيف كان يأمرني والدي بأن اوزع السجائر على ضيوفه ، في المكتبة عند العشاء .

وبالرغم من هذا ، التحقت بفرقة الجيش التي كانت تحت امرة والدي في حزيران ١٩٢١ . كان هذا اكبر غلطة في حياتي . اذ ما ان التحقت بتلك الفرقة ولبست لباسها الازرق والفضي ، حتى تهيأت لنا ، انا ووالدي ، اسباب الندم .

غير إن هذا لا يعني ان هذه الحياة قد خلت من بعض الجوانب الجميلة . واذكر على سبيل المثال ان رئيس فرقة التدريب عين جنديا خاصا ليوقظه من نومه كل صباح كي لا يتأخر عن التدريب العسكري .

وللحياة في الثكنة جوانب اخرى . فهناك اعتزاز الجندي بخدمة وحدته العسكرية التي تسير في حياة رتيبة ، وهناك ايضا الشعور بانه ينتمي الى وحدة تسود بين افرادها روح الترابط . واذا كان الجندي ممن يحبون أبهة المظاهر فله منها ما يكفيه كل حياته .

ومع اني كنت اصغر من ان تسمح لي سني باكتشاف حياة الجندية على حقيقتها ، ومع اني كنت سعيدا بوحدتي ، فسرعان ما وجدت نفسي في معمعة من المشاكل العائلية داخل الفرقة ، وضحية لخلاف دائم بين شخصيتين حازمتين : والدي وصهره الكونت «فون روزن» . كانت العلاقة بينهما تذكرني بالعلاقة بين الحب والكراهية . المهم هو ان خلافاتهما كانت تسبب لي ألما وعذابا كبيرين . واذكر انه عندما عين عمي مفتشا عاما ، زار فرقتنا ذات يوم وأنب رئيسها على مستوى الفرقة الضعيف بسبب وجودي فيها .

وفي تلك الاثناء كنت اسمع رؤسائي يتكلمون عن الفترة التالية من حياتي

العسكرية ، وهي الالتحاق بكلية الفروسية الملكية السويديـــة التي كـــان والدي فيها من قبل .

فور وصولي الى تلك الكلية اكتشفت ان رئيسها والمحاضرين فيها كانوا زملاء لوالدي او تلاميذ له . كنا نمتطي الجياد اكثر من خمس او ست مرات في اليوم لكي نجيد الكر والفر . وكانت تلك التمارين متعبة ، بحيث كنا ننام في اثناء المحاضرات .

تركت تلك السنة في اثرا لا ازال اذكره حتى اليوم ، كما انني لا ازال اذكـــر قول اساتذتي المستمر لي انني لن اكون نجما لامعا في الكلية ، وانني لن أصل في حياتي الـــى مرتبة الفروسية . وطبعا ، سبب هذا الم الخيبة لوالدي الذي كانت تصله قصص مختلفة عني من زملائه القدامى .

وهكذا استمرت حياتي في ذلك العالم المغلق اسبوعا بعد اسبوع ، خلت نفسي عند قرب انتهائها بانني لن اتمكن من النجاح . واخيرا ، انهيت فترة السنة ونجحت بعلامة المرور فقط . ولا زلت اعتقد ان سبب نجاحي كان رغبة اساتذتي في التخلص مني لانهم كانوا لا يقوون على رؤيتي سنة اخـــرى بينهم .

بعد تخرجي من الكلية عدت الى فرقتي العسكرية فوجدت ان سمعتي في الكلية كانت قد سبقتني اليها . لذلك ، فلم افاجأ عندما عينت ضابط اشارة . وقد حاولت كثيرا ان احصل على عمل فني آخر فلم انجـــح .

في السنوات القليلة التالية ازددت تبرما برؤسائي الذين انحصر فهمهم لمهنة الجندية بالقدرة على الكر والفر . وكان طول قامتي آنذاك ستة أقدام ، وكان شعري اسود ، ووزني ثمانين كيلوغراما .

لماذا لم أكن سعيدا ؟ لا ادري . ففي ذلك الوقت كنت قـــد تزوجت « مود هورن اوتر » وكانت جميع اسبا ب السعادة متوفرة لي . كانت مود فتاة جميلة . وكانت تحب ركوب الخيل والرياضة . وكنت احبهـــا كثيرا . وقد تزوجتها دون مـــوافقة والـــديّ ، ودون ان اطلـــب مـــوافقة رئيسي الكولونيل . لكن رئيسي لم يحقد علي لهذا الاهمال ، بل لانني لم اوافق على ان اوصي خيرا ببعض الجنود الذين تدربوا في فرقتنا . كنت على حق في تصرفي هذا ، لان لا احـــد منهم كان يملك المؤهلات التي تجعل منه ضابطا . كانوا جميعا من اقرباء كبار الموظفين في البلاط الملكي ، مما حمل الكولونيل على استدعائي والقول لي : « يا عزيزي فون هورن ، أعترف لك باني لا ارى في مستقبلك ما يبشر بانك ستنال اي وسام » .

كانت ذلك نقطة تحول في حياتي . اذ سئمت ذلك الجو الخانق ، جو

المظاهر الفارغة . حتى بلغ من شعوري بالخيبة انني تقـدمت لامتحـان الدخول الى كلية الضباط . وقد نجحت في هذا الامتحان العسير . كان جـو الكلية لا يختلف كثيرا عن جو الفرقة التي كنت فيها . اذ كانت تسيطر عليه روح الاخلاص والتفاني .

في كلية الضباط وجدت مجالا لابراز مقدرتي الفكرية . وعندما تخرجت بنجاح سنة ١٩٣٠ برتبة ضابط صغير اكتشفت اني أصبحت على وشك الانضمام الى نخبة الضباط المختارين .

وفي سنة ١٩٣٤ اصبحت ضابطا كاملا برتبة كابتن . وفي السنة التالية عينت في مديرية الدفاع في قسم السكك الحديدية . وفي سنة ١٩٣٦ نقلـت من قسم سكة الحديد وعينت في مديرية التحركات العسكرية . وكان الجو الدولي ، آنذاك ، من الاكفهرار والسواد بحيث كنا نعمل ليلا ونهارا ، لعلمنا بان تسلح المانيا سيصل الى ذروته في ايلـول ١٩٣٩ . ولم تفتح الحـرب الاهلية في اسبانيا اعين الدول الديموقراطية الاوروبية على الخطر النازي المحدق بها . وكانب الاحزاب الاشتراكية فيها تثق ثقة عمياء بنظام الدفاع المشترك ، مما جعلها ترفض اي مسعى لتقوية نظام الدفاع الوطني .

وهكذا استمرت النازية الالمانية في الصعود . وكانت السنوات تمر ونحن نقترب من الحرب . ومع ان لبلاد السويد حياد تقليـدي معترف به ، الا اننا لم نثق بان هذا الحياد سيكون له اي قيمة ان هـو وقف في وجه التوسع النازي .

في هذا الجو المشحون بالتوتر الذي وصل الى ذروته سنة ١٩٣٩ ، كنت آكل وانام قليلا ، وسط جبل من الملفات والتقارير وخـرائط للخطوط الحديدية . كنا فريقا صغيرا نعمل بتفان تحت امرة ضباط امتازوا ببعد نظر ساعد البلاد على النهوض . وقد وضعنا تصاميم ومخططات تساعدنا على مجابهة خطرين : خطر هجوم الالمان علينا من الجنوب ، وخطر هجوم الاتحاد السوفياتي علينا من الشرق . وكان تنفيذ هاتين الخطتين يتطلب منا شهورا من العمل المتواصل ، مما قلل من زياراتي لعائلتي ، وسبب مباشرة فشل زواجي الاول .

# الفصل الثاني

في ايلول ١٩٣٩ وصلتنا اخبار هجوم المانيا على بولونيا . واذاع رئيس الوزراء « بير ألبن هانسن » بيانا على الشعب السويدي عن استعداد الجيش التام للوقوف في وجه أي هجوم يشنه الالمان او الروس علينا . لكنني كنت بحكم مركزي أعرف ان الواقع هو غير ما قاله رئيس الوزراء ، وانه لم يكن بوسع قواتنا الدفاعية ان تقف في وجه الجيوش الالمانية الجرارة .

وكنا نعلم انه لم يكن في مقدورنا ان نطلب مساعدة من الغرب اذا ما هوجمنا . كانت فرنسا تجلس مطمئنة وراء خط ماجينو . وكان التجنيد في بريطانيا في بدايته . فكان ، اذن ، لا بد من حدوث اعجوبة يتم بها تجهيز قواتنا تجهيزا كافيا ، بين ليلة وضحاها . وبما ان الاعجوبة لا تحدث بمجرد طلبها ، فلم يكن لنا الا الاعتماد على انفسنا واجتياز فترة تسلح طويلة .

طلب الحلفاء ارسال مساعدات عسكرية الى فنلندة عبر السويد . لكن السويد ، تطبيقا لسياسة الحياد ، رفضت هذا الطلب ، مما حمل الحلفاء على ارسال مساعداتهم عن طريق النروج ، عبر القطب الشمالي . غير ان هذه المساعدات لم تصل فنلندة الا بعد ان وقعت الهدنة مع الاتحاد السوفياتي . وقد رأيت بأم عيني النتيجة السيئة لذلك التأخير ، عندما ذهبت الى خليج « بوثينيا » لاساعد الفنلنديين على مغادرة « كاريليا » التي كانت اتفاقية الهدنة قد أعطتها للاتحاد السوفياتي . وفي خلال تلك الرحلة رأيت الاسلحة التي كان البريطانيون والفرنسيون قد أرسلوها الى فنلندة . فلو وصلت تلك الاسلحة في الوقت المناسب الى فنلندة ، لما غيرت مجرى الامور . ذلك ان الاسلحة البريطانية كانت عديمة النفع ، بحيث يعتقد من يراها انها استعملت في حرب البوير . ولم تكن الاسلحة الفرنسية افضل منها .

حدث ذلك في نيسان . وقد أمضيت النهار اصغي في الراديو الى اخبار احتلال الجيوش الالمانية الدانمارك والنروج . كان هذا مفاجأة لنا : اذ كنا نتصور ان خطر الهجوم علينا سيأتي من الجنوب او من الشرق . اما بعد وقوع الدانمارك والنروج في أيدي العدو ، صار علينا أن ننقل قواتنا الى مراكز دفاعية جديدة . وكنت قد تدربت على هذا العمل مدة سنوات

طويلة . فما كان مني الا ان طلبت نقلي الى القيادة العامة ، فعلمت ان القيادة العامة كانت قد استدعتني اليها ، منذ اربعة ايام . غير ان امر الاستدعاء لم يخرج من مبنى القيادة .

اذكر انني بدأت عملي يوم احد ، واذكر ان الشمس كانت مشرقة في الخارج . بعد ذلك لا اذكر شيئا عن الطقس . اذ كنت أعمل سبعة ايام متواصلة ، عشت فيها على القهوة والسندويش وسط تلال الورق والملفات والخرائط . وقد تمت عملية نقل الجبهات العسكرية دون حدوث ثغرة واحدة ، مما جعل الملحق العسكري الالماني في السويد ينوه بتلك العملية قائلا : « نعلم تماما انكم عبأتم جيوشكم على الحدود . ولكن ، كيف استطعتم انجاز هذا العمل بهذه السرعة ! » .

بعد أن اصبحت قواتنا على الحدود النروجية ، كان علينا ان نوصل لها الامدادات الحربية . عند ذاك تبين لنا كم ضحينا في سبيل مساعدة الفنلنديين . فالذخائر والمعدات التي ارسلناها الى فنلندة أفرغت مخازننا تقريبا . فمجموع الذخائر التي بقيت لدينا لم تتعد الاربعين طنا .

ومن مراكزنا على الحدود النروجية كنا نراقب القتال الدائر في النروج . وكنا نرى فشل الحلفاء في محاولاتهم النزول فيها . وقد لجأ عديد من الجنود النروجيين الى السويد . ولم ينجح الحلفاء في صد الزحف الالماني .

وضغط الالمان على السويد للسماح لهم بأرسال الذخائر والمعدات والجنود الى النروج عبر أراضيها . لكن السويد تمسكت بحيادها ووقفت في وجه الضغط الالماني ، تماما كما وقفت من قبل في وجه ضغط الحلفاء عليها لارسال مساعدات عسكرية عبر اراضيها الى فنلندة . الا اننا لم نشك في أن السويد لن تتمكن من الصمود طويلا أمام الضغط الالماني المتزايد .

في ١٠ حزيران ، توقف القتال وانسحبت جيوش الحلفاء بعد ان وقعت النروج في ايدي الالمان . وهكذا عزلت السويد واصبحت في وضع صعب . وفي ١٥ حزيران طلب ريبنتروب من سفيرنا في برلين اعطاء حرية المرور للجيوش والمعدات الالمانية عبر السويد . ونظرة الى الخريطة تكفي لترينا اهمية هذا الطلب بالنسبة الى المانيا . ذلك ان تزويد الجيوش الالمانية المتمركزة في النروج بالعتاد والمؤن برا عن طريق السويد ، كان اسلم واقصر من تزويدها به ، عن طريق البحر او الجو .

وقعت السويد تحت تهمة رضوخها للضغط الالماني ، مع ان مقاومة هذا الضغط لم تكن تعني الا الانتحار الوطني الكامل . فما من جدل في انه كان باستطاعة المانيا اجتياح السويد . ولم يكن الحلفاء في وضع يتيح لهم

مساعدتنا . وكانت الغاية من الرضوخ للضغط الالماني كسب الوقت الذي كنا نحتاج اليه لبناء قواتنا وجعلها في حالة تأهب . وفي حين تفهمت حكومتا لندن وفرنسا الحرة موقفنا ، بقيت حكومة واشنطن بعيدة عن تفهمه .

في آب ١٩٤٢ ، وجهت لي قيادة الجيش الالماني دعوة لزيارة النروج . لكنني كنت قد اقسمت ان لا تطأ قدماي الاراضي الالمانية او التي احتلها الالمان قبل أن تكون قواتنا قد أصبحت في مركز التأهب للقتال . الا ان رئيسي أمرني بقبول الدعوة ، لان ذهابي سيمكنني من الاطلاع على الطريقة التي يستخدمها الالمان لامداد جيوشهم .

وصلت الى النروج المحتلة فلم أر فيهـــا سوى الحزن والاشبـــاح البشرية . وكان بعض الضباط الالمان يرافقونني في تلك الزيارة التي رأيت فيها كيف كان الالمان ( العنصر السيد ) يعاملون النروجيين البائسين .

في ٥ آب ، اخبرني وزير الخارجية تلفونيا بأن السويد الغت امتياز المرور للالمان ، كما أخبرني انه انيطت بي عملية الذهاب الى برلين للاشراف على الترتيبات الفنية اللازمة . وشعرت ان عبئا ثقيلا أزيح عن كتفي ، فأتصلت فورا بضابط الاتصال الالماني في أستوكهولم وطلبت منه أن يحجز لي مقعدا على الطائرة المسافرة صباح اليوم التالي الى برلين .

لم أر أى أثر للقنابل البريطانية على مطار « تمبلهوف » في برلين . وفي طريقي من المطار الى السفارة السويدية نظرت من نافذة السيـــارة الى الخارج فرأيت صفوفا طويلة من البشر أخذ الاعياء منها مأخذه ، كما رأيت الشاحنات تنقل الملفات وأثاث المكاتب . ورأيت أيضا هياكل بنايات كانت هدفا للقنابل .

ما زلت أذكر اجتماعي بالمسؤولين الالمان . كان بعضهم من وزارة الخارجية الالمانية والبعض الاخر من الغستابو . وقد فوجئت باستعدادهم للتعاون معي . وقدموا لي السيجار الهولندي والكونياك الفاخر ، ولكنني رفضتهما لانني لا أحب أن أستعمل البضائع المسلوبة .

جئت الى الاجتماع ومعي خطاب معد ، فوجدت استقبالا حارا اغناني عن القائه . وكان يجلس قبالتي جنرال الماني رحب بي بحرارة وطلب الي أن ندخل في صميم الموضوع رأسا : « متى ، وأين ، وكيف ؟ » فقلت ان الغاء الامتيازات أصبح ساري المفعول ، منذ هذه اللحظة .

فهز الجنرال كتفيه . وشرعنا فورا بدراسة النقاط الفنية . وفي اثناء المفاوضات غمرني سرور عظيم ، لانني كنت في موقف قوي جعلني اقول للالمان : « لا . لا أوافق » .

# الفصل الثالث

في أيلول ١٩٤٣ ، بعد ان شربنا نخب رحيل آخر قطار الماني عن أراضي السويد ، طلب مني الكونت برنادوت ان أقابله في مكتبه في الصليب الاحمر السويدي ، حيث كان ينوب عن الرئيس الامير « كارل » ، شقيق الملك « غوستاف » . وفي ذلك الحين لم يكن الكونت برنادوت معروفا دوليا . ولكن اهتمامه بتخفيف مأساة الحرب مثل بسرعة أمامي ، وهو يحدثني بصوته الدافىء ويطلب مني ان انظم كل ترتيبات اللازمة لعملية
يحدثني بصوته الدافىء ويطلب مني ان انظم كل الترتيبات اللازمة لعملية
تبادل اسرى الحرب الالمان والحلفاء في السويد .

كان الكونت برنادوت دافىء الصوت محبوبا ، كما كان طويل القامة ، نحيل الجسم ، بهي الطلعة . وكان النبل والتواضع يشعان منه . ولا عجب ان ينسجم كليا مع رالف بانش فيما بعد ، اذ كان الاثنان يتمتعان بصفات عديدة مشتركة .

كانت عملية تسليم الاسرى عملية معقدة . فقد كان على بواخر الحلفاء ان تتسلم الفي أسير من الحلفاء في « تريلابورج » في السويد .

ولما كانت عملية تسليم الاسرى عملية عد رؤوس ، فقد كان وصول القطارات في الوقت المحدد لها امرا مهما جدا . وهذا لم يكن بالشيء السهل ، نظرا للدمار الذي انزله الحلفاء بشبكة الخطوط الالمانية .

لكننا انجزنا عملية تبادل الاسرى كما خططنا لها دون حصول زلل . وبعد انهائها عدت الى مركزي كمدير عسكري لخطوط النقل الحديدية ، وكنت أشعر بارتياح لذلك العمل الانساني الكبير الذي قمت به .

في أيلول ١٩٤٤ ، كنت مسرورا لقيامي مرة اخرى بعملية تبادل اسرى جديدة . وكان عدد الاسرى هذه المرة كالمرة السابقة تقريبا : تسليم ٢٦٩١ أسيرا حليفا مقابل ٢١٤٣ اسيرا المانيا . جرى كل شيء بانتظام ، حتى جاء صباح يوم وصل فيه القطار وقفز منه فورا عدد من الجنود الالمان واتخذوا لانفسهم متاريس حول القطار الذي كان ينقلهم مصوبين بنادقهم نحو القاطرات . وعندما فتحت ابواب القاطرات نزل الاسرى وكان معظمهم

من المدنيين . وسرعان ما سمعت جلبة صادرة عن القاطرة التي في مؤخرة القطار ، فذهبت لاستوضح الامر ، فوجدت ان عددا من الاسرى كانوا يحاولون النزول فيمنعهم الجنود الالمان . فتبين لي ان هؤلاء الاسرى قد جاء بهم الالمان من معسكراتهم في اليونان ليكونوا اسرى احتياط ، اي اذا مات أحد الاسرى الاخرين في الطريق ، يؤخذ واحد من اسرى الاحتياط هؤلاء ، ويسلم بديلا للاسير الذي مات . وحيث لم يمت احد من الاسرى ، فقد رفض الالمان انزال اسرى الاحتياط على بعد مرمى حجر من الباخرة التي كانت ستعود بهم الى بلادهم . وبعد جدل طويل تدخل فيه رجال الغستابو ، وبعد تهديدي بعدم تسليم الاسرى الالمان لهم ، وافقوا على اعطائي اسرى الاحتياط .

# الفصل الرابع

في نيسان ١٩٤٥ ، أصبحت مديرا للنقل في القيادة العامة . وكانت المانيا على وشك الانهيار . لذلك كان علي أن أضع خطة لنقل فرقة دانمركية من الذين لجأوا الى السويد خلال الحرب . وكانت حكومة المقاومة الدانماركية ، آنذاك ، بحاجة ماسة الى هذه الفرقة لحفظ الامن والنظام عند تسلمها الحكم .

كنت أشاهد مناورات تلك الفرقة في جنوب السويد ، عندما وصلني الامر بالذهاب الى الدانمارك مع فريق من الرسميين السويديين . كانت تلك الزيارة مزيجا من العمل الرسمي والعمل السري . وكانت خبرة غريبة بالنسبة لي . فمن جهة ، كنت اتردد على المفوضية السويدية التي كانت لا تزال على علاقة طيبة مع قوى الاحتلال الالماني ، ومن جهة اخرى ، كنت اتردد على حكومة المقاومة واجتمع باعضائها فنتبادل الاراء حول كيفية نقل الفرقة الدانماركية من السويد الى الدانمارك . وفي احد اجتماعاتي مع حكومة المقاومة ، تلقينا نبأ انتحار هتلر . وما أزال اذكر أمائر الغبطة المرتسمة على وجوه الحضور . وكانت تقاريرنا السرية تنفي احتمال قيام الالمان الموجودين في الدانمارك بأي مقاومة . ومع هذا ، فقد اشتدت المقاومة الدانماركية حتى انتهت الى قتال علني في اكثر من اثني عشر مركزا ، استسلمت في احدها وحدة عسكرية المانية بكاملها .

في اليوم التالي تركت الدانمارك وعدت بالباخرة الى السويد ، وكان على ظهر الباخرة رجال نجح صليب برنادوت الاحمر في اخراجهم من المعسكرات الالمانية . ورأينا على ظهرها ايضا هجرة من نوع اخر : لاجئون المان فروا من وجه الجيوش الروسية في شرقي بروسيا .

وكان مستقبل السويد ، في تلك الفترة ، غير واضح تماما . فحتى في ذلك الوقت المتأخر كان من الممكن للسويد ان تدخل الحرب . وكانت حكومة المنفى النروجية في لندن تحاول ، لعدة شهور مضت ، اقناع السويد دخول الحرب . وكانت السويد تقوم فعلا بالترتيبات العسكرية التي تمكنها من عبور الحدود النروجية عند الحاجة . وقد تم انشاء فرقة من اللاجئين النروجيين في السويد مؤلفة من ثلاثة عشر الف مقاتل مدربين تدريبا ممتازا .

كنا على ثقة من أن الجنود الالمان في الدانمارك سيسلمون انفسهم عندما تنهار المانيا . لكن الحالة في النروج كانت تختلف عنها في الدانمارك بوجود ثلاثماية الف جندي الماني مسلحين تسليحا كاملا . وبالرغم من أن القائد الالماني في النروج كان يفتش عن مبرر لرفع راية الاستسلام ، فقد كنا نخاف أن تحمل الاوامر الصارمة من المانيا الجنود الالمان في النروج على القتال حتى بعد الانهيار الالماني .

رفضت السويد اعلان الحرب على المانيا وارسال قواتها عبر الحدود النروجية . وكان هذا قرارا حكيما ، لان السويد ، لو أعلنت الحرب وأرسلت جنودها الى النروج ، لرفض الجنود الالمان الاستسلام . غير ان الامور سارت على غير هذا النحو ، فأستسلم الجنود الالمان في النروج كما فعلوا في الدانمارك .

انشأ الحلفاء قيادة عامة لهم في اوسلو أناطوا بها مهمة اعادة سبعة وثمانين الف أسير حررهم الحلفاء الى بلادهم ، وأربعين الف عامل . كما كان عليها أن تعيد الجنود الالمان الذي زاد عددهم عن ثلاثمئة الف جندي . وقد طلبت مني قيادة الحلفاء ان اساعدها على تنفيذ هذه العملية بصفة ضابط اتصال سويدي .

وبالرغم من جو الفرح الذي ساد نروج المحررة ، فلم أكن مرتاحا في قرارة نفسي ، لانني كنت أعلم انه سيطلب مني عما قريب ان أعيد الاسرى الروس الى بلادهم .

كان هناك اكثر من مئة الف روسي موزعين في مختلف انحاء النروج جاء بهم الالمان ليقوموا بالاعمال الشاقة الصعبة في القطب الشمالي . وقد أحبهم النروجيون وعطفوا عليهم . وفي نيسان ، علمت بأن ترحيل هؤلاء الروس عبر الاراضي السويدية الى وطنهم جاء من نصيبي . وكان منهم من آثر البقاء في بلد حر يوفر له الحياة السهلة على العودة الى بلاد دمرها الحرب .

كنت متأكداً من أن عملية اعادة الاسرى الروس الى بلادهم لن تتم دون خسارة كبيرة في الارواح ، وكان هذا يقلقني كثيرا . وعند وصول بعثة روسية الى السويد للتفاوض بشأن هذه العملية ، جلست معها ندرس تفاصيل التنفيذ . والعملية تلخص بما يلي : كان على القطارات السويدية ان تجمع الاسرى الروس في مراكز مختلفة في النروج ثم تحملهم الى الحدود الفنلندية عبر السويد . وكان على الاسرى الروس أن يمضوا ليلة في المخيمات في السويد قبل ان يصلوا الى البواخر الفنلندية التي تحملهم عبر البلطيك . ويبدو انه كان للبعثة الروسية تحفظات كثيرة عن المخيمات

في السويد ، اذ طلبوا الينا أن نسمح للمسؤولين الروس بدخول المخيمات لمعالجة المشاكل التي قد تنشأ . كما طلبوا الينا ان نعتقل كل أسير روسي يحاول الهرب ونسلمه لهم . وبعد الاخذ والرد لبينا طلبهم الثاني مقابل تنازلهم عن طلبهم الاول .

ابتدات عملية اعادة الاسرى الروس في حزيران . ولا ادري اذا كان قيام الحكومة السويدية بهذه العملية قد قوبل بعرفان الجميل. لكن العملية ، لحسن الحظ ، انتهت بدون مشاكل سياسية . وسجلت وفيات بين الاسرى الروس ، عند عبورهم النروج ، اكثر مما كانت عليه عند عبورهم السويد .

تركت عملية تسليم الاسرى الروس في نفسي اثرا سيئا لا يمحى . كانت البواخر الروسية تصل دائما متأخرة عن الموعد المحدد لها . وكان الاسرى الروس ، يمشون في صفوف متراصة لصعود البواخر الروسية . كان المسؤولون الروسيون ، على سلم الباخرة ، يجردونهم من الهدايا التي وهبهم اياها النروجيون . منظر وصولهم وصعودهم الى البواخر الروسية مؤلم جدا . حتى ان الكثيرين منهم انتحروا . وما ازال اذكر ذلك الاسير الروسي الذي ، ما ان اعتلى ظهر الباخر الروسية ، حتى تسلق اعلى صارية فيها ورمى بنفسه عنها .

عندما أنجزت هذه المهمة ، عدت الى القيادة العامة . لكنه ظل علي ان اذهب مرارا الى النروج ، لان عملية اعادة الجنود الالمان والاسرى الروس الاخرين الى بلادهم لم تكن بالامر السهل . خصوصا ان الاسرى في النروج كانوا ينتمون الى مختلف الجنسيات . ولن انسى كيف كان الاسرى اليوغسلافيون منهم يلوحون بالاعلام الحمرا ء، حالما تصل الباخرة التي ستحملهم عائدين الى وطنهم .

كذلك كان بين الاسرى عدد من بلاد التيبت ، فاجاتهم الحرب وهم في بافاريا . وبالنظر الى النقص في اليد العاملة ، فقد اجبرهم الالمان على الانخراط في سلك الجندية وارسلوهم للعمل في القطب الشمالي في النروج . وقد طلب الاتحاد السوفياتي تسليم هؤلاء الاسرى اليه باعتبارهم من اوزبكستان ، فأجيب الى طلبه .

بانتهاء عملية اعادة الاسرى ، عدت الى السويد لاجد مهمة اخرى في انتظاري . ففي آخر ايام الحرب ، هرب عدد قليل من الجنود الالمان من وجه الجيوش الروسية الى شواطىء السويد ، حيث سلموا انفسهم نوضعوا في المخيمات . وكانت اخبار الفظائع التي ارتكبها الالمان ، في اثناء الحرب ، قد وصلت العالم كله ، فثار السويديون ضد تلك الفظائع وصبوا جام غضبهم على الجنود الالمان في المخيمات المحاطة بالاسلاك الشائكة .

ولحسن حظهم ، كانوا وراء هذه الاسلاك . ولم يلبث الرأي العام السويدي ان تغير بعد أيام قصيرة ، حين طالب الاتحاد السوفياتي بتسليمه جميع الالمان الموجودين على الاراضي السويدية ، ووافقت الحكومة السويدية على هذا الطلب . مما اثار ذلك غضب الشعب السويدي وعطفه على اولئك الالمان ، ومطالبته ، بلا جدوى ، السلطات السويدية برفض تسليمهم . هذا ، في رايي ، صفحة عار في تاريخ السويد الحديث . وكان علي ، أنا شخصيا ، أن أقوم بتنفيذ هذه المهمة ، مهمة تسليم هؤلاء الاسرى الالمان الى الروس . فقمت بها غاضا النظر عن هرب عدد كبير منهم الى القطاع الانكليزي في المانيا .

# الأرض المقدّسة



# الفصل الخامس

كان كانون الثاني ١٩٥٨ قارسا ببرده . وكنت طريح الفراش مصابا بالانفلونزا ، عندما وصلتني رسالة من زميلي في الدراسة ، قائد الجيش السويدي يخبرني فيها بأن داغ همرشولد ، الامين العام للامم المتحدة طلب ضابطا سويديا لتعيينه رئيسا للقوات الدولية لمراقبة الهدنة في فلسطين . وبأنه هو ، اي قائد الجيش ، يرشحني لهذا المنصب . وعلمت من الرسالة أيضا انه كان علي أن أجتاز مرحلة امتحان ، فأجتمع الى الوفود العربية الدائمة والوفد الاسرائيلي الدائم الى الامم المتحدة . ثم يتخذ الامين العام قراره بشأن تعييني .

غمرني الفرح ، لان الفرصة لم تكن نادرة ، بقدر ما كانت شرفا . اذ انني كنت أؤمن بمبادىء الامم المتحدة ايمانا قويا .

في أزمة السويس ، سنة ١٩٥٦ ، رشحت نفسي رئيسا لقوات الطوارىء الدولية في غزة . ولسوء الحظ ، استقبلت القيادة السويدية العامة ترشيحي ببرودة تامة . ذلك انها اعتبرتني متقدما في السن بحيث لا يلائمني المناخ الحار . اضف الى ذلك « النزق الايرلندي » الذي عرفته القيادة عني . لكن السبب الحاسم لرفض طلبي كان اعتقاد القيادة العامة بان دعوتي السويد الى ترك الحياد والالتحاق بالحلف الاطلسي ، تجعلني شخصا لا يمكنه الاتفاق مع الرئيس عبد الناصر . والواقع ان دعوتي هذه اشيعت عني ، اثر حديث خاص ، حين كنت ملحقا عسكريا في النروج سنة ١٩٤٨ . فتسربت الى واشنطن ، ثم عادت بعد ثماني سنوات لتحرمني من تلك الخدمة .

لم يمض على ذلك سوى سنتين . فهل يعقل ان يغير المسؤولون رأيهم في شخصي ، فأصبح حكيما أتقن الكلام المعسول في مثل هذه المدة القصيرة ؟ أم هل أراد رؤسائي أن يتخلصوا من وجودي في السويد ، فراوني ، فجأة ، أهلا للذهاب الى فلسطين ؟ غير ان لهجة قائد الجيش الي ، كانت تنم عن ان ترشيحي لرئاسة القوات الدولية لمراقبة الهدنة في فلسطين لم يكن الا اختيارا شخصيا منه . ومهما تكن الاسباب ، فقد صممت على اغتنام هذه الفرصة .

وعلى الفور طلبت من طبيبي الحضور . فأخبرته بضرورة سفري الى نيويورك في أقرب فرصة ممكنة . فنظر الي الدكتور « أنبوم » بدهشة وقال : « هذا مستحيل » . فوضعت ميزان الحرارة جانبا وسألته : « كم من الوقت يلزمك لتجعلني قادرا على السفر ؟ علي أن أذهب الى استوكهولم، ثم الى نيويورك » . فأجابني بتردد : « اسبوع . لكن في الامر مخاطرة » . فقلت : « هذا شأني . أعمل أنت ما بوسعك . حبوب ، حقن ، أي شيء تريده ، شرط ان اكون في الطائرة بعد اسبوع من اليوم » . وما ان غادر الطبيب المنزل حتى اتصلت بقائد الجيش تلفونيا وأكدت له قبولي . ثم نقلت الخبر الى زوجتي المسكينة .

كنت قد تزوجت « سكارليت » في ١٩٤٥ ، بعد حصولي على الطلاق . كانت حين التقيتها لاول مرة ، تحمل أكثر من ثلاثة أسماء . لكن هذا لم يكن مهما ، ما دام شعرها النحاسي قد ضرب وترا حساسا في قلبي . افتتنت بها من اول لحظة لانهـا كانت أمراة مرحة ، ذكية ، ذات جمال مفرط . وبعد جلسة دامت أربع ساعات شاهدنا فيها فيلم « ذهب مع الريح » ، قررت ان اتزوجها . ففعلت . وانا الذي كان دائما يبتعد عن الاضواء ، اصبح أسير هوى أمراة تعمل في العلاقات العامة لاحدى الشركات المنتجة للافلام .

ما اغرب هذا العالم ! وما أغرب ان أجد نفسي متزوجا من صحفية ، اذ كانت الصحافة موهبتهـا الحقيقية . ولا تزال قدرتهـا على تصوير الاشخاص والاشياء ماثلة امامي ، الان بعد رحيلها عني الى دنيا الاخرة .

تلقت زوجتي ، كما توقعت ، نبأ عملي الجديد برباطة جأش ، بالرغم من انهـا كانت تتطلع الى الاستقرار في بيتنـا الجديد في الريف السويدي الهادىء ، حيث عينت قائدا لمنطقة « مالمو » بعد خدمة طويلة في جنوب السويد . أضف الى هذا ان ولدها ما زال صغيرا ، لا يجوز اقتلاعه من مدرسته الجديدة ، وان زوجها لم ينهض بعد من تحت ثقل الانفلونزا . لكنها اعتقدت مثلـي ان هذه الفرصة كانت كفيلة بأن تفتح امامي آفاقا جديدة .

وهكذا وجدتني أحلق فوق المحيط الاطلسي في طريقي الى نيويورك بعد اسبوع واحد من زيارة الطبيب لي . وكنت متأكدا من انني اتخذت القرار الحكيم . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية وأنا أسافر من بلد الى آخر في اوروبا . ثم انني قضيتسنتين كملحق عسكري في النروج . وكان بيني وبين سن التقاعد ست سنوات فقط . ولم اشعر طيلة الست والثلاثين سنة التي قضيتها في الخدمة بانني تحمست لعمل تحمسي للعمل الجديد . وبالرغم من الصعوبات التي كانت امامي ، فقـد اعتبرت نفسي محظوظا بالتحاقي بقوة دولية تتيح لي ابراز الخبرة الطويلة التي اكتسبتها .

على مطار نيويورك ، استقبلني احد اعضاء البعثة السويدية الدائمة الى الامم المتحدة . وسرعان ما وجدت نفسي في الطابق الثامن والثلاثين من مبنى الامم المتحدة ، حيث مكتب الامين العام ومساعديه . وكان هذا الطابق يختزن القوة التي تسير كل شيء . وكان أول شيء علي عمله ، هو أن أتعلم كيف أعيش في جوه المشحون بالحركة ، وان أقرأ جميع التقارير التي تكدست على مكتبي ، وان ألم بالحقائق الاساسية عن الامم المتحدة : ميثاقها ، وجهاز العمل فيها ، وتنفيذ القرارات التي يتبناها مجلس الامن والجمعية العامة .

كانت أولى زياراتي ، تلك التي قمت بها لاندرو كوردية ، احد المستشارين المقربين جدا من همرشولد ، والمحرك الاول ، كما كان يشاع ، للامانة العامة . وفي حديثي معه ، اتضح لي جيدا ان هذا الرجل هو الذي يقرر اذا كنت أهلا للوظيفة الجديدة أم لا .

وبعد يومين ، زرت رالف بنش ، السكرتير التنفيذي المقرب جدا من الامين العام . فلما نهض لاستقبالي شعرت بأنني لم أر في حياتي عينين يملؤهما الحنان اكثر من عينيه . استقبلني استقبالا حارا جدا ، ورأيت في كل ما قاله في تلك المقابلة تفانيا في سبيل منظمة هدفها حفظ السلام وخدمة الانسانية . وقد قدر لعلاقتنا الشخصية ان يسودها التوتر فيما بعد ، لكنني ، مع هذا ، احببت رالف بنش وملت بطبيعتي اليه . وكم تألمت عندما علمت ، فيما بعد ، انه استاء كثيرا من اصطدامي به ومن الانتقادات التي وجهتها اليه . وقد اكتشفت في الايام الاخيرة ان وراء مظهره الخارجي اللطيف ، روحا حساسة ونظاما فرديا في العمل لا يمكن الا ان يؤدي الى قيام المشاكل في الحالات الطارئة . ولعل سبب ذلك حرصه على حفظ السلام ، ذلك الحرص الذي جعله يطلب الوقوف بنفسه على كل شاردة او واردة . فكان يعير اهتمامه الشخصي لاصغر الامور ، مما اعاق سير العمل واتخاذ القرارات ، وهو ما كان يضع مرؤوسيه على حافة الجنون .

جلس رالف بنش ، في صباح ذلك اليوم البارد من كانون الثاني ، يحدثني بدفء عن خبرته كوسيط في فلسطين ، خلفا لصديقي القديم الكونت برنادوت الذي كان قد اغتاله الارهابيون اليهود في القدس . كان كل ما قاله لي في ذلك الحديث يؤكد الانطباعات التي حصلت عليها من قراءتي للوثائق والملفات .

فقد اتفق الجميع في تقاريرهم على أن الوضع هناك لم يكن على ما يرام ، بحيث يستحيل على الامم المتحدة ان تقوم بمهمتها . ولئن كان استعمال التشابيه لا يفيد دائما ، الا انه لا بد لي من القول ان فلسطين كانت « قرحة مزمنة » و« اقتتالا على عظمة » و« مشكلة بلا حل » . وكان

لجميع هذه التشابيه معنى واحد هو ان منصب رئيس القوات الدولية « جلوس على نار » .

ومن حق بنش علي ان اقول انه كان صريحا ، فلم يحاول ان يغطي حقيقة الوضع في القدس . وهكـذا حين استدعيت لمقابلة الامين العـام في اليوم التالي ، كنت اشعر بقليل من التشاؤم ، بخلاف ما شعرت به من تفاؤل عند وصولي الامم المتحدة . وكنت قد قابلت داغ همرشولد الشاب مرات عديدة في اثناء الحرب ، لكننا لم نلتق منذ أن انتقل الى المسرح الدولي.

بدا لي تماما كما كنت أتذكره : متوسط الحجم ، اشقر الشعر ، نبيه ، ينم مظهره عن برودة ، لكن داخله يضج بالشعور والحيوية التي لم يكن يظهرها الا لاصدقائه المقربين . كان مثال الرجل الذي تدفعه قوة داخلية للاخلاص والتفاني في سبيل الافضل . وقد أتيح لي أن أتعرف اليه عن كثب فيما بعد . لكنه في ذلـك الصباح استقبلني بابتسامة مشرقـة وباشارة عابرة للقاء كان بيننا فيما مضى .

كان انطباعي الاول عن داغ همرشولد ان له مزيتين : ارادة حديدية من جهة ، ودفء وجاذبية اخاذة وراء برودة ظاهرة ، من جهة اخرى .

أحسست بارتياح كبير اليـه ولـم يحاول ، حتـى للحظة واحدة ، أن يظهر بمظهر الكبرياء أو الاستعلاء . وهو لو فعل لما كان اثارني كجندي . لذلك اختار أن يعاملني معاملة الند للند . وفي بادىء الامر كانت افكاره وانطباعاته ونصائحه لي تتوالى بسرعة فلم أتمكن من اللحاق بها ، خصوصا عندما اخذ يتكلم عن فلسطين ، ويذكر اسماء ومواقع لم أتمكن من استيعابها بعد . وخرجت من ذلك اللقـاء ، وكلي ايمـان بانه لن يبخل علي بتأييده وبارشاداته .

كان داغ همرشولد يؤثـر ان يظهر بمظهر الغموض خـارج حلقته الخاصة المؤلفة من كبار مستشاريه ومعاونيه ، وما ذلك الا ليقوى على البقاء بمعزل عن تطاحن التكتلات العاصفة بالامم المتحدة . وهكذا استطاع بمرونته الخارقة ان ينحني أمام رياح الدول الكبرى ، وان يستقرىء الجهات التي تأتي منها العواصف ، وأن يخرج منتصرا بتنفيذ ما كان يعتقده كفيلا بتعزيز الامانة العامة وحفظ صلاحياتها .

وفي الايام القليلة التالية ازداد وعيي للصلاحيات التي يتمتع بهـا الامين العام وفريق صغير من الموظفين الدائمين حوله . بعـض تلـك الصلاحيات ورثها عن سواه ، والبعض الاخر اختارها هو بنفسـه . وكنت كلما اختلطت بتلك الحلقة الخاصة التي نـادرا ما كان يزيد عدد اعضائها عن الستة ، زاد اقتناعي بان تلك الحلقة كانت ناديا يرئسه الامين

العام الذي يدير ويخدم ويستلهم سياسة الامم المتحدة . وكان هذا الفريق ، مع جهاز الامانة العامة حوله ، عنصر الاستقرار والاستمرار الوحيد في ذلك الهرم الدولي الكبير الذي قام على انقاض الحرب العالمية الاخيرة واتسع بسرعة فائقة .

وفي تلك الايام ايضا ، انغمست في مطالعة التقارير . فبدا لي بوضوح ان اسرائيل ومصر والاردن وسوريا ولبنان ، اي الدول التي وقعت اتفاقية الهدنة ، لم تظهر أية رغبة في التقيد بمضمونها . فكان كل منها يفسرها حسب هواه . لذلك قررت الاتصال ببعض مندوبي تلك الدول الدائمين لدى الامم المتحدة . فاجتمعت اولا بالسيد « كيدرون » السفير الاسرائيلي الذي قال لي ان حكومته ستطلعني على كل شيء فور وصولي الى اسرائيل. وبالمقارنة ، كان السيد عمر لطفي ، سفير الجمهورية العربية المتحدة ، رجلا مرحا ، صدوقا ، تشع منه جاذبية اخاذة . غير ان زيارات المجاملة تلك لم يكن لها علاقة باعتقادي ان ما سأجده على الحدود في الغبار والشمس المحرقة يختلف عن الذي أشاهده الان في نيويورك . وكم اذهلني « قصر الزجاج » الذي يستضيف الامم المتحدة . فكانت كل يوم تفتح لي ابواب جديدة . وبدا لي انه خليط دولي لا تهدأ فيه المنافسة على ربح الاصوات . وكلما وصلت دولة جديدة ، كانت تتلقفها الكتل المختلفة فورا وتقيم الحفلات على شرف ممثليها . ولم أر في حياتي مكانا للمساومة كهذا المكان ، مع العلم بأن تلك المساومات كانت تجري وراء الستار . وكان القصر الزجاجي ايضا أشبه بخلية للجاسوسية والمضاربة . حتى ان المكاتب كانت مجهزة بأبواب تفتح على ممرات بعيدة عن الاعين ، وذلك للحفاظ على تناقض المصالح واختلافها . وطفت في جميع أنحاء ذلك البناء ، فرأيت انه كلما تناول شخص الغداء مع شخص آخر ، كان سؤال واحد يرتسم على وجوه الاخرين وهو : « من يتناول الغداء مع من ولماذا ؟ »

أمضيت عدة ايام في دراسة القضية الفلسطينية ، فوجدت ان الامم المتحدة ورثت بقايا وصية ممزقة يعود تاريخها الى ١٩١٧ ، والى اتفاقية سايكس ــ بيكو التي سميت باسم المتفاوضين الانكليزي والفرنسي اللذين اقتسما الامبراطورية العثمانية في سنة ١٩١٦ بين بلديهما ، بعد انتهاء الحرب . وتبع تلك الاتفاقية وعد باعطاء اليهود وطنا في فلسطين . غير ان شروط ذلك الوعد كما وافق عليها بلفور كانت مبهمة غامضة ، غموضا لم تظهر اهميته في ١٩١٨ .

كانت بريطانيا قد استولت على فلسطين واستمرت تديرها بموجب انتداب من عصبة الامم . وفي البداية سار كل شيء على ما يرام . لكن ما ان تجمعت غيوم الحرب فوق اوروبا ، حتى اخذت الهجرة اليهودية تزداد

ازديادا ملحوظا ، مما ادى الى اثارة مشاكل حولت الارض المقدسة الى معسكرين مسلحين . فكـان لا يـد لهـذا الوضع من أن ينفجر بـين العرب واليهود كلما ازداد اقتراب وقوع الحرب العالمية الثانية .

ليس هنا مجال اعطاء صورة مفصلة عن المحاولات التي بذلت لتجنب وقوع الاصطدام . ما اقل قصص المـآسي اذا قيست بقصص مؤتمرات الطاولة المستديرة ، والمحادثات ، ورسم الحدود بخطوط على الخرائط ، فيما كان عدد القتلى يرتفع ، وسرقة الاسلحة والذخائر من معسكرات الانكليز تزداد يوما بعد يوم .

في نهاية ١٩٤٧ ، اعلمت بريطانيا الامم المتحدة بأنها ستتخلى عن مسؤولية الانتداب على فلسطين . وبانها ستسحب جيوشها منها ايضا . وبدأ الانكليز بتنفيذ هذا القرار . لكن سرعـان ما أتضح لهم ان ذهابهم سيؤدي الى حرب بين دولة اسرائيل الجديدة والدول العربية . وقد ازداد التوتر الى حد انه في الحادي عشر من نيسان ١٩٤٨ ، دعا مجلس الامن الى عقد هدنة بين الطرفين. وبعد ذلك باثني عشر يوما قامت هيئة مراقبة الهدنةفي القدس. وفي الرابع عشر من ايار، فيما كان آخر جندي بريطاني يجلو عن فلسطين ، قررت الجمعية العامة تعيين وسيط . لكن في الخامس عشر من ايار ، بعد جلاء آخر جندي بريطاني عن فلسطين ، أعلن سكان فلسطين من اليهود قيام دولة اسرائيل ، وبدأ جيشها السري المدرب باحتلال بعض مناطق من فلسطين . وفي الوقت نفسه ، أعلنت الدول العربية الحرب على اسرائيـل وعبرت جيوش مصر وسوريـا والاردن والعراق الحـدود الفلسطينية .

كان القتال عنيفا ، ولم تكن الامم المتحدة بطيئة في القيام بعملها . ففي ٢١ أيار عينت الامم المتحدة الكونت برنادوت وسيطا ، وأعطته تعليمات تقضي بأن يتعاون مع هيئة مراقبةالهدنة لتأليف فرقمن المراقبين العسكريين.

وبعد ان دعا مجلس الامن مرة أخرى الاطراف المتنازعة الى عقد هدنة ، نجح برنادوت بتنظيم وقف أطلاق النار . لكن وقف أطلاق النار هذا دام من الحادي عشر من حزيران حتى التاسع من تموز ، حين بدأ القتال من جديد .

وفي الخامس عشر من تموز أمر مجلس الامن الطرفين بوقف اطلاق النار . ونجح برنادوت بوضع هدنة بدأ مفعولها في السادس عشر من تموز في القدس ، ثم سرى مفعولها في مناطق أخرى . كانت هذه الهدنة سلما غير دائم ، تمكنت اسرائيل في اثناء الايام العشرة الاخيرة من القتال ، ان تحتل اراضي تزيد خمسين بالمئة عن كل ما كانت اسرائيل قد وعدت به . وهكذا

شرد اكثر من مليون فلسطيني . وخرقت الهدنة مرات عديدة ، وبقيت مصر في حالة حرب مع اسرائيل .

في السابع عشر من ايلول وصل نبـأ اغتيال الكونت برنادوت في القدس على ايدي عصابة « شترن » ، الاسرائيلية . وعلى الاثر ، جرى سحب جميع الضباط السويديين الذين كانوا يعملون معه ، وعين رالـف بنش وسيطا دوليا والجنرال رايلي رئيسا لجنود مراقبة الهدنة .

واستمر خرق الهدنة ، مما جعل مجلس الامن في الثاني والعشرين من تشرين الاول ان يجدد اقتراحاته الرامية الى وقف اطلاق النار . فقبل الطرفان بذلك ، ما عدا الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية التي توقف عليها القتال في التاسع والعشرين من كانون الاول ، بعد ان هددت بريطانيـا بالتدخل ضد مصر .

وفي منتصف كانون الثاني ١٩٤٩ ، بدأت مفاوضات الهدنة بين اسرائيل والدول العربية المجاورة . فوقعتها هذه الدول ، الواحدة بعد الاخرى ، وكانت سوريا آخر من وقعها في العشرين من تموز .

وفي الحادي عشر من شهر آب لم تعد هيئة مراقبة الهدنة ملحقة بالوسيط الدولي ، بل اصبحت هيئة فرعية للامم المتحدة . وكانت تواجهها مهمة صعبة ، لان اتفاق وقف القتال وضع حدا للحرب من جهة ، لكنه ، من جهة اخرى ، ترك وراءه خطوط هدنة مبهمة غير واضحة . وفي بعض الاماكن ، ترك مساحات حيادية تمتد لثمانية او عشرة اميال على الجانبين . ولسوء الحظ لم تحدد تلك الخطوط على الارض بوضوح ، مما اثار خلافات حادة عنيفة بين طرفين يعتمد كل منهما على مجموعة من الخرائط تختلف عن الاخرى . وكان من المفروض ان تتضمن تلك المناطق المؤلفة من قرى صغيرة وحقول وتلال وانهر وبحيرات اقل عدد ممكن من الجنود ومن بوليس الحدود ، فلا يقوم أي من الطرفين بالاعتداء على الاخر . وفوق ذلك ، فقد اقيمت مناطق مجردة في بعض المواقع الحساسة لتخفيف حدة التوتر بين الجانبين . وكانت الغاية الاساسية من اقامتها ان لا تقوم عليها اي منشآت عسكرية اطلاقا . لكن المشاكل الناجمة عن ملكية الارض وزراعتها في مناطق لم تتقرر ملكيتها ، ادت الى خلافات جعلت كل منطقة مركز احتكاك بين الجانبين .

وكانت خطة الامم المتحـدة لاحلال السلام خطة عمليـة جدا على الخريطة . اذ كان لهيئة مراقبة الهدنة قاعدة قوية في القدس ، كما كان لكل حدود بين اسرائيل ودولة عربية مجاورة لها لجنة مراقبة مشتركة تتألف من عرب ويهود ويرئسها ضابط للامم المتحدة يساعده مراقبون يحتلون نقاط

معينة على طول هذه الحدود . وكان هذا الجهاز يرمي الى مراقبة تنفيذ الشروط التي تضمنتها الهدنة . غير ان المشاكل لم تهدأ . وفي حرب قناة السويس ازداد العبء على هيئة مراقبة الهدنة فوجدت هذه أنه لا بد من ارسال قوات من الطوارىء الدولية الى غزة . اما من الناحية السياسية ، فكان هنالك ايضا الكثير من المشاكل منها ان رئيس هيئة مراقبة الهدنة الجنرال رايلي الاميركي كان يميل الى اليهود ، وان خلفه الجنرال بنيكه الدانماركي لم يكن في نظر اسرائيل شخصا مرغوبا فيــه . واتهم خلفه الجنرال بيرنز الكندي بأنه كان يميل الى العرب . فترك هيئة مراقبة الهدنة ليكون مسؤولا عن قوة الطوارىء الدولية في غزة .

هذا هو المنصب « المحرق » الذي قدم لي . وكلما كنت اتعمق بقراءة الملفات التي تراكمت عبر السنين ، ازددت عطفا على الكولونيل ليري الذي شغل ذلك المنصب مؤقتا ، وكان يتهيأ لمغادرته بسرعة . وبدا لي أنه كان على المراقبين هناك ان يقوموا بدورين مختلفين : مراقبة الحدود ، ومنــع خرقها من اي من الطرفين ايضا . كما كان عليهم ان يعتمدوا على ضباط الاتصال العرب وضباط الاتصال الاسرائيليين عند تنفيذ مهماتهم . واسوأ من هذا كله ، كان الجانب المعتدي من اي من الفريقين . يعلم بعجز المراقبين عن الاعتماد على مساعدة الامم المتحدة لهم . واذا صدف ان حاول المراقب الدولي التهديد باتخاذ عقاب ضد الجانب المعتدي ، كان الجانب المعتدي يجيبه بقهقهة عاليــة .

شغل اهتمامي تأمين ما هو ضروري لفعالية المراقبة ، اي مواصلات من الدرجة الاولى ، وطائرات هيليكوبتر ، وطائرات شحن ، وسيارات ، واجهزة راديو ، وفنيين يؤمنون سير جميع هذه الاجهزة مدة أربع وعشرين ساعة متواصلة . وقد تبين لي ان جميع هذه المتطلبات لم تكن لدى هيئة المراقبة . فقوتها الجوية مثلا كانت مؤلفة من طائرة داكوتا واحدة . ومن ذلك الحين بدأت اشعر ان الامر لم يكن على ما يرام بين هيئة مراقبة الهدنة وبين قسم الادارة في الامانة العامة للامم المتحدة في نيويورك .

قابلت رئيس قسم الادارة ، دافيد فوهــان ، الاميركــي الجنسية ، ومساعــده لانسكــي ، في مكتب اندرو كورديه . فشرح لــي دافيد فوهان مهمة القسم الذي يرئسه ، وهي امداد بعثات الامم المتحدة في الخارج بكل ما تحتاج اليه . فسررت للقائه ، لان مهمتي كانت تعتمد كثيرا على مدى معاونته لي . لكنني بعد ان استمعت اليه شعرت بان الجنرالات في نيويورك يأخــذون اوامرهم من صغار الموظفين . وقد بدا لي ان هذا غريب حقا ، اذ انــي كنت اعتقــد ان هــذا المبدأ قد انقــرض منذ اكثر من مئة سنة ولم يعــد له وجود في وقتنا الحاضر . لكنني عندمــا تكلمت عــن هــذا

الامر مع بعض الموظفين الاخرين ، تبين لي ان هناك احتكاكا بين الطابق الثامن والثلاثين الذي يستضيف الامين العام وكبار مساعديه وبين الطابق الواحد والعشرين الذي يستضيف دافيد فوهان و« امبراطوريته » . ففي الطابق الواحد والعشرين يشرف الموظفون على صرف أموال الامم المتحدة ويعينون الموظفين ويشترون الامـدادات التي تتراوح بين شراء الورق والدبابيس والالات الحاسبة وبين أطنان القمح والسكر . وكان جميع رؤساء بعثات الامم المتحدة في الخارج يتذمرون من هذا الوضع .

بدا لي ان المهمة التي انيطت بي هي مهمة يستحيل تحقيقها . كـان ذلك تحديا لي . فقبلت التحـدي خصوصا بعد أن أشعل في همرشولـد ومساعدوه روح الحماس والتفاني في سبيل تحقيق هدف ما . وهكذا ، بعد تفكير عميق ، قررت أن أمسك بالشبكة دون ان يكون عندي اي فكرة عن الاعماق التي كانت أطراف الشبكة عالقة بها .

وسألني همرشولد عندما قابلته للمرة الثانية عـن رأيي في منصب رئيس هيئة مراقبة للهدنة ، فأجبته باني اقبل هذا المنصب ، اذا كانت الامم المتحدة تريدني .

وعندما اصبح تعييني امرا واقعا ، بدأ همرشولد يتكلم فعلا عن فلسطين . لا انسى ابدا تلك الصورة الموضوعية التي اعطاني اياها ، كما لا يمكن أن أنسى كلمة واحدة مما قاله لي ، لان كل كلمة كان لها علاقة مباشرة بالوضع في القدس . وقد انهى همرشولد حديثه معي قائلا :

« عندما تصل الى هناك ، ، ستجد ان بعثتنا ضعيفة ، زاد في ضعفها فشلها المتكرر . في هذا الوقت بالذات يرئس البعثة مؤقتا شخص لا يرضى عنه العرب . واعتقـد انك اكتشفت الان كم هو سهـل ان تثير عداوة الاسرائيليين . خذ وقتك الكافي . ادرس البعثة ، وادرس مساعديك . لكن قبل كل شيء ادرس ادارة البعثة جيدا . تذكر أن الامانة الشخصية مهمة جدا . نظف جهازك اذا وجدت ضرورة لذلك . وتأكد من ان هناك حدا معقولا من النظافة في جهازك دائما . » لم ادر ما الذي عناه بقوله « حدا معقولا من النظافة » ، ولم يكن لدي الوقت لاسأله .

وتابع همرشولد حديثه قائلا :

« اعمل كل ما بوسعك لتكسب ثقة العرب . وتذكر انك مهما عملت في سبيل الاسرائيليين فلن تكسب تعاونهم أو ثقتهم اطلاقا . وعندما تأتيني بمقترحاتك ، تأكد من اني سأقف معك واعطيك كل مساعدة تحتاج اليها . »

واني اقول اليوم : « لو ان الارض المقدسة هي المكان الوحيد الذي يفتقر الى المساندة والتعاون » لكانت الصورة التي اعطاني اياها كاملة بجميع وجوهها .

# الفصل السادس

في الواحد والعشرين من آذار ١٩٥٨ ، كانت سيارتي التي يرفرف عليها علم الامم المتحدة تلف الطريق الصاعد نحو جبل المكبر . وكان اول ما وقعت عليه عيناي هو القصر الابيض المحاط بالزهور : مقر هيئة المراقبة الدولية .

في أيام الانتداب كان المندوب السامي الانكليزي قد اختار ذلك القصر مقرا له . ومنذ ان غادر آخر مندوب سام بريطاني فلسطين في ١٩٤٨ بقي القصر معزولا في أرض عزلاء تفصل بين الدولتين المتخاصمتين . وكان الكونت برنادوت قد اختاره مقرا للامم المتحدة قبل مقتله بساعات قليلة . وفي السنين العشر التي تلت كان يرتفع فوق ذلك البناء علم الامم المتحدة . وكانت تربطه شبكة الامم المتحدة الاسلكية بنيويورك ، وجنيف ، وبانكوك ، وكوريا .

في مساء اليوم الذي وصلت فيه ، وفيما كنت أنظر الى التلال البعيدة ، والى جبل الزيتون ، ووادي الاردن ، شعرت باني كنت على حق عندما اخترت ذلك البناء ليكون مسكنا لي . كان المكان هادئا . ولربما كان المكان الوحيد الذي يبعدني عن جو التوتر السائد على جانبي الاسلاك الشائكة بين قسمي القدس المتنازعين . ففي تلك المدينة البائسة ، لم يكن هناك حياد الا تحت ظل علم الامم المتحدة .

كان ذلك اليوم يوما طويلا ومتعبا . وكنت قد لاحظت في مطار بيروت التعب على وجه الكولونيل بيرون ليرى كبير المراقبين الدوليين بالوكالة . وقد أخذني فورا الى طائرة الداكوتا الواحدة التي كانت تتالف منها قوة الامم المتحدة الجوية . كانت الطائرة بيضاء اللون ، عليها اشارة الامم المتحدة المميزة . ( اكتشفت فيما بعد انه لا قيمة لعلامات الامم المتحدة المميزة عند الاسرائيليين وبالتالي فهي لا توفر لنا الحماية من المقاتلات النفاثة الاسرائيلية . ) ثم لم نلبث ان وجدنا انفسنا نحلق فوق مرفأ تل ابيب في طريقنا الى مطار الاردن ومن ثم الى القدس . وفي الاردن استقبلتني السلطات المدنية والعسكرية بخطابات مكتوبة بلغة انكليزية رفيعة . واخيرا مرت بنا السيارة عن طريق نابلس التي كانت تلتف حول المدينة القديمة .

فشاهدت ، للمرة الاولى ، القدس بحيطانها القديمة التي تبدو من ورائها التلال وسفوح الزيتون .

كان يعلو الوجوه التي استقبلتني في بناء الامم المتحدة علامات الحذر والتحفظ وبعض الاحيان التعجب كما هو شأن كل الموظفين الذين يرون ، للمرة الاولى ، رئيسا جديدا لهم . وكان في استقبالي الكولونيل نلسون ، وهو اميركي يرئس قسم العمليات العسكرية ، والى جانبه هنري فيجيه الفرنسي الذي بدأ خدمته الدولية في ايام عصبة الامم بجنيف . كانوا يلقبونه بـ « الثعلب » ، اذ كان يتمتع فعلا بشخصية فذة . وقد التحق بخدمة الامم المتحدة بعد أن أحيل الى التقاعد ، فجاء القدس في ١٩٤٧ . وبذلك خدم مع برنادوت ورالف بنش ، فاكتسب خبرة لا تضاهى . وكم توفقت بكونه المستشار السياسي الخاص لي . وقد كان هو الذي اعد اتفاقية الهدنة . وبالنظر لخدمته المستمرة ، اصبح مركز الثقل في بعثة ضعفت فعاليتها وكثر استبدال الموظفين فيها . وقد لحظت ، لاول مرة رأيته فيها انه رجل يتمتع بذكاء خارق الى جانب التفاني في سبيل اداء واجبه على الوجه الاكمل . وتبين لي فيما بعد انني كنت مصيبا في هذا ، مما جعلني اعتمد عليه كثيرا . وبالاضافة الى نلسون وفيجيه ، كان هناك أيضا البير غرانــد ، الملحق الصحفي الذي كنت اتكل عليه كثيرا . وقد شعرت منذ اليوم الذي وصلت فيه ان هؤلاء الاشخاص الثلاثة في مقر البعثة عناصر طيبة لمستقبل منتج . اما رئيس قسم الادارة السيد برودنكس الاميركي الجنسية ، فبدا لي انه شخص محبوب ، يميل الى الاختلاط بالاخرين .

وهكذا ، كنت انظر الى المستقبل نظرة تفاؤل . ولعل ذلك يعود ، في الاكثر ، الى النور الصافي ، وشجر الزيتون ، ورائحة الازهار التي كانت تحيط بالبناء .

غير ان الواقع صدمني في صباح اليوم التالي . كان الكولونيل ليري كاتوليكيا مؤمنــا ، لكن العــرب لم يمنحوه ثقتهم . بل اتهمــوه بالتحيز للاسرائيليين . وكان منشأ هذه التهمة مضحكا يبين جو الشك المحيط بنا . كان من عادة الكولونيل ليري ان يحضر قداسا صباح كل يوم في احد الاديرة القريبة . وكان من عادته أيضا ان يغادر القداس ويأتي توا الى مقر البعثة فيدخل باب البناء الساعة السابعة من كل صباح . وقد لاحظ هذا الامر أحد موظفينا المحليين الاردنيين . وحيث ان باب البناء الذي اعتاد الكولونيل ليري ان يدخله يواجه اسرائيل لانه الاقرب الى الــدير ، فقد استنتجت الاستخبارات الاردنية انه كان يأتي من عند خليلته الاسرائيلية في الحي اليهودي . ولما كان الاردنيون متمسكين بهذا الاعتقاد ، حمدت الله على انني اتخذت مسكني ضمن البناء الذي يستضيف المقر العام للبعثة .

وفي هذا الصباح الذي لم يكن موفقا ، طفت بجميع اقسام المركز فوجدت ان القيادة بعيدة جدا عن فرق المراقبين التي كانت تعمل على بعد مئات الاميال وعلى حدود اربع دول مختلفة . وكان في المقر اربع لجان هدنة مشتركة تشرف على أعمال ١٠٩ مراقبين من اثنتي عشرة دولة عضو في الامم المتحدة هي اميركا واوستراليا وبلجيكا وكندا والدانمارك وفرنسا وايرلندة وايطاليا وهولندة ونيوزيلندة والنروج واسوج . وكان على كل مراقب ان يقوم بمراقبة الحدود وان يعلم المقر الرئيسي بما يدور عليها ، مستعملا في انجاز مهمته اجهزة بسيطة جدا . خرائط ونواظير وبوصلة وراديو وسيارة جيب ، ثم شخصيته . وكان يساعد جميع هؤلاء المراقبين مئة وواحد وخمسين مدنيا من موظفي الامم المتحدة ، يتولون الراديو وقيادة السيارات وصيانتها ، بالاضافة الى أعمال الحراسة .

كان هذا الوضع عجيبا من الناحية العسكرية . فلو ان اية دولة طبقت مثل هذا التنظيم في جيوشها ، لكانت كمن يقذف بنفسه الى الانتحار . لكن هذه الطريقة كانت ، على ما يظهر ، مقبولة من الذين سبقوني ، الى احتلال منصبي . وبدا لي ان هذا النوع من التنظيم المائع يؤدي الى خلافات داخلية بحتة .

نظرة واحدة الى الخرائط في غرفة العمليات كانت كافية للتأكد من ان هذا التنظيم سيسوقنا الى نكبة . فقد كان امام كل لجنة مراقبة مشتركة مهمة صعبة جدا . وكانت اسرائيل ، بالاضافة الى حدودها البحرية ، محاطة بخمسمئة وخمس واربعين ميلا من الاراضي العربية العدوة لها : لبنان وسوريا والاردن ومصر . والى جانب الحدود الدولية القديمة كانت هنالك خطوط الهدنة المعرجة التي تكتنفها النتوءات والمسالك المسدودة . وكانت النتوءات داخل كل من الحدود الدولية مناطق مجردة من السلاح . ولم يكن هناك علامات واضحة على خطوط الهدنة . فكان كل فريق يستعين بالخرائط الموجودة بين يديه والمختلفة عن الخرائط الموجودة بين يدي الجانب الاخر . ففي وضع كهذا ، لا عجب ان يكون الجو مشحونا بمنازعات تنفجر في كل ساعة وفي كل وقت .

وكان لكل من الحدود الاربعة مميزات خاصة . ففي الشمال وعلى الحدود اللبنانية الاسرائيلية ، حيث الوضع هادئا والمشاكل تحل بسرعة ، كان يرئس لجنة المراقبة المشتركة الكولونيل الفرنسي « له بيتي » . ولم نكن بحاجة الى اكثر من ثلاثة مراقبين . كان للجنة المراقبة المشتركة مقر في بيروت ومحطة على الحدود في الناقورة .

أما على الحدود السورية الاسرائيلية فقد كان الوضع يختلف تماما . فالحدود هناك مشحونة بنزاعات تنفجر دائما بطلقات نارية كلما جاء

موسم الفلاحة او الزراعة او الحصاد . والمنطقة خصبة جدا ، خصوصا بالقمح والشعير . وكلما حان موسم الفلاحة ، عمد الاسرائيليون الى الاعتداء على الارض التي يملكها العرب ، مما جعل الجانبان يعتبران ان موسم اطلاق الرصاص قد اتى . وكان على تلك الحدود ثلاثة وخمسون مراقبا برئاسة الكولونيل الكندي يرتراند موزعون على أربع محطات للمراقبة ضمن الحدود الاسرائيلية وخمس محطات ضمن الحدود السورية الممتدة خمسا واربعين ميلا الى بحيرة طبريا والحولة . وكان يعمل في كل محطة مراقبان ، اربعا وعشرين ساعة بالتناوب . وكان مقر اللجنة المشتركة دمشق ، ولها محطات ضمن كل من الحدود ، عند طبريا وعند القنيطرة . وكان العمل في تلك اللجنة المشتركة أشبه شيء بالكابوس لمن يريد تأمين السلم لان الكراهية بين الجانبين كانت على أشدها . وكان الاسرائيليون يرفضون حضور الاجتماعات بوجود السوريين . وقد اتخذوا هذا الموقف بالرغم من ان مجلس الامن في نيويورك شجب طريقة عملهم والتكتيك الذي اتبعوه دائما .

والى الجنوب ، كان للحدود الاردنية الاسرائيلية لجنة مراقبة مقرها القدس ، قرب بوابة مندلبوم يرئسها الكولونيل الكندي فلينت ، بمساعدة واحد وثلاثين مراقبا يعملون اربعا وعشرين ساعة في اليوم من محطات متفرقة على طول الحدود ، بالاضافة الى دوريات جيب تؤمن المراقبة على ضفة الاردن الغربية البعيدة ثلاثة عشر ميلا عن تل ابيب . وكان على المراقبين مهمة مراقبة القوافل التي تحمل الامدادات الى جبل سكوبس مرتين في الاسبوع .

اما على الحدود المصرية الاسرائيلية ، فكانت المراقبة المشتركة تعمل برئاسة الكولونيل موريس براون النيوزيلندي . وقد خفت الحوادث على تلك الحدود لوجود قوة الطوارىء الدولية ، برئاسة الجنرال الكندي بيرنز ، التي مقرها غزة . كان الوضع غريبا ، اذ اعتبرت اسرائيل ان حملة سيناء قد أنهت اتفاقية الهدنة ، وكانت ترفض ان تسهم فيلجنة المراقبة المشتركة على الحدود وتقبل التعامل مع رئيس قوة الطوارىء الجنرال بيرنز من أجل حل المشاكل الناشئة على الحدود . غير ان الجنرال بيرنز كان يحيل الشكاوى الى مراقبينا في غزة ليحققوا فيها على اساس ان الامم المتحدة لا تقبل انهاء اتفاقية الهدنة من جانب واحد .

وكانت هيئة مراقبة الهدنة في القدس تشرف على اعمال لجان المراقبة المشتركة . فكانت على اتصال دائم بمراكز المراقبة بواسطة اللاسلكي . وبعد ان استمعت بواسطة اللاسلكي على التقارير الواردة من هذه المراكز ، إكتشفت صعوبة المهمة . كان المراقبون

يعيشون في الغبار والحر وكانوا في اكثر الاحيـــان يجدون انفسهم وسط القتال . ولم يكن ذلك يثبط من عزيمتهم على فرض وقف اطلاق النار على الجانبين خوفا من أن يتسع القتال . وكان عليهم أيضا أن يؤدوا دور القاضي في القرى التي كانت تتأثر بالقتال . كتأمين تبادل الاسرى واعادة المواشي ومساعدة السكان على مكافحة الملاريا وجيوش الجراد .

لم تكن لدي القوة الكافية التي تمكنني من ان اقف بجانبهم في اللحظات الحرجة ، مما كان يزعجني كثيرا . فبدلا من ان تكون لدي قوات مقاتلــة ودبابات ومدافع او حتى القوة التي تخولني انذار المتقاتلين عند نشوب نزاع باتخاذ العقوبات اللازمة . لم يكـــن لدي سوى عزيمتي ومسانـــدة همرشولد المعنوية .

وكنت كلما تكلمت مع معاونيي ، وكلما غصت في قراءة الملفات التي كانت في حالة سيئة جدا بسبب الاسلـــوبالفاسد المتبع ، وللعادة التي درج عليها « الثعلب » فيجيه ، وهي اخفاء تقاريره في مكان خاص ، اتضح لي ان هناك مكانين قد يؤديان الى نزاع قريب في اية لحظة . اولا ، جبل سكوبس ، حيث كان اليهود في وضع يشرف على القدس القديمة وعلـــى الطريق الرئيسي المؤدي الى رام‌الله ونابلس . وثانيا ، الحدود السورية لان السوريين كانوا يصرحون باستمرار انهم سيرمون باليهود الى البحر . وكان اليهود يبيتون خططا لتحويل مياه نهر الاردن ، بالاضافة الى النزاع الدائم بين الجانبين في المنطقة المجردة من السلاح ، على الزراعة . حتى ان صيادي الاسماك في بحيرة طبريا كانوا عرضة للرصاص .

صممت على أن تصبح البعثة في أحسن حال كي تتمكن من السيطرة على اية ازمة تنشأ . قد تكون صلاحيات البعثة محدودة جدا ، وقد تكون معنوياتها ضعيفة ، الا ان المراقبين تمكنوا من القيام بعمل رائع بالرغم من الصعوبات . وكانوا في كـــل مرة يرتفعون الى المستوى التـــي تتطلبـــه الاحداث . ان ما كانت البعثة تحتاج اليه هو بث روح جديدة فيها . وقـــد فكرت بخلق تلك الروح الجديدة اولا عن طريق الاتصال الشخصي الـــذي يقنع كل عضو في البعثة ان الرئيس الجديد على استعداد أن يرمي بثقلـــه كله وراء المجهودات التي كانوا يقومون بها . وثانيا ، عن طريق اتخـــاذ اجراءات سريعة كفيلة بصهر جميع اجزاء البعثة في قيادة واحدة لا يعود فيها فرق بين العسكري والمدني ويصبح الكل فريقا واحدا .

اصطدمت محاولتي للملمة اجزاء البعثة من اجل صهرها في قيادة واحدة بعقبات . ففي اول يوم اثنين ، تلقيت مخابرة لاسلكية من الكولونيل برتراند في الشام يتذمر فيها من الموظفين المدنيين التابعين للجنة المشتركة لانهـــم

رفضوا ان يطيعوا اوامر البقاء في عملهم لينجزوا تصليح بعض سيارات جيب ضرورية . وفي الحال طلبت حضور الرئيس الاداري السيد برودنكس الاميركي ، فأدهشني تفسيره للامر اذ قال لي : « يجب أن تعلم يا حضرة الجنرال ان رجالنا غير ملزمين باطاعة اوامر الكولونيل برتراند . واسمح لنفسي بان الفت نظرك الى ان اي موظف اداري حلف اليمين غير ملزم اطلاقا بأن يأخذ اوامر من عسكريين . واذا كنا نحن كمدنيين في الامم المتحدة نأخذ اوامر من العسكريين ، فما ذلك الا حبا منا في التعاون . »

فقلت : « أنتم لا تأخذون أوامر من عسكريين ؟ » فأجاب : « كلا . لا نأخذ اوامر من عسكريين ، يا سيدي . » فذهلت ، لكنني قلت له : « هل هذا يسري علي ايضا ؟ هل هو مسموح لكم ان تأخذوا اوامر من جنرال ؟ » فأجاب والبسمة على شفتيه : « طبعا يا سيدي ، هذا شيء آخر تماما . لانه صدف ان وظيفتك وظيفة عسكرية ، أما مرتبتك فمرتبة أمين عام مساعد ، وهو ما يجعلك موظفا دوليا . »

نظرت اليه اتحرى سببا لموقفه . هل يعقل ان يكون هذا الموقف وليد الايام التي كان فيها جنديا بسيطا في بحرية الولايات المتحدة ، فاذا به يشعر بالنقص تجاه كل جنرال ؟ لم تنم تعابير وجهه عن شيء من هذا القبيل . فاستنتجت انه كان فعلا يؤمن بما يقول . مسكين برودنكس ، فقد كان نموذجا لعقلية خاصة تؤمن بامتيازات الطابق الواحد والعشرين في « قصر الزجاج » في الامم المتحدة ، هذه الامتيازات التي آمن بها جميع الموظفين الذين يحتلونه دون اهتمام بأعمال البعثات الدولية في الخارج وبما يتركه هذا الايمان من أثر في منجزاتها . وكان أن عاد الى ذاكرتي كل ما قيل لي في نيويورك ، فتأكدت ان برودنكس لم يكن الا نتاج عقلية الموظفين الاميركيين الذين عينوا في الامم المتحدة منذ ولادتها ، اي حين كان ذوو الكفاءة غير متوفرين ، لان الحرب لم تكن قد انتهت بعد . وقد يكون هذا هو السبب الذي من أجله خلقوا لانفسهم ملاكا توظيفيا لم يجعلوه وقفا عليهم فحسب ، بل انهم وضعوا له قوانين وانظمة من عندياتهم ، حتى اصبحوا « مؤسسة قوية » تعمل باستقلال تام ، او تكاد ، عن منظمة الامم المتحدة .

وقد استخلصت من حديثي مع برودنكس ان رئيس قسم الادارة في هيئة مراقبة الهدنة قيل له عند تعيينه ان مرتبته هي الثانية في البعثة . فلما وصل برودنكس الى القدس توقع ان تعلق اللوحة رقم ٢ على سيارته . لكنه اكتشف ان اللوحة رقم ٢ كانت معلقة على سيارة هنري فيجيه ، منذ ان تأسست هيئة مراقبة الهدنة . وقد حاول برودنكس كثيرا ان يعلق اللوحة رقم ٢ على سيارته ، الا ان نيويورك تدخلت في الامر وطلبت منه ان يرضى

باللوحة رقم ٣ ويترك اللوحة رقم ٢ لسيارة فيجيه ، احتراما لعمره ولخدمته الطويلة . ولسوء الحظ ، فقد اثار هذا حفيظة الكولونيل رئيس قسم العمليات الذي كان من حقه ان يحتفظ باللوحة رقم ٣ لسيارته . ولكنه لم يجد في النهاية مفرا من ان يقبل باللوحة رقم ٤ ، على اساس ان برودنكس قد أخذ اللوحة رقم ٣ .

وهكذا كان همي الاول ان اضع حدا لهذا النوع من النظام الذي يسمح للموظفين المدنيين بان يتجاهلوا الاوامر الصادرة اليهم من الضباط . ولما كانت عمليات البعثة كلها تعتمد على خبرتهم الفنية ، فقد كان هذا الوضع يسير بنا الى الفشل الذريع . وقد صححت هذا الوضع فورا واعطيت الاوامر بأن على جميع الموظفين المدنيين العاملين في قسم الادارة ان يأخذوا ، من الان فصاعدا ، الاوامر من الضباط العسكريين ، وان على كل شخص من البعثة ان يأخذ الاوامر مني .

ثم دعوت الى مكتبي جميع الموظفين في المقر العام ، المدنيون منهم والعسكريون ، كما دعوت بعض الموظفين الذين كانوا يعملون في لجنة المراقبة المشتركة على الحدود الاردنية . فأفهمتهم جميعا معنى القوانين الجديدة التي وضعتها فتفهموها رغم مخالفتها لما درج عليه من جاء قبلي من الرؤساء .

وكم وددت أن اكون اكثر صرامة فأقول لهم ان سمعة الامم المتحدة في الشرق الاوسط تلوثت بما فيه الكفاية ، وضعفت لسبب الخلافات المستحكمة بين العاملين فيها . كان العسكريون جميعا نظاميين ، لكنني اردت افهام المدنيين أيضا ما هو وضعهم بالضبط بالنسبة الى العسكريين ، كما أردت أن اعلن ان من لا يريد من الموظفين المدنيين في البعثة ان يطيع الاوامر يجعلني مضطرا لارساله الى بلده . فاذا لم تساندني الامم المتحدة في ذلك ، أستقيل فورا .

قلت انه اذا كان لاحد الموظفين المدنيين ، او العسكريين ملاحظة او شكوى فليأت الي مباشرة لا ان يذهب بها الى نيويورك بوسائله الخاصة . فقد كنت على علم بوجود مثل هذه الوسائل الخاصة التي كانوا يستعملونها للاتصال مباشرة بنيويورك . لذلك اردت من الجميع ان يؤكدوا لي عن تعاونهم واخلاصهم المطلق .

وقلت لهم ايضا انني ارى من واجبي ان اذكرهم جميعا بان ولاءهم الوحيد في اثناء القيام بواجبهم هو للامم المتحدة . لذلك فان عادة ارسال تقاريرهم الى بعثاتهم الدبلوماسية في القدس امر انتهى ولن اسمح به من الان فصاعدا مهما كانت التعليمات التي تلقوها قبل مجيئهم .

وهكذا شعرت باننا ادخلنا بعض الانظمة المفيدة على بعثتنا . وبالرغم من وجود بعض المشاكل ، فقد عملوا بجهد وتفان واخلاص وموضوعية تامة . ولم أجد فارق في القدرة على العمل بين جنسياتهم المختلفة . مع العلم ان الضباط الهولنديين كانوا ممتازين . وطبعا ، كنت اقسى مما يجب على السويديين ، لا لشيء الا لاقطع الطريق على كل من تسول له الشك في تحيزي لابناء وطني .

في هذه الاثناء ، كان « الثعلب » فيجيه يعطيني دروسا في السياسة المحلية . فاستفدت منه كثيرا ، بالرغم من ضيق الوقت ، اذ كان علي ان اقوم بزيارات المجاملة للرئيس عبد الناصر ، ولبن زفي ، وللملك حسين ، وللرئيس القوتلي ، اي حكام الدول التي وقعت على اتفاقية الهدنة .

كان بن غوريون ، آنذاك ، رئيس وزراء اسرائيل ، غير أن زيارتي الاولى لم تكن له ، بل لوزارة الخارجية الاسرائيلية . وكان المسؤولون في الامم المتحدة في نيويورك قد اعطوني صورة مجملة عن الموقف الذي تتخذه اسرائيل .

اصغيت جيدا للنصائح التي زودني بها « الثعلب » قبل ان اقوم بزيارتي الاولى . ونظرا لوجود وزيرة الخارجية ، غولدا ماير ، خارج اسرائيل ، فقد استقبلني الامين العام للوزارة السيد والتر ايتان . وقد تملكني شعور غريب وانا جالس استمع الى ذلك الشخص البافاري الاصل ، المتعلم في اوكسفورد ، وهو يتكلم معي بطريقة شدد فيها كثيرا على ابراز مقدرته باللغة الانكليزية . وكان معه في المكتب يوسف تقوه من مواليد سيبيريا ، الذي كان مدير لشؤون الهدنة في اسرائيل ، والذي اصبح لي معه فيما بعد جولات طويلة . ويؤسفني القول ان اول اجتماع لي مع السيد تقوه جعلني اراه كالزحافات ، تلتصق بالشيء ولا تريد أن تفترق عنه .

كان الحديث الذي جرى لي مع السيد ايتان ، أمين عام وزارة الخارجية الاسرائيلية ، تكرارا للارشادات الكثيرة التي استقبلتني بها الصحافة الاسرائيلية فور وصولي القدس . فقد أوضح لي في حديثه ان الامم المتحدة فشلت في التعاون مع اسرائيل ورغبتها المخلصة في العيش بسلام . وانها اهملت الاستجابة لاسرائيل ولم تتفهم حاجة هذه الدولة المضطهدة الى اداء دور فعال في سبيل الحفاظ على السلام . كان حديثه اشبه بفيضان من البلاغة ، اكد فيه محاولات اسرائيل المستمرة لتوطيد السلام . ونوه بان جميع اسلافي من رؤساء هيئة الهدنة فشلوا في تفهم هذا الوضع ، فلم يعاونوا اسرائيل على تحقيق تلك الرغبة . لكنه ابدى امله بان أكون خيرا منهم . وكانت خلاصة حديثه معي ان حصولي على مساعدة اسرائيل في اداء مهمتي على اكمل وجه ، متوقف على تجاهلي اتفاقية الهدنة . وقد

شعرت ان امين عام وزارة خارجية اسرائيل ، كان يخبىء ، وراء لهجته الاوكسفوردية واسلوبه الناعم في الكلام ، عنجهية ما بعدها عنجهية ، فكأني به اراد ان يقول لي ان لا خيار لاسرائيل في قبولي ، وان من غير المعقول ان يأتي جندي متوحش مثلي ، من أصقاع الشمـــال المجهولة ، ليجري مفاوضـــات على مستوى فكري وسيـــاسي كالمستوى الموجود في وزارة الخارجية الاسرائيلية !

وكم شعرت بارتياح كبير عندما خرجت من مكتبه بصحبة السيد يوسف تقوه . لكن ما ان دخلت مع هذا الاخير الى مكتبه حتى اكتشفت أني خرجت من « الدلفة الى تحت المزراب » . فقد خضعت للتجربة ذاتها ، حين أخذ يعطينـــي ارشاداته بشيء كثـــير مـــن الصلف والكبرياء ، الـــى جانب التأنيب والتوبيخ . على انني اقمت مع يوسف تقوه ، فيما بعـــد ، علاقة طيبة ، بالرغم من كثرة الاصطدامات التي كانت تقع بيننا . فقد عجزت عن أن أضع ثقتي به ، اذ كانت لشخصيته طباع هي مزيج من طباع الحيات والعقارب . ولم يكن من الصعب علي ان افهم موقفه منا . كانت نصيحته طبق الاصل عن نصيحة السيد ايتان لي القائلة بانه كان علي ان لا اتقيد بالقوانين .

كان موقف اسرائيل يلخص هكذا : لم يتخلص اليهود مـــن الانكليز ليستبدلوهم بسواهم من الاجانب ، اي الامم المتحدة ... هذه المنظمة التي دابت على توجيه الانتقادات العنيفة الى اليهود وتعرقل صراعهم من أجل البقاء في وطنهم .

وخيل الي ان وزيرة الخارجية ، السيدة غولدا ماير ، كانت مستاءة من وجودنا ( أي وجود الامم المتحدة ) ايضا ، في أول مقابلة لي معها بعد رجوعها من افريقيا . وغولدا ماير امراة ثخينة تغلب عليها مظاهر الرجولة . وهي تعيش على السجاير والقهوة . وقبل ان ينتهي حديثنا سمحت لنفسي ان أتقدم اليها بطلب . فقلت لها انه مهما كانت الخلافات الممكن نشوؤها بيننا في المستقبل ، فهل لي ان اتحدث اليها دائما بصراحة ؟ فأجابتني بان هذا ما تريده لي ولنفسها أيضا . ولم يتخل احد منا عن هذا الموقف الصريح طيلة السنين المريرة التي كانت تنتظرنا .

# الفصل السابع

كانت الفترة التي وصلت فيها القدس فترة هادئة . لكن سرعان ما اكتشفت اننا مقبلون على سلسلة من الازمات . وقد بدأت الازمة الاولى بعد وصولي بقليل ، اي قبل ان تسنح لي فرصة القيام بزيارات المجاملة . وكنت في ذلك الحين منهمكا بمعالجة الوضع الذي أخذت معالم عواقبه الوخيمة تظهر في الافق . كانت اسرائيل قد أعلنت انها ستقيم عرضا عسكريا في الرابع والعشرين من نيسان في مدينة القدس ، احتفالا بمرور عشر سنوات على تأسيسها . وكان همرشولد قد حذرني من الازمة التي ستنشأ اذا نفـذت اسرائيل خطتها باقامـة العرض في القدس . فزرت وزارة الخارجية الاسرائيلية لاحذرها من نتائج هذا العمل . لكن زيارتي هذه لم تترك أي أثر في المسؤولين . وكل ما سمعته منهم هو قولهم لي مرة اخرى انه من الافضل ان لا اتقيد بشروط الهدنة . وكان من الواضح ان اسرائيل لا تنوي التقيد بشروطها ، كما كان من الواضح انه اذا ما نقلت اسرائيل مدافعها ودباباتها الى المنطقة الحرام في القدس ، فان الاردنيين سيعبئون قواتهم هناك ، بالاضافة الى ان العرض العسكري سيثير مشاعر العرب القاطنين في القدس القديمة .

وفيما كنت منهمكا بمعالجة هذا الوضع ، اذ باطلاق النار ينفجر على الحدود السورية ـ الاسرائيلية عند بحيرة الحولة . وجاءتني تقارير المراقبين تقول بان المدافع السورية تقصف الاجهزة الاسرائيلية التي تقوم بحفر قناة هناك .

كانت المستنقعات حول ذلك القسم من الحدود مصدر نزاع دائم بين الفريقين . ولم توضح اتفاقية الهدنة تماما حدود المنطقة الحرام المملوءة بالمستنقعـات . غير ان اليهود ادعوا دائمـا بأن لهم الحق في استثمار تلك الاراضي ، بصرف النظر عن جنسية الذين يملكونها . ولسوء الحظ ايضا ، فان اليهود اعتادوا فلاحة اراضي العرب العظيمة الخصب . ومع الوقت ، وتحت بصر السوريين الذين تمركزوا على التلال العالية المشرفة على المستنقعات ، تمكن الاسرائيليون من حفر قنوات واقامة شبكة ري تمر في الاراضي التي يملكهـا العرب . وكان هـذا العمـل ، يثـير استنكار السوريين . وفي الرابـع والعشرين مـن آذار ، عندما بـدأ

الاسرائيليون بحفر قناة جديدة ، فتح السوريون عليهم نيران مدافعهم . وكان السوريون دائما يدعون بحق ، ان القناة ستؤثر على ملكية الارض في المستقبل عندما تتقرر السيادة عليها . واستمر اطلاق النار من الجهتين . وكنت استمع في اللاسلكي الى المراقبين ، وهم يبذلون جهدهم لفرض وقف اطلاق النار . وتصورت حشد الجنود بمدافعهم ودباباتهم في المنطقة الحرام وما هي الا برهة حتى اتصل بي المراقبون واكدوا لي ذلك .

كان من المهم جدا تجنب القتال . غير ان العقبات التي وضعت امام محاولاتي جاءت مثالا لطريقة الاسرائيليين في وضع العراقيل في وجهنا . ففي ليلة السادس والعشرين من آذار ، بعد ان وصلتني شكوى رسمية من السلطات السورية ، حاولت مرارا الاتصال بيوسف تقوه المدير الاسرائيلي لشؤون الهدنة . وكان السوريون دائما يعترفون بسلطة الامم المتحدة على تلك المنطقة ، لذلك كانوا يظهرون استعدادهم لسماع صوت الحكمة والمنطق . اما في القدس ، فلم أكن أرى الا الغش والخداع من زمرة من الموظفين الاسرائيليين الصغار الذين كانوا يقولون لي أن السيد تقوه ليس في مكتبه وانهم عاجزون عن الاتصال به في الايام القليلة المقبلة .

لم يعد امامي سوى ان ابعث بكتاب شديد اللهجة اقترح فيه على الاسرائيليين ان يوقفوا أعمال الحفر في القناة الى أن أرسل فريقا من المساحين الاخصائيين للتحقق في الشكوى السورية . كان الوقت فجرا عندما انهيت الكتاب وبعثت به الى وزارة الخارجية الاسرائيلية مع الالحاح على ان يصلني الجواب في اليوم نفسه . وقد اعددت فورا فريقا من الاخصائيين الكنديين وأرسلتهم على جناح السرعة الى منطقة بحيرة الحولة ، ريثما اكون قد تسلمت جواب وزارة الخارجية الاسرائيلية على كتابي . وبعد ظهر ذلك اليوم استدعاني السيد ايتان ، امين عام الخارجية الاسرائيلية ، الى مكتبه واخبرني بكل برودة انه يستنكر موقفي . لكن الحكومة الاسرائيلية مستعدة لان تقبل اقتراحاتي . فاستغربت ، كل الاستغراب ، قبولها بهذه السهولة خصوصا وان « الثعلب » فيجيه كان قد اخبرني انه حتى ذلك التاريخ كان الاسرائيليون يفسرون دائما اتفاقية الهدنة حسب هواهم وحسب مصالحهم .

وفي الايام القليلة التالية قام الفريق الكندي الذي ارسلته الى الحولة بمهمته فأرسلت نسخة من تقريره الى كل من الحكومتين السورية والاسرائيلية وجلست انا بنفسي ادرس نسخة من التقرير ، لان القرار النهائي في تلك القضية كان عائدا الي .

بعد دراسة دقيقة لذلك التقرير ، تبين لي أن الاسرائيليين بنوا

ادعاءاتهم على ما يلي : هناك بحيرة صغيرة اخذ علو الماء فيها ينخفض قليلا منذ سنوات عديدة ، مما حمل الاسرائيليين على « تقديم حدودهم » بشكل يتفق مع علو المياه كما كان عليه من قبل في البحيرة ، فسخروا هذه المسألة لمصالحهم . ولكن الدراسة التي قام بها الفريق الكندي جزمت بان الاسرائيليين لم يكونوا على حق في ادعاءاتهم .

لم يكن ، حتى كتاب التوراة ، بوسعه ان يتنبأ ان نزاعا سينشأ في يوم من الايام على الاراضي المقدسة سببه مستوى علو المياه في بحيرة صغيرة وان هذا النزاع سيملأ الجو ببرقيات لاسلكية بين القدس ونيويورك . لكن هذا ما حصل . اما انا فاتخذت قرارا بان السوريين كانوا على حق .

كان من السهل علي ان اصدر ذلك القرار لان القضية واضحة جدا . نطلبت من الاسرائيليين ان يكفوا فورا عن اعمال الحفر في القناة وان يعودوا خمسة وسبعين مترا الى الوراء من المكان الذي وصلوا اليه في اعمالهم . وتوقعت رد فعل عنيف من الاسرائيليين ، لكنني دهشت حين اوقفوا العمل فورا .

بعد انتهاء تلك الازمة بقليل ، اخبرت الصحف الاسرائيلية قراءها بأن خرائط المساحة التي اعتمدتها الامم المتحدة لم تكن صحيحة ، وان اسرائيل غير مقيدة بالالتزام بها . واعلن السيد بن غوريون الذي كان يستشهد بالتوراة في احاديثه معي ، بالرغم من انني لم اشعر اطلاقا بانه كان متدينا ، انه لولا الضغط الاميركي عليه لرفض قراري الذي يدين اسرائيل ويبرىء سوريا . واعتمد الصحفيون على تصريحه ، فكتبوا ان اسرائيل لم تقبل بقراري ، الا تحت التهديد الاميركي بسحب جوازات سفر خمسة وثمانين الف سائح اميركي الى اسرائيل .

لكن السيدة غولدا ماير ، وزيرة الخارجية ، نفت لي فيما بعد وجود اي ضغط اميركي . فما هو التفسير الصحيح لكل هذا ؟ التفسير الصحيح هو ان الاسرائيليين اخذوا على حين غرة ، اذ جاءهم قراري في الوقت الذي كانوا يستعدون فيه لمد شبكة الري الى الاراضي التي يملكها العرب . بالطبع كان بامكانهم ان لا يعطوا كل تلك الاهمية لحادثة لم تكن سوى خطوة صغيرة في اللعبة التي كانوا يلعبونها مع الامم المتحدة . لكن الصراخ والضجيج اللذين احاطوا بهما قراري حول تلك الحادثة كان مثالا على قدرتهم على تحويل كل حادثة ،مهما صغر شأنها ، الى حادثة اضطهاد لهم . ولم يعد عندي شك ، آنذاك ، في اني قد اكون ربحت الجولة الاولى ، لكن الاسرائيليين لن يدعوني اربح الجولات التالية .

شعرت بهذا فورا ، عندما اقترب موعد ٢٤ نيسان ، وهو اليوم الذي

اختاره اليهود لاستعراضهم العسكري في القدس ، احتفالا بمرور عشر سنوات على انشاء دولتهم . وكان انني قمت بزيارة للسيد سمير الرفاعي ، نائب رئيس الوزراء الاردني ، الـذي كان يعتبره همرشولـد من اذكى السياسيين في الشرق الاوسط . فتأكدت منه أن رد الفعل سيكون عنيفا في عمان ، عندما تبدأ الدبابات والمدافع الاسرائيلية تتحرك نحو القدس . ثم قابلت السيدة غولدا ماير ولفت نظرها الى هذا الامر ، لكن موقفها اكد لي ما كنت اخشاه ، وهو انني عما قريب سأشهد خرقا متعمدا لاتفاقية الهدنة . على انني لم أستطع ان افعل شيئا سوى أن اطلب من الحكومة الاسرائيلية تزويدي بعدد المدافع والدبابات التي ستشترك في العرض ، اذ كان ذلك ضروريا لتقدير ردة الفعل المنتظرة . ومع ان وزارة الخارجية الاسرائيلية كانت تعلم بانها تخرق اتفاقية الهدنة عمداً ، الا انها كانت تجهل العدد الذي طلبت معرفته. لذلك، فقد احالتني الى وزير الدفاع الجنرال حاييم لاسكوف.

وهكذا وجدت نفسي في وضع غير معقول . وقد زاد من غضبي مرور الايام دون أن أتلقى ردا على طلبي من الجنرال حاييم لاسكوف الذي كنت اعرفه جيدا . ولما جاء الرابع عشر من نيسان ، اضطررت ان اتقدم بطلب خطي لمقابلة الجنرال لاسكوف في مدة اقصاها ثلاثة ايام . وكان علي ان اودع هذا الطلب وزارة الخارجية ، اذ انه كان ممنوعا على موظفي الامم المتحدة ان يقوموا باتصالات مباشرة مع الرسميين . ولو اني تمكنت من الاتصال مباشرة بلاسكوف ، لوفرت على نفسي انتظارا طال ثلاثة ايام .

بعد ظهر اليوم الثالث لانتظاري قيل لي ان بامكاني ان اقابل لاسكوف في الساعة السادسة من يوم يجيء بعد مرور ثلاثة ايام أخرى . وفسرت لي وزارة الخارجية هذا التأخـير بصعوبة الاتصال بوزير الدفـاع الجنرال لاسكوف .

لم يكن هذا التفسير وجيها . بل على العكس ، كان مضحكا . فهل يعقل ان وزارة ما لا تستطيع ان تتصل بوزارة اخرى في مدى ثلاثة ايام ؟ وهكذا ضاق صدري من هذا التهرب المتعمد ، فأجبت وزارة الخارجية باني اقبل ان اجتمع بالجنرال لكن في موعد لا يتعدى ظهر يوم غد .

لكننا التقينا قبل ذلك الموعد ، اي بعد اربع ساعات من اتصالي بوزارة الخارجية . كان الجنرال لاسكوف ، في ظروف اخرى ، حلو المعشر ، عذب الحديث . لكنه في تلك المقابلة كان بادي الغضب . وقبل ان انطق بكلمة واحدة قال لي بصوت متقلص : « نحن أحرار في أن نقيم استعراضا في اي وقت نشاء وفي اي مكان نشاء من بلدنا . هذا يوم عظيم لنا . وكلما اقترب هذا اليوم ، شعرت بالحماسة تدب في اوصالي . » لكنني حذرته من ان اقامة العرض في القدس يعني التعبئة في الاردن . وعندما طلبت منه الارقام

الحقيقية للقطع الحربية التي ستشترك في العرض ، نظر الى ورقة بجانبه وقال : « ثمانون دبابة . اثنا عشر مدفع أوتوماتيكي . اثنا عشر مدفع كبير وستة مدافع مضادة للطائرات . »

وقبل ان ينهي كلامه ، سألته عما اذا كان قد اخبر الاردنيين بهذا الامر ، فأجاب قائلا : « كلا . لكننا قلنا لهم اننا سنقوم بعرض . » ثم قال : « لكن ، قل لي لماذا كل هذه الضجة . » وبعد ان قدم لنا الشراب ، انفرج الجو بيننا قليلا ، فحاولت ان اقنعه بالاستغناء عن أقامة ذلك العرض في القدس لان اقامته تعني تمزيق اتفاقية الهدنة . لكنني كنت كمن يتكلم في الهواء . اذ أعاد ككل اسرائيلي الاسطوانة نفسها ، حين قال : « انت تطلب الكثير . ماذا تريد منا ان نفعل : أن نتوقف عن التنفس ؟ »

حلمت أحلاما مزعجة في تلك الليلة . وفي صباح اليوم التالي ، وجدت ان رشحا قويا اصابني فلم أتمكن من مغادرة الفراش الا بعد يومين . فذهبت توا الى عمان .

كان رد الفعل عند سمير الرفاعي كما توقعته . كان هذا الرجل الفذ هادئا ، فلم يمطرني باعتراضات عن حاجة الاردنيين الى « التنفس » كما فعل الاسرائيليون . كان سمير الرفاعي رجلا حكيما مثقفا ، ابيض الشعر ، متوسط القامة ، تعلو وجهه بعض التجاعيد ، لكنه كان دائمـــا مشرق الابتسامة . وفي تلك المقابلة كان موقفه مثالا للطريقة التي كان يعامل بها العرب الامم المتحدة وموظفيها . كان العرب لا يقلون صلابة عن اليهود ، كما كانوا لا يقلون عنهم انتهازا للفرص ، لكنهم كانوا ، خلافـــا لليهود ، يحافظون دائما على لياقة تنم عن اصالة طبيعتهم وسلوكهم .

قال لي سمير الرفاعي بصوت يملأه الحزن والاسى : « طبعا ، انت تعلم انه لا يمكننا ان نقبل بهذا الخرق المتعمد لاتفاقية الهدنة . وليس لنا مناص من اعلان التعبئة . »

عدت الى القدس واخبرت همرشولد في نيويورك بواقع الحال . ثم لم يكن لدي ما اعمله سوى ان أجلس وانتظر . كنت أتوقع مشاكل كثيرة . لذلك ، طلبت الى الكولونيل فلنت ، رئيس لجنة المراقبة المشتركة على الحدود الاردنية ، ان يبقى على اتصال مستمر بالكولونيل نلسون ، رئيس قسم العمليات .

عشية قيام العرض ، وصلتني رسالتان ساعدتا على رفع معنوياتنا . الرسالة الاولى من التجار الاردنيين في القدس ، تفيد انهم وضعوا جميع المشاغبين تحت المراقبة ، وتنتهي بالقول : « نؤكد للجنرال ان المشاكل لن تبدأ عندنا . »

اما الرسالة الثانية فقد تلقيتها في منتصف الليل بشكل محادثة تلفونية من الجنرال لاسكوف . قال : « ايها الجنرال ، هناك شيء اريد ان اوضحه لك . اني الومك وحدك على الجو المتوتر السائد هذه الليلة . فاذا حصلت اية مشاكل تكون انت الذي سببتها . اذ لم يكن هناك اي توتر في الجو قبل ان تتدخل انت . »

كان علي ان اوجه اليه صدمة تهزه ، فأجبته : « ما تقوله بعيد كل البعد عن الحقيقة . وانت تعرف ذلك جيدا . »

ولاول مرة منذ ايام نمت نوما عميقا . وقبل فجر الرابع والعشرين من نيسان نهضت باكرا ، وقمت بزيارة لجميع مراقبينا . وجرى العرض ، لكن نتيجته كان مخيبة لامال الاسرائيليين . فبينما كانت الجموع الاسرائيلية تصفق للعرض وتحييه ، كان سكان القدس القديمة يعبرون عن حنقهم واستهزائهم به .

وهكذا عدنا الى مقر الامم المتحدة مرتاحين . فقد قامت بعثتنا بمهمتها بالرغم من العراقيل التي وضعت في طريقها . ولكن المجهود كان كبيرا . ثم غادرت مقر عملي ، بضعة ايام ، في زيارة قمت بها للجنرال بيرنز رئيس قوة الطوارىء الدولية في غزة . وعندما عدت الى القدس جابهتنا ازمة اخرى .

جاءتنا الازمة هذه المرة من جبل سكوبس ، حيث كان البوليس الاسرائيلي يقوم بنشاط من وراء الاسلاك الشائكة حول الجامعة العبرية ومستشفى هداسة القديم . كانت تلك المنطقة المتنازع عليها تقع رسميا تحت سلطة الامم المتحدة ، لكن الاسرائيليين كانوا يمنعوننا من القيام بمهمتنا . وكان البوليس الاسرائيلي يرسل دوريات عسكرية تسلب سكان قرية العيسوية العرب ، وتذلهم ، وتضع حواجز الطرقات لهم كلما جاء الليل . وكان الاسرائيليون ايضا يتوغلون في منطقة اخرى معروفة بمنطقة جنائن سليمان ، باعتبار انها ارض اسرائيلية .

كان من غير المعقول ان يسكت الجنود الاردنيون على اعمال النهب التي كان يتعرض لها اخوانهم سكان قرية العيسوية . وقد لفت نظر الاسرائيليين الى هذا الامر فلم يهتموا اطلاقا . وقبل ذلك التاريخ ، كان ممثل همرشولد الخاص الدكتور اوروتيا ، قد جاء يفتش عن حل لمشكلة جبل سكوبس . الا ان الجنود الاسرائيليين منعوه من دخول منطقة الجبل واجبروه ، امام المئات من السكان العرب ، على الرجوع من حيث اتى . وعلى هذا ، فقد كنت اشك في قدرتي على القيام بأي مسعى . غير ان التقارير اليومية من الكولونيل رئيس لجنة المراقبة المشتركة الاردنية

الاسرائيلية كانت تدل على ان الوضع يزداد سوءا ، مما حملني على ان اكرر المحاولة .

اخبرت وزارة الخارجية الاسرائيلية باني انوي القيام بزيارة جبل سكوبس ، فقيل لي أن علي ان اخبرهم بموعد الزيارة قبل بضعة ايام ، ليتمكنوا من اعطائي حارس شرف يرافقني في زيارتي . فضحكت لهـذا الاقتراح وقمت في اليوم التالي بزيارة الجبل . فاستقبلني رئيس البوليس بأدب وطاف بي في ارجاء المكان . وقبل ان اغادره قلت له انني سأزوره في اليوم التالـي ، لكن من الطريق الاخرى لجهة العرب . وكان ذلك ضروريا لارى المنطقة المتنازع عليها .

وفي صباح اليوم التالـي ذهبت الى القرية العربية العيسوية سالكـا الطريق نفسه التي كان قد سلكها من قبلي الدكتور اوروتيا . وحين وصلت القرية تكلمت مع المختار الذي قدم لي احتجاجا قويا على اعمال السلب التي يرتكبها الاسرائيليون ضد الاهالـي . تركت سيارتي وذهبت مشيا علـى الاقـدام ، وانا ما زلت اسلك الطريق التي سلكها الدكتور اوروتيا والتي تؤدي الى الاسلاك الشائكة المحيطة بالمنطقة اليهودية. ووراء هذه الاسلاك، لاحظت حركة شديد ، فتابعت سيري ، واذا بي اري فرقـة مـن البوليس الاسرائيلي تسد المر في وجهي ، مع العلم بان اتفاقية الهدنة تعطيني سلطة الاشراف على هذه المنطقة . ولما كان البوليس على استعـداد لاستعمـال القوة ، فقد اخذت جهازا لاسلكيا كنت احمله واخبرت مقري الرئيسي بمـا حصل لي ، ثم عدت من حيث اتيت .

كان من الواضح لي ان الاهانة التي لحقت بالدكتور اوروتيا من قبلي ، قد لحقت بي هذه المرة . وكنت متأكدا ان الاسرائيليـين الحقـوا هـذه الاهانة بالامم المتحدة مرتين عمدا امام اعين السكان العرب كي يقللوا من قيمة المنظمة الدولية . وعندما قدمت احتجاجا رسميا الى وزيـرة الخارجية غولدا ماير على هذا الحادث ، قالت : « نحن اليهود لا نحب ان نجبر على القيام باي عمل » .

وهكذا تركت امر التحقيق في اعمال النهب التي كان يتعرض لها العرب الى الكولونيل فلنت وفرق المراقبة التي كانت تعمل معه . كان الكولونيـل فلنت جنديا ممتازا جرح مرة من قبل ، في تلك المنطقة ، عندما داس على لغم. وقد اكدت تحقيقات فلنت ان الدوريات الاسرائيلية تقوم فعلا بتلك الاعمال المشينة . وقال فلنت ايضا انه اذا لم تتخذ اجراءات سريعة للحـد مـن اعمـال العصابات التي كانت تقوم بها الدوريات الاسرائيلية ، فان القتـال سينشب عما قرب . وكانت لدي جميع الدلائل التي تجعلني اصدق فلنت .

وفي الثالث والعشرين من ايار تردى الوضع بشكل لم يعد يحتمل ، فوجدت انه من واجبي مرة أخرى ان احاول القيام بمسعى . فزرت وزيرة الخارجية غولدا ماير وقلت لها اذا لم تكف الدوريات العسكرية الاسرائيلية عن اعمالها فسيبدأ القتال قبل ان يمر الاسبوع . غير ان السيدة غولدا ماير، وهي « الصريحة » ، والمصممة على ان لا « يجبرها » احد على اي عمل ، فقد نفت قيام ازمة واعتبرتها كأنها غير موجودة .

وبعد ثلاثة ايام انهمر الرصاص على دورية اسرائيلية في منطقة جنائن سليمـــان ، فقتل اثنان من الدورية فورا ورمى الاخــرون بانفسهم على الارض . واستمر الرصاص ينهمر بغزارة ولمدة طويلة من الجانبين . وفي هذا الوقت ، هرع الكولونيل فلنت ليتدخل في انقاذ الباقين . وفي غمــرة الرصاص المنهمر من الجانبين ، اختلط الامر ، فقتل جنديان اسرائيليــان آخران ، كما قتل الكولونيل فلنت . وكان هذا الحادث ، والاسباب التي ادت اليه ، امرا لا معنى ولا ضرورة له ، وكان بالامكـــان تفاديه بسهولة كبيــرة .

كانت التحقيقات التي تلت ذلك الحادث اكثر من مهزلة . فقد اكتشف مراقبونا انهم كلمـــا وجهوا سؤالا محرجا الى رئيس « البوليس » المسؤول عن تلك الدوريات انسحب الى غرفة اخرى وطلب ارشادات رؤسائه على الراديو . وقد هاج الشعب الاسرائيلي لخسارة اربعة جنود . ووضعــت اسرائيل ، كما توقعنا ، اللوم على الامم المتحدة وصورتنا بأبشع الصور . وقد نسي الاسرائيليون ، في ذلك ، كل تحذيراتنا ، وكل مجهوداتنا واتهمونا بتسبيب الحادث وكم ذهلنا جميعا لمقدرتهم على اختراع الاكاذيب وتشويه الصورة الحقيقية . فقد قام قسم الدعاية والانباء ، بالاشتراك مع الصحافة الاسرائيلية باجمعها ، باختراع القصص والاكاذيب حول الحادث واستعملوا كل وسائل الدعاية لزرع الاكاذيب في اذهــان الشعب الاسرائيلي وفي اذهان مؤيديهم في اميركا وفي العالم . وفي حياتي كلها لــم اكــن اعتقد انه يوجد انسان على وجه الارض كالانسان الاسرائيلي ، يستطيع ان يحــور الحقيقة بهذا الشكل ، وبتلك الخبرة ، ويجعلها تخدم مصالحه .

اما الكولونيل فلنت المسكين ، فقد وضعناه في مقبرة في مصر . وكنا نود ان نضعه في قبر في فلسطين ، الارض التي ضحى بنفسه من اجلها ، عالمين انه كان يحب ذلك . لكننا لم نتمكن من تنفيذ هذه الرغبة ، لان جميـع مقابــر الكومنولث هناك كانت مغلقة رسميــا .

# الفصل الثامن

بعد بضع اسابيع من ازمة سكوبس خرجت صباح يوم جميل اتنزه بالجنينة المحيطة بالبناء . فلفت نظري بعض الاوراق العالقة بين الازهار ، فانحنيت لالتقاطها . ولشد ما كانت دهشتي عندما وجدت ان تلك الاوراق لم تكون سوى نسخ من برقيات رمزية كنا قد ارسلناها الى نيويورك .

وضعت البرقيات في جيبي وصعدت الى غرفة الرموز فوجدتها مقفلة . وشعرت اني عثرت بالصدفة على حل لمسألة طالما ازعجتني وسببت لي القلق ، وهي انه في المدة الاخيرة كانت الصحف الاسرائيلية تنشر كل اسرارنا التي لم يكن احد يعلم بها سواي وسوى اثنين من مساعدي اللذين اثق بهما ثقة عمياء .

وفي صباح اليوم التالي طفت في المقر الرئيسي وحققت مع الموظفين ، فتأكدت ان غرفة الرموز تبقى مقفلة طيلة الوقت . عندئذ اعتقدت ان تلك البرقيات قد خرجت على التأكيد من احد المكاتب التي تبقى ابوابها مفتوحة ونوافذها مشرعة بسبب الحر . وعرفت ايضا ان كل برقية رمزية تطبع على خمس نسخ وتوضع في مكان غير امين ، وان ورق الكربون المستعمل لا يحرق ، وان ضرب البرقية على الآلة الكاتبة كان يقوم به أي ضاربة يصادف وجودها مجيء البرقية .

عندئذ جمعت مساعدي الرئيسيين واخبرتهم بما حصل ، فوافقني الجميع على ان هناك اخبارا تتسرب الى اسرائيل ، وانه يجب ان نجابه هذه المسألة بحزم . وقد علمتني تلك الحادثة ان افهم حرص « الثعلب » فيجيه على حفظ الكثير من التقارير السرية في امكنة خاصة . وللحال اتخذت بعض الاجراءات التي تضمن لنا حفظ الملفات السرية وتمنع تسربها ، ومنها تعيين اشخاص يتناوبون على حراسة غرفة الرموز مدة اربع وعشرين ساعة .

لم يكن لدي فكرة عن مدى تغلغل الاستخبارات الاسرائيلية في قيادتي . ولكني لم اكن اشك في مدى فعالية تلك الاستخبارات لان موظفيها كانوا يتمتعون بخبرة طويلة اكتسبوها في بلدان عديدة . والمعروف عن رؤساء

الاستخبارات الاسرائيلية هم بولنديون لا يتورعون عن اي شيء في سبيل ما يريدون الحصول عليه .

وقد دلت تحقيقاتنا على ان تسرب الاخبار كان يأتي من موظف يعمل في مكتب تسجيل المخابرات والمعامـلات ولكنه لم يكن لدينا اي دليل حسي ضده . ان عمل التجسس المضاد هو عمل بشع . لكن كان لا بد لنا من القيام بـه ، فبدأنا بمراقبة ذلك الموظف وبالتحري عن حياته . فوجدنا انه مـن النوع الذي يقع عرضة للترهيب او الترغيب . لذلك طلبنا نقله . وما هي الا مدة وجيزة حتى جاء الامر من نيويورك بنقله من القدس . لكنه مـا ان وصل الى « قصر الزجاج » في نيويورك حتى نال ترقية .

وفي حزيران ١٩٥٨ ، حدثت ازمة في لبنان منعتنا من الاستمرار في تحقيقاتنا عن قضية تسرب اخبارنا الـى اسرائيل .

وسبب هذه الازمة هو ان الرئيس شمعون ، المعروف بميوله للغرب ، كان يلاقي معارضة عنيفة وقوية من السكان المسلمين القاطنين في بيروت وفي الجنوب وفي الشمال الغربي من لبنان . ويقدر عدد سكان لبنان بمليون نسمة ونصف المليون ، منقسمين بالتساوي بين مسيحيين ومسلمين . وكان الرئيس شمعون منذ مدة يقاوم بعناد فكرة توزيع المراكز الحكـومية بعدل بـين الطوائف . اما خارج لبنان ، فكانت سوريا قد اتحدت مع مصر في اوائـل تلك السنة واصبح البلدان يؤلفان الجمهورية العربية المتحـدة . وكانت القاهرة آنذاك تحاول ان تقضي على النفوذ الاميركي الذي كان له شأنه مع شمعون ، فاعتقد لبنان ان القاهرة تحاول ان تحرض السكان المسلمين على الثورة . وفي ايار وحزيران من تلك السنة حصلت اصطدامات تحمـل في طياتها دلائل اندلاع حرب اهلية . وكانت التقارير تقول ان المسلمين كانوا يتلقون مساعدات عبر الحدود السورية ، بشكل اسلحة وعمـلاء وذهب ، مما حمل الرئيس شمعون على اللجوء الى الامم المتحدة . فقدم شكوى يتهم فيها الجمهورية العربية المتحدة بالتدخل في شؤون لبنان الداخلية . وجوابـا على تلك الشكوى ، وافق مجلس الامن الدولي على ارسال فريق مـن المراقبين ، مهمتهم مراقبة الحدود للتأكد مما اذا كان هناك بالفعل تسلل رجال واسلحـة عبر الحدود السورية اللبنانية . كذلك اعطى مجلس الامـن المراقبين صلاحية الوساطة واقامة الصلح . وهكذا كان على الامم المتحدة ان تخلق فريقا اخـر من المراقبين بين ليلة وضحاها . والى ان تتمكـن الامم المتحدة من ايجاد المراقبين ، طلب مني همرشولد في برقية وصلتني في العاشر من حزيران ان ارسل ستة مراقبين عبر الحدود اللبنانية للالتحاق ببعثـة الامم المتحدة الجديدة التي بدات تتكون في بيـروت .

كانت معرفتنا بالوضع السائد في لبنان سطحية جدا ، الا اننا كنا نعلم

ان معظم الحدود كانت في ايدي « المعارضة » . وفي مدى ساعتين اخترت ستة مراقبين من الفرق العاملة في غزة والقدس والشام وارسلتهم فورا الى لبنان ، فعبروا الحدود اللبنانية السورية ، الساعة الثالثة بعد الظهر ، اي قبل الموعد الذي حدده لنا همرشولد بثلاث ساعات .

وفي الايام القليلة التالية ، قضيت وقتي متنقلا بين بيروت والقدس . وكانت تلك اول مرة اشهد فيها تاليف فريق دولي . وكنت اعلم انه لا يوجد في نيويورك فريق عسكري تنحصر مهمته في التخطيط ، كما كنت اعلم انه ليس للامم المتحدة جيش يمكنها ان تستعين بأخذ المراقبين منه . وبالاضافة الى هذا ، كنت اعلم ان الامم المتحدة لا تملك مخازن تموين لاستعمالها في اوقات الطوارىء . وجدت ان العمل دون تصميم او تخطيط شيء مزعج جدا . فالتصميم المركزي عصب الجيوش العصرية ، ولا يمكن لها ان تحيا بدونه .

على كل حال ، كبرت بعثة المراقبين الدوليين في لبنان بسرعة مذهلة . ففي مدى شهر أصبح عدد المراقبين فيها مئتي مراقب وكان في نية همرشولد ان يزيد هذا العدد الى ستماية مراقب في شهر تشرين الثاني ، وان يكون بين هؤلاء فريق من الطيارين لا يقل عن تسعين مراقبا .

وكانت مهمة المراقبين تنحصر في الاشراف على الحدود اللبنانية السورية بواسطة محطات مراقبة ، مع العلم انهم امنوا المراقبة فيما بعد بطائرات الهليكوبتر . وكانت التعليمات التي صدرت اليهم تقضي بعدم الانحياز لاية جهة ، خصوصا وان الخلاف بين الفريقين كان محصورا في قضايا دستورية داخلية . وقد رأى المراقبون في طريقهم الى الحدود بعض دلائل القتال ، كما اكتشفوا ان هناك تعاونا بين العصابات المسلحة ، المسلمة منها والمسيحية ، وان قوى الامن الحكومية كانت متحفظة جدا في فتح النار على الثوار المسلمين ، لسبب وجيه جدا وهو ان ذلك قد يؤدي الى دخول هذه القوات طرفا في النزاع .

ولم يجد المراقبين اية صعوبة بالتجول في الاراضي التي كانت تسيطر عليها الحكومة . اما تجولهم في المناطق التي كان « الثوار » يسيطرون عليها فكانت امرا آخر على شيء من الخطورة . ولعل التجربة التي مر بها « موللرزوارد » ، وهو احد ضباطي الستة ، مثال على ما اقول . كان « موللر زوارد » سويديا ، خدم الامم المتحدة في كوريا وفي كشمير . وفي صباح احد الايام وجد نفسه فجأة وجها لوجه امام اكثر من اثني عشر رجلا من الثوار مدججين باسلحتهم الكاملة . وبالرغم من ان تلك الحادثة قد حصلت في احد الجبال اللبنانية ، الا ان موللرزوارد لم يكن يحمل سلاحا قط . وترجل الكولونيل من سيارة الجيب ونظر الى احدهم وسأله عما اذا كان هو قائد الجماعة ، فصوب هذا بندقيته اليه واجاب بالايجاب . وعندما

سأله موللرزوارد بلغة فرنسية عما اذا كان هو من المعارضة ، اجابه بلغة فرنسية اكثر صفاء : « نعم يا صاحب السعادة ، انا ثائر قليلا » . وبعد مضي وقت قصير ، فتح الثوار الطريق امام الكولونيل ورافقوه الى قائدهم . وقد أسس موللرزوارد علاقة طيبة مع ذلك الزعيم لدرجة ان اسمه اصبح كلمة المرور في تلك المنطقة من لبنان .

وبالرغم من كل هذا ، فقد بقي الوضع متوترا واستمر المراقبون يقومون بمهمتهم . فكانوا يرسلون تقاريرهم الى البعثة في بيروت . وكانت البعثة قد كبرت بشكل سريع ، بحيث انها شغلت اوتيل ريفيرا بكامله .

وقد سنحت لي فرصة مراقبة اعمال تلك البعثة الجديدة عن كثب . وكان اعضاؤها الثلاثة الكبار يقومون بعمل فعال ، فاقتسموا مهام البعثة فيما بينهم على الشكل التالي : كانت مهمة غالو بلازا ، رئيس جمهورية الاكوادور سابقا ، تأمين الاتصال بالحكومة اللبنانية . ومهمة رجشوار دايال من الهند ، تأمين الاتصال بالمعارضة . اما مهمة الجنرال اود بول النروجي فكانت تأمين سير البعثة الاداري .

وكان قد التحق بالبعثة عدد من ضباط اميركا اللاتينية ، فوجدوا انفسهم غرباء في ذلك المحيط ، لعدم معرفتهم غير لغتهم الاسبانية او البرتغالية . غير انهم تمكنوا فيما بعد من ان يقيموا اتصالات طيبة مع بعض اللبنانيين العائدين مؤخرا من مهاجرهم في اميركا اللاتينية .

وكانت هناك مناطق إسلامية احاطت نفسها بالاسلاك الشائكة وبقيت في صف المعارضة . وكانت القوات الحكومية برئاسة الجنرال شهاب تقف امامها وتمتنع عن ضربها . وكان الجنرال شهاب محقا في ذلك . وهكذا بقي الجانبان ، المعارض والحكومي ، في وضع المجابهة ، فيما كانت الكهرباء والغاز والتلفون والبريد تعمل كالعادة ، باتفاق الطرفين وتعاونهما .

وقد حملت الازمة اللبنانية ، ولنسمها ازمة ، شخصيات عديدة من نيويورك على زيارة المنطقة . وكنت سعيدا بالترحيب باندرو كورديه ، حين جاء الى القدس ، خصوصا وان حادثة جبل سكوبس قد زادت من عمليات السلب التي كانت تقوم بها اسرائيل . وكنت احاول ، اسبوعا بعد اسبوع ، ان اقنع السيدة غولدا ماير ، وزيرة الخارجية الاسرائيلية ، بخطورة تلك الاعمال . غير ان جميع محاولاتي ذهبت سدى ، اذ انها كانت ترفض رفضا باتا ان تتعاون معنا في هذا الموضوع . ولما كانت سلطتي كممثل للامم المتحدة موضع ازدراء من الاسرائيليين ، ولما كانت اعمال لجنة المراقبة المشتركة على الحدود الاردنية غير قادرة على القيام بواجباتها بسبب حاجة اسرائيل الى « التنفس » (كنت في احاديثي الخاصة اطلق عليها اسم « نظرية » لا سكوف

التنفسية » ) ، فقد كان مجيء « العم اندي » ، اي اندرو كورديه ، بمثابة نجدة لي تساعدني على التغلب على الوضع المؤلم .

وجاء كورديه ، كما جاء بنش قبله ، ليفاوض الاسرائيليين مباشرة . لكن ، بالرغم من مقدرته في فن المفاوضة ، لم يتوصل الى نتيجة . وكان سبب هذا الفشل موقف السيدة غولدا ماير التي اختبأت وراء « العسكريين » وجعلتهم مصدر الحق والباطل .

كان كل ما تمكن كورديه ان يحصل عليه ، هو السماح له بزيارة جنائن سليمان ، حيث قتل الكولونيل فلنت . وقد حصل على ذلك ، بعد جلسة مفاوضات مع السيدة غولدا ماير استعمل فيها جميع وسائله في فن المفاوضة . وقد قال كورديه لغولدا ماير في خلال تلك المفاوضات ان لا خوف على سلامته اذا ذهب معي الى منطقة انا المسؤول عنها ويمنعني الاسرائيليون من ممارسة سلطتي عليها . وقال لها ايضا انه متأكد من ان الاردنيين لن يفتحوا النار عليه شرط ان لا يخترق البوليس الاسرائيلي ، الذي كان بصحبتنا ، الاسلاك الشائكة ويعبر الى الاراضي الاردنية . وعندما وصلنا هناك ، وجدت علم الهدنة الابيض الذي كان يحمله فلنت في الموقع الذي سقط فيه مضرجا بدمائه . فحملت العلم وارسلته ، بعد عودتي الى مقر البعثة ، الى فرقته في كندا .

لئن كان استقبال الاسرائيليين لكورديه باردا ، فان استقبالهم للامين العام همرشولد قد أثار الدهشة . كنت قد استقليت الطائرة مع همرشولد من مطار بيروت الى القدس لاجراء محادثات مع الملك حسين . فاعترضت طائرتنا عمدا ، نفاثتان مقاتلتان اسرائيليتان فوق الشاطيء الاسرائيلي . ولم ينتبه همرشولد لذلك ، لانه كان منهمكا بقراءة بعض الاوراق . لكن عندما اخبرناه بها ، فيما بعد ، علق عليها بكلمات لا يسر رئيس الوزراء الاسرائيلي سماعها .

وفي اوائل شهر تموز صدف وقوع ثورة دموية في العراق ، ترك اثره في لبنان ، اذ حصل تدخل اميركي بطلب من حكومة الرئيس شمعون ، بعد ان رفض الجنرال شهاب ( الذي خلف شمعون ) ، فيما بعد ، ان يأمر جيشه بالقضاء على « الثوار » .

وفي الخامس عشر من تموز ، نزلت قوات البحرية الاميركية على الشواطيء في جنوبي بيروت . وكان الاميركيون يتوقعون معارضة قوية . لكنهم دهشوا للاستقبال الذي لقوه عند نزولهم . اذ كان في استقبالهم على شاطيء البحر موظفو السفارة الاميركية ، يرافقهم بعض اركان الحكومة ورجال قوى الامن . وقد شق البحارة الاميركيون طريقهم الى الداخل ،

بين الحسان ، وقد ارتدين لباس البحر البيكيني ، وبين عربات البوظة والكوكاكولا . وفي اليوم التالي سمعنا بنزول فرقة مظلات بريطانية في عمان ، تبعتها فرقة اخرى من المشاة .

ومن الشائعات التي رافقت وجود البحارة الاميركيين في بيروت ، شائعة عن هدنة عقدت خارج الامم المتحدة . ومفاد هذه الشائعة ان اعمال الشغب وقعت ذات يوم في حي الموسسات في بيروت احتجاجا على منع « منقذي » المدينة ، اي البحارة الاميركيين ، من الذهاب الى ذلك الحي . ويظهر ان مطالب الموسسات وصلت الى الطرفين المتنازعين ، فعطفا عليها وعقدا هدنة بينهما امتنعا خلالها عن اطلاق النار تيسيرا لذهاب البحارة الاميركيين الى منطقة الاضواء الحمراء . وقد دامت تلك الهدنة ثلاثة ايام ، عاد بعدها البحارة الى اماكنهم ، واستانف الجانبان القتال من جديد . وبقيت مصارف بيروت فاتحة ابوابها حتى ساعة متاخرة من بعد ظهر اليوم التالي .

قبل ان تصل فرقة المظلات البريطانية الى عمان ، طلب مني همرشولد ان ازيد من عدد المراقبين على الحدود الاردنية ، لانه اذا وقع انقلاب ناصري في الاردن ضد الملك حسين فقد تجد اسرائيل الفرصة ملائمة للاستيلاء على الضفة الغربية كلها . ووافقت الحكومة الاردنية ، فورا ، على طلبي زيادة عدد محطات المراقبة على الحدود .

وما ان اقمنا محطات المراقبة الجديدة حتى اعترض الاسرائيليون عليها بحجة اننا اقمناها دون استشارتهم . غير ان الاسرائيليين لم يحولوا تلك المسالة الى ازمة ، لمعرفتهم بالسبب الذي من اجله اقمنا محطات مراقبة جديدة على الحدود الاردنية . واقترحت على الاسرائيليين ان نضع محطات مراقبة جديدة ضمن حدودهم ، اسوة بما فعلنا في الاردن ، على اعتبار ان ذلك يمنع التسلل من الاراضي الاردنية ، وهو ما كان الاسرائيليون يتذمرون منه دائما . لكن الاسرائيليين رفضوا ، لان سياستهم تقوم على استبقاء جو التهديدات المحيط بهم لسببين : اولا ، لان تهديد العرب بالهجوم عليهم يضع الجيش الاسرائيلي والشعب الاسرائيلي في حالة تأهب دائمة . ثانيا ، لان تهديد العرب بالهجوم عليهم يعطيهم فرصة لاستدرار عطف العالم الخارجي ، خصوصا الصحافة الاميركية ، فيدر عليهم العطف والمال .

واستدعت اقامة محطات مراقبة جديدة واتساع نطاق عملنا زيادة عدد المراقبين . وكنت امني النفس بهذه الزيادة حالما تنحل بعثة الامم المتحدة في لبنان . فلا بد ان يكون هناك بعض المراقبين الدوليين الذين يودون العمل في بعثة الامم المتحدة لمراقبة الهدنة . وطلبت من همرشولد ان يساعدني على ذلك ، فوافق فورا . غير ان قسم الادارة في الامم المتحدة ، الذي انيط به

الاشراف على حل بعثة المراقبين الدوليين في لبنان ، اخذ يماطل في استجابة طلبي ، الى ان غادر جميع المراقبين لبنان وعادوا الى بلدانهم . فحرمت من الاستعانة بهم لتقوية جهاز بعثتنا في القدس .

# الفصل التاسع

بعد ان هدأت الحالة في الشرق الاوسط ، رايت من واجبي ان احول جهدي الى القيادة التي كنت ارئسها ، فأطهرها من عناصر الفساد التي تغلغلت فيها . فلو كنت اعمل بجيش نظامي ، لكانت الاجراءات المطلوبة سهلة جدا .

اذ انني كنت أحلت مهمة التحقيق الى فرع الاستخبارات الخاص ،وبت انتظر تقريره . غير ان طبيعة عملنا في القدس فرضت علي ان اقوم بهذا العمل بنفسي . هذا لا يعني انه لم يكن للهيئة ضابط امن . كل ما هنالك هو ان ضابط الامن الملتحق بالبعثة كان شديد الولاء لقسم الادارة في الامم المتحدة في نيويورك . وقد جعله ذلك غير مؤهل للقيام بهذه المهمة . ولم يكن بمقدوري انشاء جهاز استخبارات خاص ، لان الجانبين الموقعين على اتفاقية الهدنة لم يعطيا كبير المراقبين هذا الحق ، مع العلم بان همرشولد نفسه كان يحبذ قيام مثل هذا الجهاز . وقد عبر عن اسفه اكثر من مرة لعدم وجود مثل هذا الجهاز في البعثة الدولية في الكونغو . اضف الى ذلك ، ان الدول التي ينتمي اليها موظفو الامم المتحدة من مدنيين وعسكريين لا تقبل بانشاء جهاز استخبارات يجمع معلومات عن شؤونها العسكرية والسياسية .

كانت حاجتنا ، اذن ، الى جهاز للاستخبارات المضادة ماسة جدا . فقد كان الفساد يتغلغل في هيئة الرقابة الدولية تغلغلا مريعا . واند صممت على ان اضع حدا لهذا . ولم يكن ذلك بالامر السهل ، خصوصا في بلد كان التجسس فيه مهنة ، وكانت قدرته عجيبة على الافساد والترهيب .

وقلت ان عمل الاستخبارات المضادة عمل بشع ، خصوصا في هيئة دولية من المفروض ان يكون موظفوها على مستوى عال من التمسك بالمثل العليا . اضف الى ذلك ، ان هيئة الرقابة كانت تضم اربعماية واثنين وتسعين موظفا من اربعة وعشرين بلدا ، منها الصين ، واليونان ، وهوندوراس ، والهند ، وايرلندة ، وايطاليا ، واليابان ، والمكسيك ، والفيليبين ، واسبانيا ، وفياتنام .

من الاسباب الرئيسية التي ادت الى هذا التدهور الخلقي في الهيئة

هو مدينة القدس نفسها التي كانت مقسومة الى قسمين متعاديين تفصلهما منطقة حيادية واحدة هي منطقة بناء هيئة الرقابة . فقد كان موظفو الهيئة يأتون كل صباح الى مقر عملهم ويغادرونه كل مساء الى بيوتهم في القطاع العربي او في القطاع الاسرائيلي . وكان سكان كل قطاع من القطاعين يتوددون اليهم عند دخولهم بيوتهم وخروجهم منها . وكان هؤلاء ، من عرب ويهود ، يعرفون الكثير عن كل موظف خصوصا ما يتعلق بحياته الخاصة .

كان هذا التودد سائدا في كل مدينة بين دمشق وتل ابيب . وكان ما يحدث في القدس مثلا على ذلك . كان الجاسوس يستهل حديثه مع موظف الامم المتحدة بلطف زائد ، فيتكلم عن المأساة التي جرت ، وعن انقسام القدس الى قسمين شطر عائلته . ثم يتوسل الجاسوس الى الموظف أن ينقل له رسالة او ورقة او حتى كلمة شفاوية الى اقربائه في الجانب الاخر ، عبر الاسلاك الشائكة .

وقد كان لهذا التكتيك الاثر الفعال في نفوس الموظفين الجدد ، لانسانيته . وكان اكثر الموظفين الذين طلب منهم القيام بهذه المهمة موظفين مدنيين لم يتعودوا العمل في اجواء مشحونة بالغموض .

وهكذا يبدأ الموظف ينقل رسالة شفوية ، سرعان ما تصبح رسالة خطية ، ثم رسالة خطية تصحبها رزمة من شفرات الحلاقة ، ثم الواح الشوكولاة ، ثم السجاير . واذ ذاك يجد الموظف الدولي ان مهمته اصبحت مهمة حاجب بدأ ينقل رسالة خطية واصبح بعدها ينقل الافلام والراديوات وآلات التسجيل والذهب والماس والمورفين وما الى ذلك .

وعندما يصل الموظف الى هذا الطور ، يوضع اسمه على قائمة الذين يعطى لهم مرتبا شهريا . وبهذا يمهد طريق ايصاله الى طور اخير ، هو طلب المعلومات منه ، اما بزيادة « مرتبه الشهري » باية عملة يريدها وبأي مصرف يريده في العالم ، او بالترهيب والتخويف .

كان الكثيرون من اولئك الموظفين ، والحق يقال ، يخافون من بيع معلومات تخص الامم المتحدة . فكانوا يكتفون بالمتاجرة بالبضائع . ومع هذا ، فقد تحول وجودهم في البعثة الى مغامرة . اما اولئك الموظفون الذين بلغوا طور بيع المعلومات فقد اصبحوا يشكلون خطرا اكيدا على سلامة الهيئة وامنها . وكثيرا ما كان الجواسيس يقدمون مرتبا شهريا لموظف دون ان يقوم هذا الموظف بأي عمل بالمقابل . لكن ما ان يعلق بالشبكة حتى يعطى مهمة القيام بـ « اعمال خاصة » . ولم اسلم ، انا شخصيا ، من محاولات الاسرائيليين ايقاعي في شبكتهم . ففي صباح احد الايام طلب مقابلتي احد الموظفين وقال لي ان إسرائيليا عرض عليه مرتبا شهريا في اية عملة يريدها ،

لقاء اجابته على اسئلة تتناول عاداتي الشخصية والخاصة . وكم شكرت الله على انه احتفظ بالاستمارة التي تحتوي الاسئـلة ، فأعطاني اياها . وعندما قراتها وجدت ان مجرد وجود زوجتي بعيدة عني في السويد ، قد فتح إمام الاسرائيليين ثغرة للدخول منها وطرح شباكهم حولي . كانوا يريدون ان يعرفوا اتفه شأن من شؤون حياتي الخاصة .

هذا الجانب من الاسئلة الموجودة في الاستمارة اضحكني . اما الجانب الاخر من الاسئلة ، فكان يتعلق باستعدادي لاعطائهم نسخة من كل برقية رمزية تجري بين الامين العام داغ همرشولد وبيني ، لقاء مرتب شهري ضخم . واذا كان هذا يدل على شيء ، فانه يدل على انني كنت على حق عندما استغنيت عن موظف قسم التسجيل من قبل ، لانهم فقدوا فيه مصدرهم الاوحد للحصول على هذه البرقيات .

احتفظت باستمارة الاسئلة وطلبت من الموظف ان يرفض المرتب المعروض عليه ، لانه يشكل خطرا كبيرا على حياته . وكنت متأكدا ان الاسرائيليين سيعودون الى الاتصال به مرة اخرى لذلك قلت له انه اذا حصل شيء من هذا القبيل فاني اريد منه ان يتصل بي فورا . فوعدني انه سيفعل . وعندما اتصل به الاسرائيليون مرة اخرى ، لم يف بوعده ، بل انضم الى قائمة الموظفين الذين كانوا يتقاضون مرتبا شهريا منهم .

ويظهر ان زيارته لي من قبل اثارت شكوك الاسرائيليين فاعتبروه خطرا على امنهم . اذ انهم ، بعد ذلك بقليل ، نصبوا له كمينا وقبضوا عليه ، وهو يقوم بعملية تهريب . ففصل من عمله ، وهكذا تخلص الاسرائيليون منه.

كانت هناك صعوبة تعترض عملي ، وهي عدم اعطائي صلاحية صرف الموظفين المدنيين . اذ كانت صلاحيتي هذه تنحصر بصرف المراقبين . وكان قسم الإدارة في نيويورك ، سيعترض ولا شك ، على طلبي صرف اي موظف مدني تثبت عليه التهمة ، كما انه سيعتبر عملي هذا تدخلا في شؤونه . وكان من المضحك ان أرى نفسي ملزما بفتح معركة مع الذين كان من المفروض علي ان اتكل عليهم في القضاء على الفساد المتغلغل في الهيئة .

ولما كنت اقوم بهذا العمل بناء على تعليمات من همرشولد . فقد رايت من المهم جدا أن اضع مذكرة مفصلة فيها من الاثباتات والادلة الراهنة القوية عن الفساد المتغلغل في الهيئة ما يعطي همرشولد القوة الكافية للتغلب على قسم الادارة عنده . وقد شعرت أن المعلومات الاولية التي كانت في حوزتي ، آنذاك ، تكفي لوضع مثل هذه المذكرة .

لم اتردد لحظة ، على كل حال ، في الاستمرار بتلك التحقيقات . فعينت محققا خاصا يضع لي تقريرا عن الوضع . وقد وقع اختياري على الميجر

هانسن ، احد الضباط القلائل جدا الذين تمكنت من الحصول عليهم من هيئة الرقابة السابقة في لبنان . ولم اندم على اختياري هذا ، ابدا ، لان الميجر هانسن السويدي الاصل ، وكان ذكيـــا ، ومخلصا ، وقـــادرا على العمل المتواصل . وهكذا استطاع أن يفضح ، في مدة قصيرة جدا ، عمليات مذهلة من التجسس وتسرب الاخبار . وقد اتضح لي منها انه كان هناك موظفون يتجسسون ويبيعون الاخبار ، وموظفون آخرون يسيئون استعمال الامتيازات المعطاة لهم . وقد حاول الجانبان العربي والاسرائيلـــي ، الحصول على معلومات من موظفي الامم المتحدة وافسادهم . غير ان الوسائـــل التي استعملها العرب كانت بدائية اذا ما قيست بالوسائل التي استعملهـــا الاسرائيليون . اذ كانت وسائلهم تضاهي اعرق ما عرفته الدول الغربية في هذا المجال .

ومن هذه التحقيقات التي قام بها هانسن ، اتضح ايضا ان التجسس وبيع المعلومات والفساد لم يصب قلب هيئة المراقبة الدولية . فكان ، اذن ، باستطاعتي ان اضع حدا لذلك ، شرط اعطائي الصلاحيات الكاملة لاتخاذ اجراءات جذرية بحق الموظفين الفاسدين ، واتخاذ احتياطات أمن مركزة .

لم يكن جهاز الاستخبارات الاسرائيلي يعترف بوجود اي عائق في وجهه ، اذ كان يزيلها دون رادع . كما انه لم يعترف بوجود سلطة اعلى من سلطته . وكان يتمتع بثقة جميع المواطنين الاسرائيليين على السواء ، بدءا برئيس الوزراء بن غوريون الى اصغر مواطن ، فضلا عن انه كان متغلغلا في أجهزة استخبارات الدول الاخرى المهمة في العالم تغلغلا يعود بفوائد جمة على الاستخبارات الاسرائيلية .

لكن كانت هناك، ولا تزال ، نقطة ضعف في الاستخبارات الاسرائيلية، استفدنا منها في ١٩٥٨ ، اكثر مما كنا نتوقع . فما من بلد في العالم كاسرائيل يدل مظهره على الوحدة ، بينما هو في الواقع مشحون بالنزاعات والخلافات والخصومات . وكانت هذه كلها تتحكم في كل وزارة وفي كل قسم فيها . وهي صفة ، على ما يبدو ، تلازم الشخصية اليهودية ، لذلك وجدت انه لا يمكن للسلطات الاسرائيلية المختصة ان تستخلص من المعلومات التي كان يجمعها لها جهاز استخباراتها نتيجة واحدة يتفق الجميع على تقييمها بموضوعية .

لكن هذا الضعف لم يكن عزاء لنا ، لاننا كنا نعلم ان الاسرائيليين نجحوا نجاحا باهرا في اغراء عدد من اعضاء هيئتنا في القدس ، ومن اعضاء جميع لجان المراقبة المشتركة ، لخدمة جهاز استخباراتهم . وقد بدأنا نفهم لماذا كان العرب يعتبرون بعض موظفينا ، من مدنيين وعسكريين ، اشخاصا غير مرغوب فيهم . اذ كشفت تحقيقات هانسن عن أن اولئك الموظفـــين

كانوا يقدمون « خدماتهم » لاسرائيل ، وان التجسس والفساد قد استشريا في جهازنا منذ مدة طويلة . وبدا لي ان هيئة الامم المتحدة نفسها كانت مسؤولة الى حد كبير ، عن هذا الوضع ، وما ذلك الا لانها لم تعر هذه الناحية اية اهمية . ومما كشفته تحقيقاتنا ان احد الموظفين المدنيين الكبار في بعثتنا كان يحفظ دفترا ، صغيرا اسود في جيبه يدون فيه المخالفات التي كان يرتكبها الاعضاء الاخرون في البعثة . وعندما نقل هذا الموظف من القدس وعاد الى نيويورك ، استعمل دفتره الاسود للانتقام من جميع الذين كانوا على خلاف معه . اما الذين كانوا على تعاون معه ، فقد بقوا في اماكنهم يقومون بالنشاط ذاته .

ومجمل القول ان عددا كبيرا من موظفي هيئة الرقابة الدولية قد انحدر الى مستوى مريع ، وان معظم هؤلاء ما زال يعمل في الامم المتحدة ، اما في بعثتنا او في مكان اخر . وكان الاسرائيليون يستعملون جميع الوسائل المغرية ، وبعضها كان واضحا .

ومثلا على ذلك ان موظفا صغيرا في احدى الوزارات في اسرائيل فتح بيته لموظفي الامم المتحدة وراح ينفق عليهم بسخاء لا يتناسب اطلاقا مع مدخوله الشهري . وقد تأكد لنا ان لا مدخول له سوى المرتب الضئيل الذي كان يتقاضاه في نهاية كل شهر . لذلك ، فقد قررنا ان نعزز معلوماتنا عنه وعن النساء الجميلات اللواتي كن يزين بيته ويساعدنه في الترفيه عن الموظفين الدوليين الذين يزورونه . وبقليل من المثابرة في التحقيق ، انكشف لنا ان اولئك النساء الجميلات كن يعملن في الاستخبارات الاسرائيلية ، وان وجودهن في منزل الموظف الصغير كان بناء على أوامر اعطاها لهن جهاز الاستخبارات الاسرائيلي للقيام « بمهام خاصة . » وقد كانت مهامهن ، فعلا ، خاصة ، بحيث اننا اطلقنا عليهن لقب « الفدائيات . » وقد كان لتلك الشبكة فروع في تل ابيب وفي طيريا .

غير ان زلات الالسنة وهمسات الفراش لحساب اسرائيل كانت ثانوية ، اذا ما قيست بالفساد المنظم تنظيما مدهشا . وسرعان ما اصبحنا نعرف اسماء الاشخاص المدونة اسماؤهم على قوائم الدفع الشهرية الاسرائيلية ، كما اصبحنا نعرف مقدار المرتب ومقدار مدخول كل شخص من عمليات التهريب التي كانوا يقومون بها . ولم تكن القدس وحدها مركزا للتهريب والتجسس . فقد كان هناك سوريا ولبنان ايضا . ولا اغالي ان قلت ان كل واحد من هؤلاء الاشخاص قد تمكن من جمع ثروة لا بأس بها .

ولقد اقتنعت ان موظفي الامم المتحدة سيظلون ضعفاء امام هذه الاغراءات لان التوظيف في الامم المتحدة أمر سهل جدا ، في حين ان الاستغناء عن الموظفين غير الصالحين أمر أصعب بكثير . ولكم ازدادت نواقص هذا

الجهاز عندما اصبح التوظيف في الامم المتحدة قائما على اعتبارات جغرافية ، مما اضعف المؤهلات وخفض من المستوى الاخلاقي . فأصبح كل مسؤول في الامم المتحدة يتعرض لاتهامات باطلة ، منها الميل العنصري ، ان هو صرف موظفا او نقله من منصب الى اخر .

لكل شعب في العالم نصيب من عناصر الفساد . الا ان تحقيقاتي في القدس كشفت لي عن أن لبعض الشعوب قابلية الفساد أكثر من غيرها . ولعل ذلك مرده الى الدين والعادات . من ذلك ان الموظفين المنتمين الى ايرلندة الكاثوليكية ودول شمال أوروبا وشمال غربي اوروبا البروتستانتية كانوا ، كما دلت التحقيقات التي أجريتها في البعثة ، اقل قابلية للفساد من الموظفين المنتمين الى بلدان اخرى .

ان المأساة في هذا كله هي ان الامم المتحدة عجزت عن ايجاد موظفين دوليين يؤمنون بالمثل التي كان همرشولد يؤمن بها ، وان فئة منهم كانت ترى في الخدمة في الخارج وسيلة للربح والاثراء غير المشروع . وكم شعرت بان تغيير تلك العقلية كان من الاهمية ، بحيث أصبح لزاما علي أن أتخذ اجراءات جذرية حازمة تكون عبرة لكل من تسول له نفسه القيام بأعمال غير مشروعة . وعلى سبيل المثال لا الحصر أورد بعض الامثلة التي تبين الى أي حد وصل تغلغل الفساد في بعثتنا .

عندما انشئت هيئة مراقبة الهدنة في القدس التحق بها بعض الضباط الاميركيين . وكان لهؤلاء بريد خاص يردهم من جيش الولايات المتحدة الاميركية مباشرة الى القدس . وفي صباح أحد الايام ، جاء الى مقر الهيئة في القدس عدد من الاسرائيليين يطلبون تسليمهم الطرود التي تخصهم والتي وصلت ببريد جيش الولايات المتحدة . وكانت تلك أول مرة أعلم فيها بوجود مثل هذا البريد . وبعد التحقيق الدقيق تبين لنا ان الكثيرين من « الاصدقاء والجيران » كانوا يشترون البضائع الممنوعة ، رأسا من الولايات المتحدة . ومن هناك كانت تلك البضائع تأتي بطرود عليها اسماء الضباط الاميركيين في الهيئة بواسطة بريد جيش الولايات المتحدة . وعند وصول البريد الى القدس كان أصحاب الطرود يعطون علما بوصوله ، فيأتون الى مقر الهيئة ويحملون طرودهم الى بيوتهم ، بعيدا عن أعين سلطات الجمارك . وكان من السهل علي جدا ان اضع حدا لتلك المخالفة ففعلت .

والحادثة التالية وقعت في كانون الثاني ١٩٥٩ . وهي تتلخص في ان احد حراسنا رأى في المساء سيارة جيب بيضاء ( علامة على انها تخص الامم المتحدة ) تأتي من القطاع الاردني بسرعة مذهلة وتمر امام الحراس الاردنيين دون ان ينتبه هؤلاء لها . وبلغت السيارة المنطقة الحيادية التي تحيط ببناء الهيئة وتابعت سيرها ، بأقصى سرعة ، الى القطاع الاسرائيلي . لكن

حراسنا هناك استطاعوا ايقافها بعد تهديدها باطلاق النار . وتبين لنا انه كان في السيارة شخصـــان اسرائيليان يحملان اجهزة دقيقـــة وخرائط عن الاردن .

ومن المؤسف ان ضابط الامن في بعثتنا سلمهما فــورا للسلطـات الاسرائيلية التي لم تسمح لنا برؤيتهما اطلاقا . غير ان السلطات الاسرائيلية اسرعت فأكدت لي ان هذين الشخصين سرقا السيارة وتاها بها ، فدخلا الاراضي الاردنية ، غير عالمين بان في السيـــارة اجهزة دقيقة وخرائط عن الاردن . لكنني لم اقتنع بالرواية الاسرائيلية فقمت بتحقيقـــات شخصية اظهرت لي ان سيارة الجيب البيضاء كانت قد سرقت من كاراج البعثة منذ اكثر من شهر .

وقد اخبرت السلطات الاردنية بتلك الحادثة كما جرت ، خوفا من ان تصبح كل سيارة تخص الامم المتحدة موضع شك عندها . ثم صرفت احد حراسنا ، بعد ان تبين انه كان متواطئا مع ابطال الحادثة . وبعد حين جرى نقل ضابط الامن في بعثتنا الى نيويورك ، حيث استقال من عمله فيما بعد .

كان همرشولد وكوردية يعلمان بالتحقيقات التي كان يقوم بها هانسن، كما كانا على علم بخطورة الاعمال التي كشفنا النقاب عنها . وفي كانون الثاني ١٩٥٩ ، اغتنمت فرصة وجودي في نيويورك فتحدثت معهما بالتفصيل عن تلك الاعمال . وفي نهاية حديثي طلبت مساعدتهما لتعيين هانسن في مركز المسؤول عن امن البعثة ، بعد انتهائه من التحقيقات التي كان يقوم بها . وقد حذرت همرشولد من ان تعاملي معه ومع كوردية على صعيد شخصي ، سيثير حقد قسم الادارة علي ، وعلى كل موظف يعمل باخلاص معي . فابتسم همرشولد وقال لي ان اترك امر الادارة له وانه سيهتم بها .

وحين عدت الى القدس وجدت ان هانسن قد انهى تحقيقاته ووضع فيها تقريرا ارسلته الى كوردية مع توصية مني بتعيين هانسن في منصب المسؤول عن امن البعثة . فجاءت الموافقة على تعيينه باقل من اسبوع . ثم علمت ان هذا العمل اثار استنكار قسم الادارة ، وان الادارة كانت تنتظر فرصة مؤاتية للانقضاض علي .

وشرعت في العمل لوضع حد للتجسس والفساد في البعثة ، على ضوء التقرير الذي وضعه هانسن . وكانت اول خطـــوة قمت بها هـــو اتخاذ اجراءات امن مشددة في مقر الهيئة ، كفيلة بان تضع حدا لتسرب الاخبار الى الخارج . وقد طبقت تلك الاجراءات في كل مقر رئيسي للجان المراقبة المشتركة .

وكانت الخطوة الثانية التي كان علي ان آخذها هي التخلص من الذين

ادانتهم التحقيقات بشكل او بآخر . ومن هؤلاء ضابط ممتاز من ضباط الامن بعثتنا . وكــان يتنقــل كثيرا بسيارته الفخمــة التــي اشتراها فــور وصوله لتسلم عمله . وقد اكتشفنا فيما بعد انه كان يملك سيارتين ، وانه كان يعرف جميع الناس في دمشق وفي طبريا حيث كان مركز عمله . وبالرغم من وجود عائلته معه ، فكثيرا ما كنا نراه في القدس ، خارج اوقات عمله ، وحيدا لا يصحبه أحد من افرادها . وقد كشفت لنا تحقيقاتنا انه كان عميلا للجانبين .

وفي ذات يوم تقدمت السلطات السورية بشكوى ضد ضابط الامن هذا ، مفادها انها ألقت القبض عليه متلبسا بجرم تصوير المطارات السورية العسكرية . وقالت الشكوى ان الضابط اعترف للسلطات السورية بانه كان يجمع المعلومات لحساب اسرائيل ، وان السلطات السورية أفرجت عنه واعلنته شخصا غير مرغوب فيه .

على انه كان من المعروف عن الشعبة الثانية في سوريا انها لا تفرج بتلك السهولة عن من يقوم بأعمال تجسسية . لذلك ، فقد شككت بصحة الشكوى وقمت بتحقيقات خاصة ، أكدت لي ان ذلك الضــابط كان يقوم بعمليات غير مشروعة . وقد أعترف بجرمه ووافق على الاستقالة من الامم المتحدة ، شرط اعطائه مهلة ثلاثة ايام ، واليكم ما حدث في الايــام الثلاثة الاخيرة التي قضاها في خدمة الامم المتحدة :

غادر بناء الهيئة في القدس وذهب توا الى بيروت ، حيث اشترى كمية كبيرة من الذهب . ثم عاد بسيارته ومعه شحنة الذهب الى سوريا ، ثم الى عمان ثم الى القدس ، واخيرا الى تل ابيب . وهناك اجتمع باسرائيليين من القطاع الاسرائيلي في القدس . فدفنوا جميعا شحنة الذهب في الرمال على الشاطىء ، بعد ان اخذ موظفنا حصته وغادر المكان دون ان يعترضه أحد . غير ان رفيقيه كانا اسوأ حظا ، اذ اعترض رجال البوليس سيارتهما ، في عودتهما الى القدس ، اربع مرات وفتشوها دون ان يعثروا على شيء . وفي اليوم التالي عادا الى الشاطىء ، فأخرجا الذهب من الرمال وحملاه الى القدس .

وهذه حادثة اخرى . كانت راشيل امراة جميلة تضج بالانوثة ، الى جانب كونها خبيرة بانشاء علاقات مع موظفي الامم المتحدة الجدد في هيئتنا . وكان روني قد التحق ببعثتنا منذ مدة قصيرة ، تاركا عائلته في بلاده على أمل ان تلحــق بــه فيما بعد . وفي احدى الحفلات ، طلبت راشيل من روني أن يرافقها الى بيتها فقبل فورا .

وهنا وفرت له راشيل جميع اسباب الراحة . ولم يندم روني على تسرعه في قبول دعوتها ، الا بعد أن غادر بيتها ، ووجد شخصا امام بابها

يعرض عليه سيارته لينقله بها حيث يريد .

ــ يظهر انك جديد هنا ، ويسرني ان أضع نفسي في خدمتك .

ــ هذا لطف منك .

وبعد برهة من السكوت :

ــ بالمناسبة ، علمت ان زوجتك ستلتحق بك قريبا .

ــ نعم . شكرا لله .

ــ هل تحبها ؟

ــ طبعا .

ــ الا تعتقد انها ستشعر بخيبة ان هي عرفت بوجود راشيل ؟

ــ ماذا تقول ؟

ــ لا تقلق . فهي لن تعرف اطلاقا اذا كنت على استعداد لان تفعل ما اطلبه .

ــ ماذا تقصد ؟

ــ اعدك باني لن أخبر زوجتك روزي .

ــ كيف عرفت اسمها ؟

ــ نعرف كل شيء عنك . فالافضل ان تنفذ رغباتنا في الاستخبارات الاسرائيلية وان تعمل ما نطلبه منك .

ــ لكن هذا يسبب لي المشاكل مع رئيسي . الجنرال لا يرحم في مثل هذه الامور .

ــ ذاك العنيد اللعين ! انه يحاول ان يضع حدا لنشاطنا . لا تهتم به . انت في مأمن . كل ما نريده منك هو ان تجمع لنا بعض المعلومات التي نحتاج اليها من وقت لاخر . طبعا ، سندفع لك ثمن هذه المعلومات . قل لي في اي مصرف في العالم تريد ان تفتح حسابا جديدا ؟

ولحسن الحظ لم ينفذ روني رغباتهم ، بل جاء الي توا واخبرني بما حصل .

وهناك ايضا الحادثة التي تتعلق بأحد موظفينا الملقب بـ « الدوق » . كان « الدوق » موظفا مثاليا يقوم بعمله خير قيام . واعترافا مني بمؤهلاته ،

اسندت اليه عملا اداريا خاصـــا ، تمهيدا لتعيينه موظفا دائمـــا في الامم المتحدة . ويظهر ان ثقتي به اطمعته ، فاضطررنا لان نشمله في تحقيقاتنا . وهكذا قبضنا عليه بالجرم المشهود ، وهو يقوم بعملية تهريب واسعة . ولم يكن من السهل على شخص عسكري مثلي ان يجري تحقيقا مع الدوق ، وهو المحامي السابق . لكنه ، على خبرته الواسعة في اصول المحاكمات ، انهار امام التحقيـــق واعترف بما نسب اليه . وقد ظهر ، فيمـــا بعد ، في الكونغو يقوم بتنظيم رحلات حج الى الارض المقدسة .

وهناك ايضا حادثة الموظف الدولي الذي كان على أهبة الاستعداد للانتقال من قوة الطوارىء الدولية في غزة الى بعثتنا في القدس . اشترى هذا الموظف عشرة آلاف ليرة اسرائيلية في غزة بسعر اقل من سعرهـــا الرسمي . وفور وصوله الى القدس زاره البوليس الاسرائيلي ، لان الاموال التي جاء بها من غزة كانت مزيفة !

لم يعرف هانسن حدودا تقف عندها تحقيقاته . فذهب الى حد التحقيق في الديون التي تراكمت على موظفي الهيئة عند اصحاب دكاكين البقالة . وذات يوم بلغت هانسن شكوى من بقال في شتوره ، بلبنان ، مفادها ان بعض موظفي الهيئة اشتروا سلعا كثيرة منه دون ان يدفعوا ثمنها ، مع العلم ان ذلك البقال كان عميلا مزدوجا لسوريـــا ولاسرائيل . وكشفت تحقيقاتنا ان الديـــون كانت كبيرة جدا وان بعضها كان ثمنا لثلاث برادات اشتراها موظفو الهيئة لبيعها في الشام . كما كشف هذا التحقيق ان اسرائيل تعمل على انشاء شبكة جاسوسية بين تل ابيب وطبريا والشام وبيروت يكون حلقة الوصل فيها بعض موظفي الامم المتحدة في بعثتنا . وتمكن هانسن بطريقته الخاصة من معرفة ضابط بعثتنا الذي كان سيقوم بالرحلة الاولى وتاريخها . واذكر انه جاء الى مكتبي ليقول لي انه قرر اللحاق بالضابط على طول الطريق من تل أبيب الى بيروت . فتمنيت له حظا سعيدا .

وفي اليوم التالي ذهبت الى القاهرة لاجتمع بهمرشولد الذي اغتنم فرصة وجوده في القاهرة ، عائدا من لاوس، ليجري محادثات مع الرئيس عبد الناصر . واعترف انني لم افكر اطلاقا بهانسن عندما كانت الطائرة تحلق بي في الجو . كنت مشغولا ، آنـــذاك ، بقراءة تقريـــر وضعـــه رئيس لجنة المراقبة المشتركة بين الاردن واسرائيل ، وكانت اسرائيل تبذل كل جهد لتغير ذلك التقرير .

كان التقرير يتعلق بشكوى قدمتها الاردن ، وهي ان الاسرائيليين طردوا عـــددا من عرب قبيلـــة العزازمـــة القاطنين في النقب الـــى الاردن ، وان اولئك اللاجئين يعيشون الان في المخيمات ، بحالة البؤس الشديد .

وكنت قد طلبت اجراء تحقيق فوري في صحة الشكوى الاردنية . وبالرغم من العراقيل التي وضعت في وجهنا ، فقد استطعت ارسال فريق مؤلف من مراقبين ايطاليين ، كان احدهما يتكلم العربية بطلاقة ، مع سيارة جيب وراديو ، حرصا مني على تمكينهما من الاتصال بالمقر الرئيسي بالقدس، اذا حاول الاسرائيليون التدخل بالمهمة التي انيطت بهما . وقد احتج الاسرائيليون فورا ، وحاولوا منع الفريق من دخول النقب ، متذرعين بوجود الغام في المنطقة . وحين طلب فريق المراقبين تجهيزه بكانسة الغام رفض الاسرائيليون اعطائها له . وعندئذ دخل الفريق الى المنطقة التي كان يقصدون اليها ، على مسؤوليته الخاصة . وقد دلت تحقيقات المراقبين على ان طرد العرب العزازمة قد حصل فعلا . وحاول الاسرائيليون ، بكل ما لديهم من وسائل ، تغيير التقرير فلم يفلحوا . كذلك حاول الاسرائيليون اتهامي بالخيانة ، على اساس ان احد المراقبين في الفريق كان عربيا . ولم يكن ذلك « العربي » في الحقيقة سوى المراقب الايطالي الذي يتكلم العربية بطلاقة .

عندما وصلت الى القاهرة وجدت ان محادثات همرشولد مع حاكم مصر ستستغرق معظم الوقت ، وان من المتعذر التحدث مع همرشولد عن التقرير المذكور. وهكذا انحصرت محادثاتي معه بالوضع المتوتر على الحدود السورية الاسرائيلية .

وفي ساعة متأخرة من تلك الليلة ، وصلتني برقية رمزية من القدس . كنت متأكدا ان تلك البرقية تحمل خبر انفجار الوضع على الحدود السورية الاسرائيلية . غير ان حل رموزها فاجأنا بحادثة تختلف تماما عما كنا نتوقعه . اذ ان البرقية كانت تحمل خبر وقوع حادث خطير لهانسن ، ونقله الى المستشفى في حيفا ، بحالة الخطر الشديد .

تأكدت آنذاك ، كما انا متأكد اليوم ، ان الحادث الذي حصل لهانسن لم يكن حادثا طبيعيا .

وعدت الى القدس بحالة قنوط . كان هانسن غائبا عن الوعي ، فيما كانت تعتني به بعض الممرضات ، فضلا عن المخابرات الاسرائيلية ، اذ عينت احد رجالها ليجلس بقربه ، دون ان يغادره لحظة واحدة .

قمنا بتحقيق واسع حول الحادث ، لم نترك فيه شاردة او واردة . فلم نجد ، كما توقعت ، اي دليل على ان الحادث كان مدبرا من قبل . فقد وقع الحادث في وضح النهار ، على الطريق بين طبريا وهديرة . كانت الطريق مغطاة بطبقة من الزيت بسبب مرور الشاحنات المحملة بالزيتون . غير ان ذلك لا يبرهن شيئا ، لان الوقت كان وقت قطف الزيتون . وكنا

جميعا نتحسب لذلك الخطر وهانسن كان اكثر تحسبا . ومع هذا ، فقد فحصنا الطريق والاشجار المحيطة بها ، بدقة وعناية فائقة ، فلم نتوصل الى دليل . كما ان الفحص الدقيق الذي اجريناه للسيارة لم يؤد الى نتيجة ايضا . فقد أحكم الاسرائيليون تدبير المؤامرة بحيث بدا الحادث طبيعيا . الا ان ما لم يكن طبيعيا هو وقوع ذلك الحادث لهانسن .

وجيء بهانسن من حيفا الى القدس ، حيث دخل المستشفى الفرنسي في القطاع الاردني . واعيدت اليه من المستشفى في اسرائيل جميع اشيائه ما عدا مذكرة الجيب التي قال الاسرائيليون انهم لم يجدوها .

ثم اعيد هانسن الى السويد ، فأمضى وقتا طويلا في المستشفى . ولما زارنا في القدس قبل ان اغادرها الى الكونغو ، صعقت عندما رايته شبحا ، اذا ما قيس بما كان قبل الحادث . وهكذا خسرت الامم المتحدة ضابطا موهوبا مخلصا ، كان على وشك ان يضع حدا للفساد والجاسوسية التي امرني همرشولد باقتلاعها .

لم يمت هانسن كما مات الكونت برنادوت . لكنه بقي رمزا آخر لانكار الذات .

# الفصل العاشر

في اول شباط ١٩٦٠ ، شنت اسرائيل هجوما على التوافيق ، القرية العربية الواقعة على الحدود السورية الاسرائيلية . وتصدى السوريون للهجوم الاسرائيلي فاندلع القتال على طول المنطقة الحرام على الحدود . ولعل القاء نظرة على الخطوات التي ادت الى تلك الحادثة والتحقيقات التي تبعتها خير مثال على الاوضاع التي كنا نجد انفسنا فيها .

في ١٩٥٠ ، انشأ الاسرائيليون مستعمرة جديدة باسم بيت كتزير في المنطقة المجردة من السلاح . وكما هي الحال في كل المستعمرات التي انشئت على الحدود ، حصن الاسرائيليون مستعمرة بيت كتزير بالخنادق والاسلاك الشائكة وخرجوا الى الاراضي المحيطة بها يحرثونها ويحفرون اقنية الري فيها ، وذلك بغية ايصال مياه بحيرة طبريا الى مستعمراتهم .

وسرعان ما وجد الفلاحون العرب انفسهم محرومين من الدخول الى الاراضي الواقعة بين البحيرة والمستعمرة . وكان سكان قرية التوافيق يراقبون الالات الزراعية الاسرائيلية تقتطع اراضيهم تدريجيا ، حاملة معها الحدود الاسرائيلية الجديدة داخل الاراضي العربية الواقعة في المنطقة الحرام . وكان الاسرائيليون يقومون بهذه الاعمال عمداً وتجاوبا مع سياسة حكومتهم القائلة بالاستيلاء على اراضي المنطقة الحرام والزحف نحو حدود فلسطين القديمة واكراه العرب على ترك اراضيهم في المنطقة باية وسيلة كانت . ولا عجب ان يستنكر سكان قرية التوافيق المقسومة الى « التوافيق التحتا » و « التوافيق الفوقا » الاستيلاء التدريجي على اراضيهم .

كانت قرية التوافيق تقع على تلة عالية على بعد ١٣٠٠ مترا من مستعمرة بيت كتزير . وكان بعض اراضي المنطقة الحرام ملكا للعرب ، والبعض الاخر ملكا لليهود . غير ان الاسرائيليين لم يحترموا يوما ملكية الاراضي العربية ، فكانوا يحرثون حيثما يريدون بحماية المصفحات الاسرائيلية . بل ذهب الاسرائيليون الى ابعد من ذلك ، فانشأوا ثلاث محطات في المنطقة الحرام تمركزت فيها القوات الاسرائيلية لتأمين الحراسة لاعمال الاسرائيليين في تلك المنطقة ومنع العرب من استغلال اراضيهم فيها .

وكان هذا العمل مناقضا لاتفاقية الهدنة التي نصت على عدم السماح لاي من الجانبين باقامة منشآت عسكرية ضمن المنطقة الحرام .

لو عدنا بالحوادث قليلا الى الوراء لوجدنا انه في ايلول ١٩٥٧ حاول فريق من المساحين الاسرائيليين مسح الاراضي الواقعة في المنطقة الحرام مما حدا بسكان قرية « التوافيق التحتا » ان يطلقوا النار عليهم لاخراجهم من هناك . وعلى اثر ذلك توترت الحال ، بحيث اضطر سكان قرية التوافيق لاخلاء منازلهم والالتجاء الى قرية « التوافيق الفوقا » . وبعد تلك الحادثة بشهرين اعلن الاسرائيليون عن تصميمهم على حفر قناة داخل القرية ، فارسلوا ثلاثة عمال يصحبهم بوليس الحدود وبدأوا بالعمل . غير ان السوريين أطلقوا النار عليهم فقتل اسرائيلي واحد وجرح اخر . ومن ذلك الوقت إصبحت القرية العربية مهجورة تماما .

في اثناء قيام تلك المشاكل ، لم تتمكن لجنة المراقبة المشتركة التي كان يرئسها آنذاك الكولونيل الكندي برتراند من القيام بمهمتها ، لان الاسرائيليين كانوا يرفضون حضور اجتماعاتها . وبالرغم من ان مجلس الامن حث الجانبين اكثر من مرة على حضور اجتماعات تلك اللجنة ، فان الاسرائيليين واصلوا مقاطعة اجتماعاتها . وانكروا على رئيس لجنة المراقبة المشتركة صلاحياته باجراء تحقيقات حول حوادث الحدود . غير ان حادث اطلاق النار المشار اليه حمل الاسرائيليين على تغيير موقفهم من اجتماعات لجنة المراقبة المشتركة ووافقوا على حضور اجتماعاتها . فاجتمعت اللجنة في تشرين الثاني ١٩٥٧ بحضور الجانبين . فاتفق الفريقان على الامتناع عن التدخل في الاعمال المشروعة وعلى حل الخلافات بينهما بالوسائل السلمية . وكان من جراء ذلك الاتفاق ان اقلع الاسرائيليون عن حفر قناة الري عبر قرية التوافيق .

غير ان الاسرائيليين ، بعد مرور اثني عشر شهرا على ذلك الاتفاق ، عادوا الى الحفر من جديد في الارض الملاصقة للقرية من الجهة الغربية . وقد اثار هذا العمل اعتراضات قوية ، مما حملنا على ارسال فريق من المساحين الذين عادوا قائلين ان هذا العمل لا يؤثر في الارض العربية ، وان الاسرائيليين اكدوا لهم ان ليس في نيتهم ان يزرعوا الارض الواقعة حول منطقة الحفر الجديدة . وعلى هذا الاساس ، اعطينا حكما مفاده ان اعمال الحفر الجديدة هي اعمال مشروعة .

وسرعان ما تبين انه لم يكن في نية الاسرائيليين المحافظة على وعدهم ، فبداوا بزراعة الاراضي الواقعة حول منطقة الحفر الجديدة . عندئذ ، صمم الفلاحون العرب على التمسك باراضيهم فكانوا يعبرون اعمال الحفر الاسرائيلية الى اراضيهم الواقعة غربي القرية ويعملون فيها غير عابئين

ببوليس الحدود الاسرائيلي وتهويله عليهم . حتى انه اصبح من المناظر المألوفة ان ترى فلاحا عربيا يعمل في ارضه والبارودة على كتفه . ولعل ذلك الفلاح استمد قوته من المواقع العسكرية السورية المتمركزة على الجبال المشرفة على المنطقة الحرام التي لو لم يستفزها الاسرائيليون لما اصلتهم نيران مدافعها . وهكذا واصل الاسرائيليون اعمالهم الارهابية ضد الفلاحين العرب ، الى حد حمل سكان قرية التوافيق على فتح نيران اسلحتهم الرشاشة على الاسرائيليين ، فقتلوا واحدا منهم .

في هذا الاثناء ، استطاع الكولونيل برتراند ، رئيس لجنة المراقبة المشتركة ، ان يقنع السوريين بتعليق اعمال الفلاحة في الارض الواقعة غربي قرية التوافيق ، ريثما يجري الكولونيل محادثات مع الجانب الاخر ، على ان لا يؤثر ذلك في ملكية الارض في المستقبل . غير ان جميع محاولات الكولونيل برتراند للحصول على معاونة من الجانب الاسرائيلي ذهبت سدى.

لكن الكولونيل برتراند لم ييأس ، فقدم بعد مدة طلبا خطيا الى رئيس الوفد الاسرائيلي في لجنة المراقبة المشتركة للاجتماع به . وبعد ثمانية ايام وصل رد الوفد الاسرائيلي مقترحا عقد اجتماع مع الكولونيل في طبريا في اليوم التالي . كان الاجتماع فاشلا ، اذ ان رئيس الوفد الاسرائيلي اعلن عن عدم استعداده لاجراء محادثات مع الكولونيل وعن رغبته في تأجيل الاجتماع ثلاثة ايام .

لم يتم الاجتماع الثاني اطلاقا . فبعد ظهر اليوم ذاته ، بدأ فريق من الاسرائيليين بحراثة الارض الملاصقة لاعمال الحفر تماما . وطلب الكولونيل من الاسرائيليين ايقاف العمل فورا ، لكنهم تجاهلوا طلبه ، وتابعوا اعمال الحراثة يومين اخرين . ولم يتحمل سكان التوافيق الذين كانوا حتى ذلك التاريخ ما زالوا محافظين على وعدهم ، الاعمال الزراعية الجديدة ، فعادوا الى عبور اعمال الحفر الاسرائيلية واستئناف اعمالهم الزراعية في الجهة الواقعة الى الغرب .

وفي اليوم التالي اجتمع الكولونيل ريكيرت بنائب مدير عمليات الهدنة الاسرائيلي بالوكالة . وكان واضحا منذ اللحظة الاولى من الاجتماع ، ان عبارة « الوضع الراهن » التي استعملها الممثل الاسرائيلي كانت تعني له الاتفاق الذي حصل عليه الكولونيل برتراند من السوريين سابقا ، والذي علق الفلاحون العرب بموجبه اعمالهم الزراعية مفسحين المجال امام الكولونيل لاجراء محادثات مع الجانب الاخر . وقال الممثل الاسرائيلي انه ليس على استعداد للنظر في اية حلول الا بعدما تهدأ الحالة في المنطقة .

كان هذا نموذجا من الكلام المبطن الذي يتقنه الاسرائيليون . فلو لم

يمزق الاسرائيليون وعدهم لنا بالعدول عن حراثة الاراضي المحيطة باعمال الحفر التي كانوا يقومون بها غربي قرية التوافيق ، لما حصلت حالة التوتر تلك . كنت شخصيا مقتنعا بأن وزارة الدفاع الاسرائيلية كانت تقف وراء الاعمـــال الزراعية الجديدة . اقصد موشي ديان وزير الزراعة ، آنذاك ، وقائد الجيش سابقا .

وضعت تقريرا يحتوي على خلاصة التحقيقات التي قام بها الكولونيل ريكيرث وارسلته الى الجانبين . وضمنت تقريري بندا يقضي بان يعمل الفلاحون العرب في المنطقة الغربية الى الحد الذي وصلت الـــيه الاعمال الزراعية الاسرائيلية ، وان يعود العرب عشرة امتار الى الوراء من اجـــل المحافظة على الهدوء في تلك المنطقة ، على ان تبقى قطعة الارض التي عاد عنها العرب عشرة امتار الى الوراء منطقة حراما . وكان هذا البند لا يؤثر على ملكية الارض في المستقبل . الا انني كنت اعتقد انه سيحمل الجانبان على العمل في جو هادىء . لكن الذي حصل كان بخلاف ذلك تمامـــا . فقـــد انهمرت علينا الشكاوى من الجانبين بغزارة المطر .

لما كان الاسرائيليون يمنعون مراقبينا من الدخول الى المستعمرة او الى الاراضي المتنازع عليها ، فقد كان مصدر المعلومات التي تجمعت لدينا في الايام التالية هو مركز المراقبة الذي كنا قد انشأناه في قريـــة « التوافيق الفوقا » . وفي العشرين من كانون الثاني تبين ان سبع تراكتورات اسرائيلية يحرسها البوليس الاسرائيلي المسلح بدأت بالعمل وراء الحـــدود التي رسمتها في البند المذكور . في اليوم التالي بدأ الاسرائيليون يفلحـــون الارض التي كان العرب يفلحونها منذ يومين فقط . وفي السادس والعشرين قامت مصفحة اسرائيلية بطرد الفلاحين من حقولهم ، مع ان وجود المصفحة في تلك المنطقة كان ممنوعا بموجب اتفاقية الهدنة .

بانسحاب المصفحة عاد العرب يعملون في اراضيهم . ثـــم عادت المصفحة بحراسة بوليس الحدود الاسرائيلي فطردت العرب من حقولهم مرة ثانية . لكن العرب عادوا مرة ثالثة ومعهم ثلاثة حراس سوريين بكامل اسلحتهم . وكنا حتى ذلك التاريخ لا نرى الا الفـــلاحين العـــرب يحرثون اراضيهم وعلى اكتافهم بنادق حربية . على ان اسرائيل كانت تدعي بأن هناك جنودا سوريين في قرية التوافيق .

طلبنا من السوريين ان يسحبوا حراسهم الثلاثة ، كـــما طلبنا مـــن الاسرائيليين ان يسحبوا فرقة بوليس حدودهم والمصفحـــة الموجـــودة بحراستهم . فلم يصغ لنا اي من الجانبين . وفي السابع والعشرين مـــن كانون الثاني حاولت مصفحة اسرائيلية ان تطرد العرب مـــن اراضيهم ، لكنهم بقوا في اماكنهم . وبعد ان ابتعدت المصفحة الاسرائيلية بضع دقائق،

انهمر الرصاص على الفلاحين العرب من احدى المحطات العسكرية الثلاث التي انشأها الاسرائيليون في المنطقة المجردة من السلاح . عند ذاك جرى اطلاق الرصاص من الجهة الاخرى ، اي من منطقة التوافيق .

وفي الايام الاربعة التالية استمر الفلاحون العرب بحراثة اراضيهم تحت الرصاص ، لكنهم اضطروا اخيرا للانسحاب . وكان اطلاق النار يأتي من المحطات العسكرية . وفي الواحد والثلاثين من كانون الثاني ابتدأ قصف المدافع من الجانبين السوري والاسرائيلي .

كنت قد طلبت من مراقبينا ان يزوروا مواقع النيران ويحققوا في ما اذا كان اي من الجانبين يحشد قوات عسكرية في المنطقة الحرام . وفي اليوم نفسه ، كان مدير اعمال الهدنة الاسرائيلي قد اتصل بي واخبرني انه على استعداد للاجتماع بالسوريين لايجاد حلول تضع حدا للقتال بينهما . ثم اضاف يقول ، بطريقة اصبحت معروفة لدينا ، ان اسرائيل غير مستعدة ان تباحث السوريين في اية مشكلة ضمن المنطقة الحرام . اي ان اسرائيل لم تكن مستعدة ان تفاوض بشأن المنطقة المتنازع عليها ، على أساس انها منطقة اسرائيلية . فقلت له ان هذا الكلام يعني ان اسرائيل لا تتقيد بالاتفاقية التي توصلنا اليها في ١٩٥٧ ، والقائلة بان على كل فريق ان يمتنع عن التدخل في اعمال الفريق الاخر الشرعية ، وبان على الفريقين ان يحلا خلافاتهما بالطرق السلمية فيتقيدان بشروط اتفاقية الهدنة العامة .

بدأت المدافع الاسرائيلية تقصف قرية التوافيق التحتا حين وصل مراقبونا الى مناطق النزاع ليتحققوا من تعبئة القوات العسكرية في المنطقة الحرام . وكان القصف يأتي من مراكزهم العسكرية في المنطقة الحرام ، ومن مراكز اخرى في الجنوب الغربي من البحيرة . ثم تحرك الاسرائيليون بسرعة واحتلوا قرية التوافيق التحتا ونسفوا البيوت فيها ، بيتا بيتا .

عند ذاك فتح السوريون نيران مدافعهم على القوات الاسرائيلية واجبروها على الانسحاب من القرية .

وفي صباح اليوم التالي حلقت اربع مقاتلات اسرائيلية نفاثة فوق المواقع العسكرية السورية وتوغلت في سماء سوريا حتى وصلت فوق القنيطرة . لكن السوريين أصلوها نار مدافعهم المضادة للطائرات . وفيما كان المراقبون يشقون طريقهم الى التوافيق التحتا ، كان الجانبان يحصيان تتلاهما . وقد قتل من السوريين اثنان وجرح اثنان اخران. اما الاسرائيليون فقد قتل منهم ثلاثة وجرح سبعة اخرون . وقد نظم الاسرائيليون زيارات الى مكان المعركة ودعوا الصحفيين والملحقين العسكريين وبعض الدبلوماسيين ، وحتى تلاميذ المدارس . وهناك عرض الاسرائيليون

الاسلحة التي استولوا عليها عند شن هجومهم على القرية . ولم يوجه الاسرائيليون لي او لاي مراقب دعوة للقيام بتلك الزيارة .

وقال لنا بعض الملحقين العسكريين ، بصورة غير رسمية ، ان الهجوم الاسرائيلي لم يكن ناجحا تماما . وفي ذلك الوقت كان بعض مراقبينا قد دخلوا الاراضي الاسرائيلية واكدوا لنا ان الهجوم على التوافيق قامت به فرقة من قوات المشاة تساندها مدفعية وضعها الاسرائيليون في مختلف المراكز الاستراتيجية .

اما مراقبنا الذي دخل قرية التوافيق التحتا ليحقق في ما اذا كانت القرية فعلا محصنة تتمركز فيها قوات سورية ليلة وقوع الهجوم كما يدعي الاسرائيليون ، فقد وجد ان القرية لم تكن محصنة ، وانها كانت خالية من اية قوات سورية ، وان لا اثر للقتال فيها اطلاقا ، وان سكانها كانوا قد غادروها والتجأوا الى التوافيق الفوقا ، قبل حصول الهجوم الاسرائيلي بوقت غير قصير . ووجد مراقبنا ايضا ان الاسرائيليين قد نسفوا جميع بيوت القرية .

وفيما كانت تدور المعركة في منطقة التوافيق ، كنت انا في القدس اخوض معركة من نوع اخر مع الدكتور بيران الذي خلف يوسف تقوة في مديرية شؤون الهدنة ، محاولا اقناعه بان توافق اسرائيل على حضور اجتماع لجنة المراقبة المشتركة . كان الدكتور بيران يعرف المنطقة عن ظهر قلب ، اذ انه عاش في فلسطين وعمل مع حكومة الانتداب البريطانية . وقد رفض الدكتور بيران ان يحضر اجتماع لجنة المراقبة المشتركة ، الا اذا وافق السوريون مسبقا على الشروط التي تضعها اسرائيل ، وهي عدم ادراج منطقة التوافيق في جدول اعمال لجنة المراقبة ، باعتبار ان تلك المنطقة اصبحت اسرائيلية . ونزولا عند الحاحي ، قدم الدكتور بيران اقتراحا اخر ، وهو ان اسرائيل توافق على اجراء محادثات غير رسمية مع السوريين ، شرط ان يوافق رئيس لجنة المراقبة المشتركة مع اسرائيل في كل موضوع تعتبره اسرائيل خارج نطاق صلاحية لجنة المراقبة . الا انني رفضت هذا الاقتراح فورا ، باعتباره لم يخرج عن الاقتراح الاول في المعنى ، وان كان يختلف في المبنى . لكنني لم أيأس بل اعدت المحاولة مرة ثالثة ، فجاءني الدكتور بيران هذه المرة باقتراح مدروس قال فيه ان اسرائيل تجتمع بالسوريين في نطاق لجنة المراقبة المشتركة لبحث السلم الكامل على الحدود ، او لبحث صيانة الهدوء على الحدود ، شرط ان لا يدرج في جدول الاعمال اي موضوع حول المنطقة الحرام الواقعة غربي الحدود الدولية ، اي منطقة التوافيق .

وهكذا عادت اسرائيل ، عبر الدكتور بيران ، الى لعبتها القديمة التي

حاولت فيها ان تضع سوابق يمكن استغلالها ضد هيئة المراقبة الدولية .

لم يكن يهم « الدولة » الجديدة استشهاد الرجال في منطقة التوافيق ، بل كانت راضية ، قانعة ، بالعمل الوحشي الذي ادى الى وقف الاعمال الزراعية العربية . على كل حال ، فلم يكن امامي الا ان اعرض مقترحات الدكتور بيران على السوريين . لكن هؤلاء رفضوها جملة وتفصيلا ، وقالوا إنهم على استعداد للاجتماع بالاسرائيليين ، في اطار لجنة المراقبة المشتركة ، من اجل بحث الاعتداءات الاسرائيلية الاخيرة التي كانت تشكل خرقا فاضحا لاتفاقية الهدنة . واصر السوريون على ادراج الحوادث الاخيرة في المنطقة الحرام على جدول اعمال اللجنة .

وحملت الاقتراح السوري الى الدكتور بيران فرفضه فورا . وازعجني ذلك كثيرا لاسباب وجيهة عديدة ، منها ان الاسرائيليين خرقوا اتفاقية الهدنة وحنثوا بوعدهم لنا وتجاهلوا القرار الذي اصدرته في العشرين من كانون الثاني الماضي . وها هم الان يتجاهلون عمدا قرار مجلس الامن بدعوة الفريقين لحضور اجتماعات لجنة المراقبة المشتركة . كان ذلك كله اكثر مما احتمل . فدعوت لجنة المراقبة المشتركة الى اجتماع دون حضور الاسرائيليون .

قبل ان تصل تحقيقات مراقبينا ، عقدت لجنة المراقبة المشتركة اجتماعها في بنيات يعقوب في السادس عشر من شباط لتبحث الحوادث الاخيرة في منطقة التوافيق . ورغبة من الاسرائيليين في استباق الحكم الذي تصدره لجنة المراقبة بادانة اسرائيل ، فقد اتصل المندوب الاسرائيلي بالكولونيل براتراند ، رئيس اللجنة ، في اليوم الخامس عشر من شباط ، اي في اليوم الذي سبق الاجتماع ، ولفت نظره الى ان السوريين رفضوا الاقتراح الاسرائيلي لعقد اجتماع لا تدخل في جدول اعماله الحوادث الاخيرة في المنطقة الحرام .

وذهب المندوب الاسرائيلي الى ابعد من ذلك ، فأتهم الكولونيل براتراند باتخاذ موقف ضد اسرائيل حول قضية حيوية بالنسبة لها . كما ادعى المندوب الاسرائيلي بان الكولونيل منع الاسرائيليين من حضور الاجتماع المقرر عقده في اليوم التالي . ولما كانت اتفاقية الهدنة تعطي رئيس لجنة المراقبة صلاحية دعوة اللجنة الى الاجتماع ، فقد تجاهل الكولونيل ملاحظات المندوب الاسرائيلي وعقد الاجتماع في اليوم التالي ، دون وجود الاسرائيليين.

درست اللجنة التقارير التي تضمنت تحقيقات المراقبين ، فوجدت ان الاسرائيليين خرقوا الاتفاق المعقود في تشرين الثاني ١٩٥٧ ، وعارضوا تنفيذ قرار كبير مراقبي الهدنة ، الصادر في العشرين من كانون الثاني ١٩٦٠،

باستعمالهم القوة ضد العرب وبشن هجوم على قرية التوافيق التحتا غير المحصنة ، مستعملين قواتهم العسكرية النظامية ، مما ادى الى انفجار الوضع في تلك المنطقة .

وازاء هذه الوقائع ، ادانت لجنة المراقبة المشتركة اسرائيل ادانة واضحة ، صريحة ، وشجبت الهجوم الذي قامت به على قريـة التوافيق التحتا ، كما شجبت قيام اسرائيل بخرق اتفاقية الهدنة ، وبارسالها اربع مقاتلات نفاثة الى الاجواء السورية .

فور وصول قرار لجنة المراقبة المشتركة الينا في المقر الرئيسي في القدس ، شرع جميع الموظفين بتحضير تقرير مفصل عن الحوادث لرفعه الى الامين العام همرشولد في نيويورك ، تمهيدا لعرضه على مجلس الامن . وقد شعر الاسرائيليون بأن هذا التقرير سيصيبهم في الصميم . لذلك اتصل الدكتور بيران بي وجدد اقتراحه لعقد مؤتمر على مستوى عال بين السوريين والاسرائيليين ، في اطار لجنة المراقبة المشتركة ، للبحث في تهدئة الحالة . ولما سألته عما اذا كان يوافق على وضع الحـوادث الاخيرة في المنطقة الحرام على جدول اعمال الاجتماع بقي صامتا .

غير ان اجهزة الاعلام الاسرائيلية شرعت تختلق القصص والروايات لتحفظ سمعتها في حال صدور قرار عن مجلس الامن بادانتها . لذلك ، فقد حرصنا حرصا شديدا على وضع تقرير موضوعي لا شائبة ولا مأخذ عليه . فنجحنا في تلك المهمة نجاحا باهرا ، اذ ما كاد تقريرنا يوزع في الامم المتحدة في نيويورك ، حتى وصلتنا برقية من همرشولد يثني فيها على تقريرنا الذي كان يمتاز « بموضوعيته واسلوب كتابته والتفاصيل التي جاءت فيه . » وفي اليوم التالي زارنا في مقر الهيئة الرئيسي في القدس دبلوماسيون وصحفيون جاؤوا « للوقوف على الحقائق من مصدرها الموضوعي . » وكنا من بضعة اشهر نشعر باننا نخوض المعركة وحيدين ضد الدعايات الاسرائيلية الملفقة . اما اليوم ، فقد اصبحت وجهة نظرنا معروفة لدى العالم الخارجي واصبحت تحمل وزنا وثقلا .

وافق مجلس الامن على تقريرنا واتخذ قرارا ادان فيه اسرائيل ادانة صريحة كلية وشجب هجومها المتعمد على قرية التوافيق التحتا . وبالرغم من حملة الاعلام الدعائية التي قامت بها اسرائيل ، فقد الحق قرار مجلس الامن ضررا كبيرا بسمعتها الدولية . اما نحن ، في هيئة مراقبة الهدنة ، فقد شعرنا بارتياح عظيم لان الحق انتصر اخيرا . ومنذ ذلك الوقت ، حصل تغيير بارز في موقف البعثات الديبلوماسية والصحفيين الدوليين منا .

رأيت ان استغل علاقتنا الجديدة الطيبة بالبعثات الدبلوماسية من اجل تقوية مركز هيئة مراقبة الهدنة ، مع انه لم يكن في نيتي ان اجعل من

هيئة مراقبة الهدنة مؤسسة ضاغطة . كنت أشعر بان عدم معاونة الدول الموقعة على اتفاقية الهدنة لنا ، كان يقلل من اهمية عملنا . لذلك ، فقد شرعت فورا باقامة اتصالات مباشرة غير رسمية مع الهيئات القنصلية العامة في القدس ، وضعت فيها امامهم صورة واضحة مفصلة عن عملنا . وبالطبع ، كانت تلك القنصليات تنقل تلك الصورة الى وزارات خارجية بلادها ، غير مشوبة بالدعايات الاسرائيلية .

ليس من شك ان عملي هذا دفع دولا كثيرة على مساعدة همرشولد باتخاذها مواقف مبنية على الواقع والحقائق ، لا على الدعاية الاسرائيلية . وقد اثار هذا العمل غضب الاسرائيليون . لكنني شخصيا لم اكن افهم كيف يعتقد الاسرائيليون ان اعمالهم تعزز مواقفهم ، مع انها كانت تبعد عنهم حتى اقرب الدول اليهم . وعلى سبيل المثال لا الحصر ، اورد فيما يلي الحادثة التي حصلت للرئيس نهرو عند زيارته قطاع غزة .

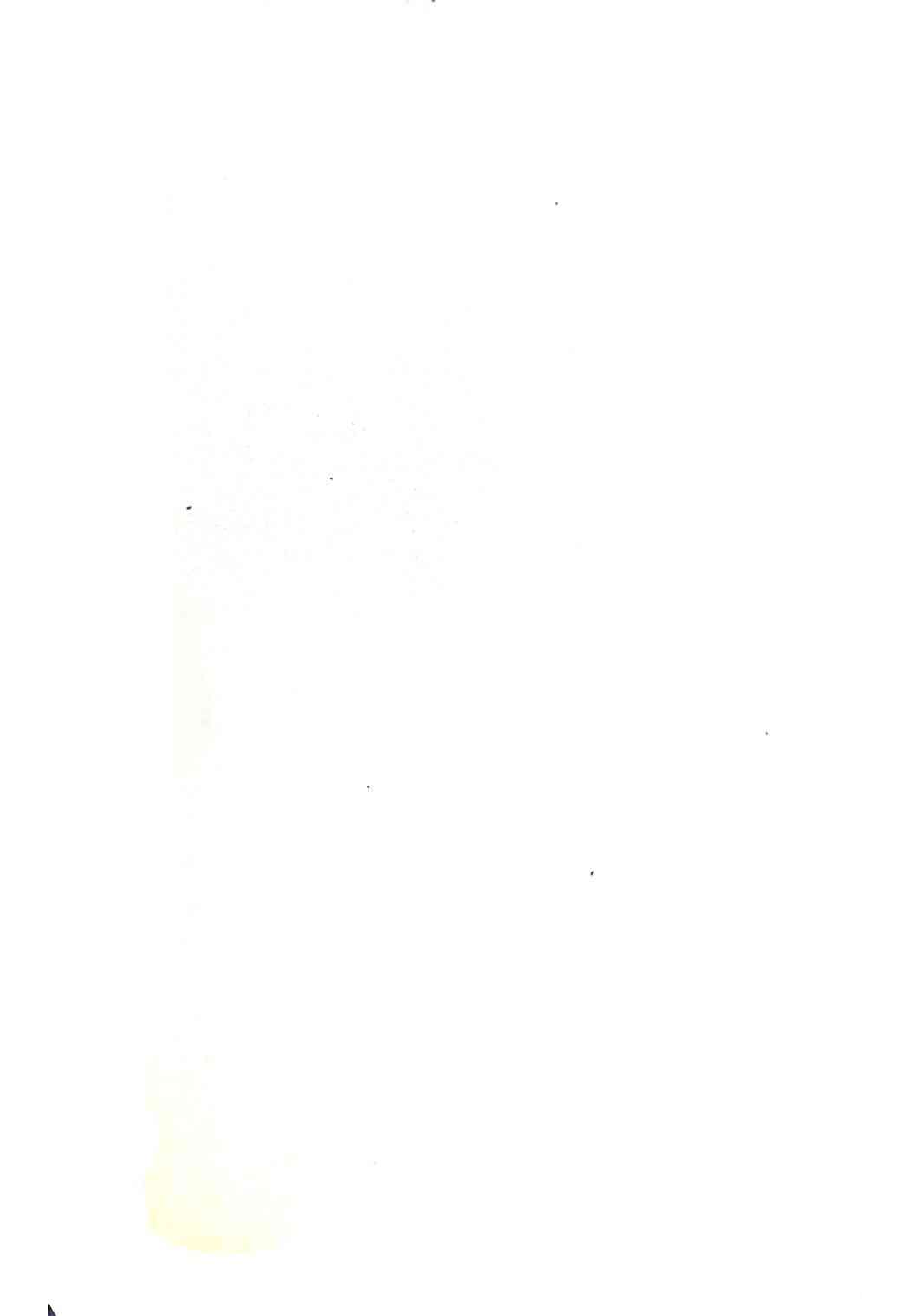
ذهبت في اول ايار الى غزة لاشارك باستقبال رئيس وزراء الهند نهرو ، الذي اغتنم فرصة وجوده في القاهرة فأراد ان يقوم بزيارة الى غزة يستعرض فيها القوات الهندية التي كانت تشكل قسما كبيرا من قوة الطوارىء الدولية .

واراد الاسرائيليون ، مرة أخرى ، ان يبرهنوا عن كرههم واحتقارهم للامم المتحدة . فما ان اقتربت طائرتها البيضاء ، وفيها رئيس وزراء الهند ، من مطار غزة حتى اعترضتها مقاتلة اسرائيلية نفاثة . وكأن ذلك لم يكن كافيا « لتوطيد » العلاقات الهندية الاسرائيلية ، فقد عاد الطيار الاسرائيلي ليزيد تلك العلاقات « توطيدا » بتحليقه على علو منخفض جدا فوق القوات الهندية ، حين كان نهرو يستعرضها على المطار . وعندما جلس الى مائدة الغداء جلست الى يمينه فلفتت نظري تعليقاته حول تلك الحادثة .

وبعد هذا باسبوع ، شاهدت عرضا عسكريا في عمان اقيم بمناسبة يوم الجيش الاردني ، كما شاهدت مناورة بالذخيرة الحية . وكان الجيش الاردني رمزا للمستوى العالي الذي يمكن أن يبلغه أي جيش . وكان من الواضح ان الجيش الاردني قد استفاد كثيرا من بعثة العقيد ستريكلاند البريطانية التي حلت محل الجنرال كلوب باشا .

عدت الى القدس لارى ان الوضع قد زاد توترا على الحدود السورية اللبنانية الاسرائيلية ، لعزم اسرائيل على تحويل مياه نهر الاردن لري صحراء النقب . لكن في صيف تلك السنة ، هدأ الوضع وتحولت انظار العالم عن الارض المقدسة الى مكان آخر . . . الى الكونغو .

# الكونغو



# الفصل الحادي عشر

في الساعات الاولى من صباح يوم الثالث عشر من تموز ١٩٦٠ ، وصلتني اخبار وقعت علي وقوع الصاعقة . كان قد مضى على وجودي في منصب كبير مراقبي الهدنة أكثر من سنتين ، وكنت ، آنذاك ، في بيروت أستعد لمغادرتها في اليوم التالي الى السويد لامضي الاجازة المستحقة لي مع سكارليت وجوهان .

وفي مدى دقائق انقلب برنامجي رأسا على عقب . ومن الانصاف القول ان برقية وصلتني من همرشولد ، في اليوم السابق ، أي في الثاني عشر ، يأمرني فيها بأن اجمع ستة مراقبين للعمل في الكونغو . وتجنبا للفوضى التي حصلت عند انشاء فريق المراقبين الدوليين في لبنان ، فقد اتخذت الاحتياطات اللازمة هذه المرة وجهزت فريقا مؤلفا من ضعفي عدد المراقبين المطلوب ودعمته بفريق آخر من موظفي المواصلات . وقد اخذت فريقا من المراقبين ، من ذوي المؤهلات العالية والخبرة الطويلة ، منهم الضابط الكندي جوني برتيوم ، والعقيد جوفي هانت ، وهو مهندس مدني في نيوزيلاند ، والكولونيل ستيك مولللارز ورد ، والعقيد فرانكو بوشي ، من ايطاليا ، والعقيد وين كينغ ، من كندا .

وفي الساعات الاولى من صباح اليوم التالي ، اي قبل مغادرتي بيروت الى السويد بساعات قليلة ، كلمني همرشولد تلفونيا وقال لي ان ارسل فريق المراقبين الى الكونغو ، فور الحصول على طائرة ، لان الوضع قد ازداد تدهورا . وكنت على وشك ان اقول له اني اخترت فريقا من المراقبين الممتازين ، حين بادرني بقوله ان علي ان اصحبهم الى الكونغو بصفة مستشار عسكري لرالف بنش الموجود حاليا هناك . واستمعت اليه ، بذهول ، يكمل حديثه قائلا : ان مجلس الامن ، اذا قرر ارسال جنود الى الكونغو ، فستكون مهمتي قيادتهم . وحاولت ان اقول له اني حجزت مكانا على الطائرة ، وان طائرتي ستقلع بعد ساعات قليلة من بيروت ، وان اجازتي السنوية استحقت لي منذ مدة . لكن همرشولد امرني بلطف ان الغي الحجز/ثم تمنى لي حظا سعيدا .

كنا مستعدين للسفر بعد ثماني ساعات . وفي هذه الاثناء ، كنت قد

سلمت قيادة هيئة مراقبة الهدنة الى مساعدي الاميركي الكولونيل ريكيرت وحذرته بان لا يسمح لاحد بالتدخل في سياسة الهيئة طيلة مدة غيابي . وقد وجدت من الضروري توجيه ذلك التحــذير للجنرال ريكيرت ، لان الرئيس الاداري الجديد في بعثتنا ، جورج جانشاك التشيكوسلوفاكي الاصل ، كان قد اظهر ميلا للاستئثار بالسلطة .

ثم تبين لنا ان الحاجة الى السفر بتلك السرعة لم يكن لها ما يبررها . وصباح الثالث عشر من تموز ارسلت اشارة لاسلكية الى نيويورك اعلمها بعدد المقاعد التي نحتاج اليها في الطائرة . فقيل لنا ان ننتظر وصول الطائرة في اليوم التالي ، اي في الرابع عشر . ولما لم اكن أعرف شيئا عن الكونغو سوى ما كنت اقراه في الجرائد وما كنت أسمعه من اخبار على الراديو لذلك قررت ان اغتنم فرصة انتظار وصول الطائرة لاتعلم شيئا عن تلك البلاد واضع نفسي في مجرى الاحداث فيها .

كانت حكومة بلجيكا قد اعلنت ، في السادس عشر من تشريـــن الاول ١٩٥٩ ، عن سياستها الجديدة في الكونغو ، وهي تتألف من شقين : الشق الاول يتعلق بانشاء حكومة كونغولية مركزية في ١٩٦٠ . والشق الثانــي يتعلق بخطة أربع سنوات يتم في اثنائها اعداد شعب الكونغو للاستقلال التام الناجز .

كانت الكونغو تتمتع بأعلى نسبة للقراءة والكتابة في افريقيا ، لكن النظام البلجيكي كان يمنع تثقيف المواطنين الكونغوليين بعد السن الرابعة عشرة . ولو وضعنا جانبا بعض الحالات الخاصة القليلة ، لوجدنا ان التعليم الثانوي لم يكــن متوفرا في الكونغو ، بالاضافة الى ان جــامعة « لوفانيوم » التي اسسها البلجيكيون في ١٩٥٤ ، لم تخرج الا ثلاثة عشر كونغوليا في مدى تسع سنوات . اما من الناحية السياسية ، فقد كان هنالك احزاب كثيرة ، لم يكن بينها حزب واحد يشمل جميع اجزاء الكونغو . ولم تكن للقومية الكونغولية اي معنى حقيقي ، لان سكان الكونغو البالغ عددهم ثلاثة عشر مليونا ونصف المليون كانوا ينتمون الى اكثر مـــن مئتي قبيلة مختلفة .

كان الكونغو ، اذن ، بحاجة ماسة الى فترة تهيؤ ، للاستقلال التام ، اذ انه كان يتألف من ست ولايات رئيسية تعتمد كلها على خبرة البلجيكيين ومقدرتهم في الادارة الحكوميــة ، وفي حفظ الامن ، وتسيــير الشؤون الاقتصادية . وكان هذا كله متمشيا مع السياسة البلجيكية العامة في ان يبقى كل شيء بأيد بلجيكية . ومع هــذا ، فلم يكن يفصل الكونغو عــن استقلاله سوى اربع سنوات .

من هنا جاءت اهمية فترة الاربع سنوات المذكورة . لكن لسوء الحظ ،

لم يتيسر لتلك الفترة ان تتحقق ، اذ انقلبت الامور راسا على عقب بين ليلة وضحاها . ذلك ان الحكومة البلجيكية اعلنت فجاة عن عزمها على اعطاء الكونغو استقلاله التام في مدة لا تتجاوز الخمسة اشهر .

فماذا كان الداعي لقرار الحكومة البلجيكية المفاجيء ؟ هل كان خوفها من مجابهة هند صينية ، أو جزائر اخرى ، في الكونغو ؟ ثم هل كان نتيجة ضغط اميركي ؟ ربما كان الدافع لذلك القرار المفاجيء الخوف ، ولا شيء الا الخوف .

وهكذا ، ففي الثلاثين من حزيران انشئت حكومة مركزية ، واعلن استقلال جمهورية الكونغو برئاسة جوزيف كوزفوبو ، وتعيين باتريس لومومبا رئيسا للوزراء .

وبعد مضي يومين على أعلان استقلال الجمهورية الجديدة ، بدأت اعمال العنف في العاصمة وفي المناطق الاخرى . وتبع أعمال العنف عصيان قوى الامن المؤلفة من خمسة وعشرين الف رجل . فطردت هذه القوى ضباطها البيض ، وسلبت الاوروبيين املاكهم، كما قتلت قسما من البلجيكيين الذين بعثوا الى الكونغو لادارة اعمالهم ، وعددهم نحو مئة الف .

هل كان الشيوعيون يقفون وراء تلك الاعمال ؟ اعتقد ان المرض الاول لعصيان قوى الامن كان حسد افرادها من السياسيين والاداريين الكونغوليين الذين تسلموا مراكز السلطة بين ليلة وضحاها واصبحوا يملكون السيارات الفخمة ويقبضون المرتبات الخيالية .

وقبل اعلان استقلال الكونغو بمدة وجيزة ، عقد الطرفان معاهدة صداقة احتفظ البلجيكيون بموجبها بقاعدتين عسكريتين . ولما كانت الفوضى تعم البلاد ، والمواطنون البلجيكيون في خطر دائم ، فقد حاولت الحكومة البلجيكية اقناع رئيس الوزراء لومومبا بالموافقة على ارسال جنود بلجيكيين لاعادة النظام في الكونغو . ولما رفض لومومبا ، انزلت بلجيكا جيشها في الكونغو فأعاد النظام الى بعض المناطق ، فيما نزحت جموع من المواطنين البلجيكيين الخائفين من الكونغو بحراسة الجيش البلجيكي . وهكذا عاد الى الكونغو عشرة آلاف جندي بلجيكي ، وتبعثرت قوى الامن المحلية ولم يعد لها وجود . واعلن مويس تشومبي ، رئيس مقاطعة كاتنغا الغنية ، استقلال كاتنغا وانفصالها التام عن الكونغو .

ولما كانت كاتنغا تسهم بنصف مدخول الكونغو ، فقد كان انفصالها كارثة كبرى على الكونغو . لكن الحكومة المركزية لم تكن في وضع يمكنها من اجبار تشومبي على العودة عن الانفصال . وفي الحادي عشر من تموز طلب لومومبا من رالف بنش ، الممثل الخاص للأمين العام همرشولد في

ليوبولدفيل ، مساعدة الامم المتحدة لاعادة النظام الى الكونغو بالاشتراك مع الجيش الوطني الكونغولي . والجيش الوطني الكونغولي هو الاسم الذي أعطي لقوى الامن الداخلي بعد الاستقلال . والجدير بالذكر هنا ان طلب مساعدة الامم المتحدة الذي اشرنا اليه ، لم يأت على ذكر البلجيكيين اطلاقا ، بل اكد عدم قدرة الجيش الوطني الكونغولي على حفظ النظام .

وفي الثالث عشر من تموز ، فيما كنا نحن في القدس ننتظر الطائرة التي ستقلنا الى الكونغو ، طلب لومومبا ، بالاشتراك مع كوزوفوبو ، مساعدة الامم المتحدة العسكرية للوقوف في وجه الاعتداء البلجيكي على الكونغو ، ومنع كاتنغا من الانفصال .

لم اكن أعلم في تلك اللحظة ان في المدة الواقعة بين طلبي الكونغو مساعدة الامم المتحدة ، كانت وزارة الكونغو قد اجتمعت بغياب لومومبا وطلبت مساعدة اميركية مباشرة . كما اني لم اكن أعلم ان لومومبا غضب عندما عاد الى الكونغو وعرف بطلب المساعدة الاميركية ، وانه سارع باستشارة السفير السوفياتي في ليوبولدفيل . فضلا عن انني لم اسمع بالبرقية التي ارسلها كوزوفوبو ولومومبا الى خروتشوف . لانني لو علمت بذلك لكنت على الاقل تحسبت للامر . لكن كيف كان لي ان اعلم بذلك ، وانا الموجود في القدس انتظر الطائرة لتقلني الى الكونغو .

وهكذا مضت ثمانية وأربعون ساعة دون ان تصلنا اشارة من نيويورك. وفي مساء الرابع عشر من تموز ، ابرقت الى نيويورك فلم أتلق الا الصمت المزعج ، خصوصا وقد علمت من نشرة الاخبار على الراديو ان مجلس الامن في نيويورك كان قد اجتمع واعطى الامين العام صلاحية ارسال مساعدات عسكرية الى الكونغو .

وفي اليوم التالي ، اي في الخامس عشر ، علمت من نشرة الاخبار على الراديو بانني عينت قائدا لقوات الامم المتحدة في الكونغو . وعلمت من المصدر نفسه ان الدول الاعضاء في الامم المتحدة استجابت فورا لطلب المساعدات العسكرية الى الكونغو ، وان غانا وتونس بدأتا فعلا بارسال قواتها ، وان القوات التي ستكون تحت قيادتي هي اكبر قوات دولية عملت تحت شعار الامم المتحدة حتى ذلك التاريخ ، بما في ذلك كوريا .

وبعد قليل ، تسربت الاخبار الى الخارج . وهي ان قائد اكبر قوات الامم المتحدة في الكونغو لا يزال مسمرا في القدس . وكانت محطة الاذاعة البريطانية تعيد اذاعة هذا الخبر ست مرات في اليوم . ولما لم تظهر طائرتنا في يوم السادس عشر ، ارسلت برقية قاسية الى نيويورك ، واتصلت على اثر تلك البرقية بالملحق العسكري الاميركي في تل ابيب ، فوعد بايجاد طائرة تقلنا الى الكونغو .

وعند ظهر ذلك اليوم وصلت طائرة نروجية ، من نوع دس٤ ، الى مطار القدس في الاردن . وعلمنا من الطيار انه بعد ان غادر مطار ايران حيث كان ينقل شحنة من الكافيار ، جاءته الاوامر بالتوجه الى القدس ، لان طائرة الخطوط السكندنافية المتوجهة الى القدس لنقل الفريق الدولي الى الكونغو تأخرت في النروج بسبب عطل طرأ على محركاتها ، وان الطائرة نفسها ، بعد ان اصلح العطل فيها ، غادرت النروج ووصلت الى اليونان . لكن قائدها اكتشف هناك ان عطلا جديدا طرأ عليها ، وان تصليحها يستغرق وقتا طويلا . واستطرد قائد الطائرة قائلا انه ينصحنا بعدم ركوب طائرته ، لان لا خرائط معه ، ولان الطائرة لا تسع سوى نصف عدد فريقنا .

وهكذا عدنا الى مقر الهيئة الرئيسية في القدس ، وكانت محطة الاذاعة البريطانية لا تزال تتكلم عن وجودي في القدس . فاتصلت فور انتهاء اذاعة الخبر بالملحق العسكري الاميركي في تل ابيب وذكرته بوعده لنا . فأجاب ان بامكانه ان يحصل لنا على طائرة من القاعدة الاميركية في ليبيا ، شرط ان نحصل على اذن من واشنطن . وللحال اتصلت باندروكوردية في نيويورك وطلبت منه ان يحصل لنا على الاذن المطلوب من واشنطن . وفي مدى وقت قصير جدا اقلعت طائرة اميركية من قاعدة ويلوس في ليبيا متجهة الى عمان لتقلنا الى الكونغو . وما ان وصلت الطائرة الى منطقة شرقي البحر المتوسط ، حتى طرأ عطل على محركاتها فاضطرت للعودة الى قاعدتها . غير ان المشرفين على القاعدة الاميركية في ليبيا ارسلوا لنا طائرة اخرى بعد ساعات قليلة . وهكذا ، ففي صباح السابع عشر ، اي بعد مضي خمسة ايام على حديثي مع همرشولد ، استطعنا التوجه الى الكونغو .

وفي الكونغو ، بدا رالف بنش سعيدا للقائي . وقال لي ان قوات غانية وتونسية وصلت الكونغو منذ بضعة ايام ، وانها تعمل بقيادة الجنرال الكسندر الانكليزي . ثم قال بنش ان قوات مغربية وصلت ذلك اليوم ، وان قوات اخرى اثيوبية كانت في طريقها الى الكونغو ، وقد وصل الفوج الاول منها .

في طريقنا من المطار الى العاصمة ، قال لي رالف بنش ان الوضع في العاصمة اصبح هادئا ، وانه ارسل قسما من قواتنا الى المدن الداخلية . وحين وصلنا العاصمة شاهدت آثار العنف ، من محلات مسلوبة ، وشبابيك محطمة ، وبنايات محروقة ، وسيارات تحولت الى ركام . ثم دخلنا اوتيل ستانلي ، مقر الامم المتحدة المؤقت .

كان البناء مهجورا . ونظر رالف بنش حوله وقال لي ان الامم المتحدة اخذت هذا المكان مؤقتا . اما جوني بيرتوم ، فقد سمعته يصرخ بموظف

الاوتيل محاولا ايقاظه ليدلنا على مكان ننام فيه . كان التعب ظاهرا على رالف بنش .

وقبل ان يغادرني الى غرفته لينام ، قال لي ان الوضع ازداد صعوبة ، وان لومومبا اخبره بانه سيطلب مساعدة الاتحاد السوفياتي اذا لم تنسحب القوات البلجيكية من الكونغو في مدة اقصاها ثمانية واربعون ساعة .

ونهضت ، بعد ان نمت ساعات قليلة ، فوجدت ان الشمس اصبحت عالقة في السماء . فتناولت فطوري في قاعة الطعام في الفندق وخرجت افتش عن مقري العام . فتبين لي فورا ان مكتبي هو غرفة نومي في الاوتيل ، وان المقر الرئيسي لعمليات قوات الامم المتحدة هو عبارة عن غرفتين متلاصقتين في الطابق الاسفل من الاوتيل . وكان من غير المعقول ان يحشد الانسان قيادة قوات الامم المتحدة في هاتين الغرفتين .

كنت اعلم بانني اذا ذهبت شاكيا الى رالف بنش فان ذلك يكون بداية خلاف بيننا . اما قال لي ان الوضع صعب ، فهل ازيد صعوبته ، خصوصا وان بنش لم ينم طيلة ليلة أمس . لكنني صممت على أن أعمل شيئا ، فاقوم بزيارة للجنرال الكسندر واسأله عن التدابير التي اتخذها ليعيد النظام الى المدينة .

كان الجنرال الكسندر الضابط الوحيد برتبة عالية . وقد مارس صلاحيات واسعة حين كنت انتظر وصول الطائرة الى القدس لتقلني الى الكونغو . لم يكن الجنرال الكسندر موظفا في الامم المتحدة ، وانما استعان به الرئيس نكروما لتنظيم جيشه . وعندما أرسل نكروما قوات غانية الى الكونغو ، جاء الجنرال الكسندر معها كممثل شخصي له .

استقبلني الجنرال الكسندر في غرفة نومه وبادرني بقوله ان السبيل الوحيد لاعادة النظام الى الكونغو هو تجريد القوات الوطنية الكونغولية من سلاحها. واضاف قائلا انه في الايام القليلة الماضية لم يجد صعوبة بالسيطرة على بعض تلك القوات وتجريدها من سلاحها . وشعرت بأن في ما يقوله كثيرا من الحقيقة ، وانه كان يعمل وعيناه على منصب اعلى ، اي مركزي . ولو كان الامر يعود لي ، لرحبت به في هذا المنصب . لكن من الواضح انه كان يجهل صعوبة الخدمة في الامم المتحدة . وقبل ان اغادره اعربت له عن املي بان نتعاون معا بالرغم من شعوري بانه في نيته ان يبقي القوات الغانية تحت قيادته .

عدت الى مقر القيادة في اوتيل ستانلي ، فوجدت رالف بنش مكبا على عمله . وفور دخولي ، قادني بيده الى مكان فيه مجموعة من الخرائط وشرح لي الاعمال التي قام بها حتى ذلك التاريخ .

كانت نظرة واحدة على الخريطة تكفي لتدلنا على صعوبة المهمة التي انيط بنا تحقيقها . تبلـغ مساحـة الكونغـو ٩٠٥،٤١٨ ميلا مربعـا ، اي اكبر من مساحة اوروبا الغربية . وهي مقسمة الى ست ولايات غنية بالالماس والنحاس والكوبلت ومناجم الاورانيوم . وقبل ثمانية عشر يوما كان الجهاز الاداري في الكونغو يسير سيرا حسنا . وكان هناك أكثر من اثني عشر مطارا ، وعددا اخر من المطـارات الصغيرة . وكانت شبكة المواصلات من طرق وسكك حديدية وبرق وبريد تربط جميع اجزاء الكونغو . لكن في اقل من ثلاثة اسابيع ، انهار هذا الجهاز انهيارا تاما بسبب هرب البلجيكيين او طردهم .

وقد شذ عن هذه القاعدة ولاية كاتنغا التي اعلنت استقلالها مؤخرا ، لانها عملت على تشجيع البلجيكيين على البقاء .

اما في ليوبولدفيل واكواتور واوريانتال وكساي وكيفو ، فقد سادتها شبه فوضى عززها انفجار الحروب القبلية وميوعة موقف القوات الكونغولية الوطنية وطموح السياسيين الكونغوليين . وكان يخيم فوق هذه الحالة كره الكونغوليين للبلجيكيين ، هذا الكره الذي زاد فيه وجود القوات المظلية البلجيكية التي كان يهدد وجودها بانفجار الوضع انفجارا لم يعلم الا الله مداه .

وقال لي رالف بنش ، والخرائط امامه ، ان على قوات الامم المتحدة في الكونغو ان تصل الى اربعة اهداف : الاول احلال قوات الامم المتحدة مكان القوات البلجيكية لحفظ النظام في الكونغو . والثاني ، ان تأخذ قواتنا مكان القوات الكونغولية الوطنية وتضع حدا لاعمالها مع محاولة بنائهـا وتحويلها الى قوات يمكن الاعتماد عليها . والثالث ، ان نجد طريقنا بانفسنا كي نتمكن من ان نتحرك حيثما نريد في الكونغو . والهدف الرابع والاخير ، ان نمنع اي تدخل خارجي من جهة واحدة في شؤون الكونغو الداخلية ، بعد ان دفعت ميول لومومبا الشيوعية حاكم الكونغو الى طلب مسـاعدة الاتحاد السوفياتي .

ثم اضاف رالف بنش قائلا ، ان البلجيكيين تعاونوا معه الى اقصى حدود التعاون ، فانسحب قسم كبير من القوات البلجيكية من ليوبولدفيل الى المطار في ندجيلي . غير ان قسما كبيرا من قوات الكونغو الوطنية ما زال في ليوبولدفيل . وقال ايضا ان طلبات النجدة من الاوروبيين الساكنين في المناطق تنهمر عليه كالسيل وانه كان يرسل قوات دولية الى المناطق كلما تيسر له ذلك .

استمعت الى رالف بنش بعطف واعجاب وبشيء من المضايقة . ذلك

لان رالف كان يعمل بدون كلل في ظروف صعبة جدا ، لكنه نشر قواتنا فوق اراضي الكونغو دون انشاء قيادة مركزية تسهل عملية القيادة والاتصال ، وهو أمر غير معقول . وبالاضافة الى ذلك ، فقد تركني حديث رالف بنش اتساءل عن مهمتي ودوري . وكان بنش قد قال اني عينت قائدا عاما لقوات الامم المتحدة في الكونغو ، وان القائد الاعلى لتلك القوات هو الامين العام داغ همرشولد ، عن طريق ممثله الخاص في الكونغو ، اي بنش .

بعد ذلك الحديث المقتضب ، اصبح من الصعب جدا علي أن أجد لحظة أتكلم فيها مع رالف بنش . لم أر ذلك الجانب من رالف بنش من قبل . وفي الاسابيع التالية ، كثيرا ما كان ذلك الجانب يثير غضبي الى حد الهستيريا . كان رالف بنش يولي اهتمامه كل شيء . وكان يهتم شخصيا بكل مكالمة تلفونية ، وبكل رسالة ، وبكل اشارة ، وبكل زائر ، وبكل ورقة تخرج من مكتب الى اخر ضمن البناء .

كان افضل شيء يمكن ان اعمله في ذلك الوقت هو ان اتصل بقواتنا . فذهبت فورا الى جهاز اللاسلكي فوجدت اننا لم نكن نملك واحدا . واخيرا ، قادني ضابط الاتصالات في قواتنا الى جهاز تلفوني في الاوتيل وقال لي ان هذا هو وسيلة اتصالنا الوحيدة مع الخارج .

# الفصل الثاني عشر

دعيت صباح ذات يوم لحضور مؤتمر بيننا وبين السلطات البلجيكية ، انعقد في مكتب رالف بنش بحضوري وحضور السفير البلجيكي في الكونغو ، جان فان دان بوش والجنرال غيسان قائد القوات البلجيكية في الكونغو . كان البلجيكيون في موقف لا يحسدون عليه ، اذ كانوا يعلمون ان هدف المؤتمر هو مطالبتهم بسحب قواتهم التي جاءت لتحافظ على البلجيكيين . ثم انهما كانا يعلمان ان عليهما ان يسلما القاعدتين الحربيتين اللتين اعطيتا الى بلجيكا بموجب معاهدة الصداقة التي عقدت قبل اعلان الاستقلال ، والتي رفض البرلمان الكونغولي ابرامها بعد الاستقلال . وفوق هذا وذاك ، كانا يعرفان بان لومومبا هدد بطلب مساعدة الاتحاد السوفياتي اذا تلكأت الامم المتحدة في اخراج القوات البلجيكية من الكونغو .

اقول الان بكل صراحة انني شككت في حكمة سحب القوات البلجيكية من الكونغو قبل وصول قواتنا . اما فيما خص القاعدتين ، فكنت ارى في سحب القوات البلجيكية والفنيين البلجيكيين منها ، ضربا من الجنون ، ذلك لان قواتنا ستكون بحاجة الى هاتين القاعدتين وليس هنالك فنيون كونغوليون او دوليون للاشراف على سيرهما .

وبالرغم من هذا كله ، كان المؤتمر ناجحا . فوافق السفير البلجيكي على سحب القوات البلجيكية ، مبدئيا ، على ان تصبح القوات الدولية قادرة على حماية البلجيكيين . وقد عينا يوم الثالث والعشرين من تموز موعدا لانسحاب القوات البلجيكية من الكونغو . وشعرت بالانفراج الذي بدا على رالف ، اذ ان هذا الاتفاق زاد موقفه قوة تجاه لومومبا والحكومة المركزية .

وقد أوتي اعلان ذلك الاتفاق ثماره . ففي مدى ثمانية واربعين ساعة أمر الجنرال موبوتو القوات الكونغولية الوطنية بتسليم سلاحها . فاستجاب قسم كبير من تلك القوات لهذا الامر ، فيما هرب القسم الباقي مع اسلحته وذخائره الى الادغال . وقد عمل اعلان ذلك الاتفاق على تحسين علاقة قواتنا بالقوات الكونغولية الوطنية ، فاصبح التعاون بين القوتين قويا بحيث اننا كنا في كثير من الاحيان نستعمل جهازاتهم اللاسلكية .

لكن حادثة وقعت ، لسوء الحظ ، في أوتيل ريجينا وضعت حدا لتلك العلاقة الطيبة واثارت سلسلة من رد الفعل البغيض . كان سبب تلك

الحادثة ان وزيرا في الحكومة الكونغولية دخل اوتيل ريجينا ومعه فرقة من القوات الكونغولية الوطنية وشرع بتفتيش الاوروبيين في الاوتيل . وصدف ان كان في تلك اللحظة العقيد أوتو من فرقة غانا في القوات الدولية ، فرأى جنديا من القوات الكونغولية يضرب اوروبيا ضربا مبرحا . وعلى الفور ، قفز العقيد اوتو من مكانه وامسك بالجندي الكونغولي وجرده من سلاحه وارسله الى ثكنته .

وقع خبر تلك الحادثة وقوع الصاعقة على لومومبا الذي أستبد بـه الغضب فأرسل في طلب العقيد اوتو فورا واخبره انه لن يسمح بعد ذلك اليوم لقوات الامم المتحدة بأن تجرد القوات الكونغولية من سلاحها ، ولا شك في ان العقيد اوتو نقل كلام لومومبا الى رئيسه الجنرال الكسندر ، فقرر هذا الاخير ان الوقت قد حان للتصرف بطريقة غير مستقيمة .

جاء الى الجنرال الكسندر وعرض علي السمـــاح له بان يطير الى نيويورك لاقناع همرشولد بان مستقبل الكونغو يعتمد على تجريد القوات الكونغولية من سلاحها تجريدا كاملا . فاذا لم نفعل ذلك ، تفقد الامم المتحدة سمعتها في الكونغو ، وتعجز قواتنا من القيام بالمهمة التي انيطت بها ، فتقع حرب اهلية لا محالة . ولما كان رالف بنش لا يفهم الوضع على هذا النحو فان الحل ، في راي الكولونيل الكسندر ، يجب ان يأتي من نيويورك .

لا شك في ان تفكير الجنرال الكسندر كان صحيحا من الناحية العسكرية على الاقل . ولما لم يكن لدي اعتراض على ذهابه الى نيويورك ، فقد وافقت مع علمي بان ذهابه لن يجدي نفعا ، وان نيويورك لن توافق على مقترحاته. ولو كنت أعلم انه سيعقد مؤتمرا صحفيا في لنـــدن ، وهو في طريقه الى نيويورك ، لكنت ترددت بالموافقة على ذهابه . وقبل ان يغادر الكونغو ذهبت بصحبته الى السفير الاميركي فعرضنا عليه فكرة ارسال الجنرال الكسندر الى نيويورك ، فوافق السفير فورا ووعد بتدبير أمر سفره .

كانت الاوضاع التي كنا نعمل فيها اشبه بالكابوس اذ كانت الازمات تنفجر بقوة وبسرعة ، وكانت استغاثات البلجيكيين في مختلف انحاء الكونغو تنزل علينا كالمطر . لكننا ، مع هذا ، تمكنا من القيام بعمليات استدعت اكثر من ستة آلاف جندي . وهي اصعب مهمة قمت بها في حياتي . ولم نستطع ان نضع اي تصميم ، لاننا لم نكن نعلم مسبقا عـــدد الوحدات العسكرية الدولية المنتظر وصولها الى الكونغو، ولا قوة الوحدة، ولا تنظيمها، ولا نوع الاسلحة الموجودة لديها ، حتى ولا موعد وصولها . كل ما كنا نعلمه هو ان الطائرات انزلت وحدات عسكرية جديدة في مطار ليوبولدفيل .

اضف الى هذا انني لم استطع ان اقول لقادة الوحدة العسكرية ، عند

وصولها الى الكونغو ، ما كان ينتظرهم في الداخل . كل ما استطعت ان اقول لهم هو ان ينسوا كل ما تعلموه في فن القيادة والامدادات العسكرية ، وان يعتمدوا على المبادرة والحزم والعقل . وكان من الطبيعي ان يريد كل منهم معرفة السلطات الكونغولية التي يمكنه ان يتعاون معها ، والتمييز بين الحكومة المركزية والحكومات المحلية ، والصلاحية التي لديهم لتجـريد العناصر المتمردة في القوات الكونغولية من اسلحتها . وكان كل منهم يريد ان يعرف اذا كانت السلطات الكونغولية مخولة بتوقيف اي شخص يخطر لها توقيفه .

واذا كان رالف بنش لم يتخذ موقفا حيال تلك القضايا ، فلم يكن لدي ما انصحهم به سوى الاعتماد على العقل والحنكة .

في الايام الاولى لعمليات الامم المتحدة في الكونغو ، كان على قادتها في المناطق ان يعملوا تحت ظروف صعبة جدا . ولم يكن هناك شبكة اتصالات لاسلكية يستطيع بها هؤلاء القادة الاتصال بمركزنا الرئيسي في ليوبولدفيل . فكانوا في اكثر الاحيان يعتمدون على انفسهم لمواجهة الازمات وقد تغلبوا على الكثير منها .

ومن حسن طالعنا اختيار وحدتين عسكريتين من قواتنا تمكنتا من السيطرة على وضعين صعبين جدا في منطقتين مختلفتين . كانت الاولى ستانليفيل ، عاصمة ولاية اوريانتال وقاعدة اتباع لومومبا ، حيث سادت الفوضى واعلنت القوات الكونغولية عصيانها ، وفكرت حكومتها المحلية انشاء ولاية مستقلة ، ربما بتشجيع من الشيوعيين الذيـن تسللوا الى ستانليفيل في الشهرين الاخيرين . وقد ارسلنا الى تلـك المنطقة وحدة عسكرية بقيادة الجنرال الاثيوبي اياسومنغاشا ، فاستطاع السيطرة على الوضع بالرغم من الصعوبات التي كانت تواجهه .

اما المنطقة الثانية التي لا يقل الوضع فيها صعوبة عن الاولى ، فقد كانت ثيزفيل ، البلدة التي تبعد نحو ثمانين ميلا عن العـاصمة المركزية ليوبولدفيل ، حيث وصلت وحدة عسكرية مغربية بقيادة الكولونيل بن عمر ادريس الذي حارب مع الفرنسيين في الهند الصينية قبل ان ينـال المغرب استقلاله . كانت مهمة بن عمر ادريس ، ذات شقين : الشق الاول اعادة الهدوء الى ثيزفيل ، والثاني التوجه من هناك الى مرفأ متادي ، حيث قتل كثير من البلجيكيين وسادت الفوضى . وبمدة وجيزة جدا سيطر الكولونيل بن عمر ادريس على مدينة ثيزفيل ، ثم توجه مع وحدته الى متادي فسيطر عليها ايضا . وكان مرفأ متادي حيويا بالنسبة لنا ، لا لاعادة الهدوء والتغلب على الفوضى فحسب ، بل لانه كان المرفأ الوحيد لامداد قوات الامم المتحدة في الكونغو عن طريق البحر .

كانت اوامرنا صريحة جدا ، وهي عدم استعمال القوة الا في حالات الدفاع عن النفس ، وان لا نخرج عن تلك الاوامر مهما بلغت خطورة الوضع. وكان كل جندي يعرف ان اوامر كهذه تضع القائد وجها لوجه امام مشكلة اخلاقية حادة ، هي هل يعرض القائد حياة جنوده للخطر ويزجهم في اوضاع تؤدي الى اطلاق النار عليهم قبل ان يتمكنوا من الدفاع عن انفسهم ، ام هل يعرض المهمة التي انيط به تنفيذها للفشل ، باحجامه عن زج جنوده في اوضاع خطرة ، علما بان الفشل قد يقضي على الكثير من المدنيين ؟

لم تواجه قوات الامم المتحدة تلك المشكلة من قبل . غير ان الكولونيل بن عمر ادريس ابتدع حلا لها .

فهو عندما وجد جنوده ، فجأة ، وجها لوجه امام جمهور من المشاغبين الكونغوليين الذين كانوا على وشك اجتياح فرقته ، طلب عريف الفرقة من الجماهير ان يتراجعوا . ولما لم يحصل على نتيجة ، أمر جنوده باطلاق النار عليهم ، فتفرق المشاغبون فورا بعد اطلاق ثلاث رصاصات فقط ادى احداها الى مقتل كونغولي واحد . غير ان العريف الذي اعطى الاوامر باطلاق النار وجد نفسه امام محكمة عسكرية قضت عليه بالاعدام . فنشر الخبر بين الكونغوليين ومراسلي الصحافة الاجنبية للدلالة على ان الامم المتحدة صارمة في تطبيق قوانين حفظ السلام . وفيما وضع عريف الفرقة في السجن ، كان قائده الكولونيل بن عمر ادريس يرفع تقريرا بالحادثة الى الملك محمد ، ملك المغرب ، بصفته القائد الاعلى للقوات المغربية . وجاء رد القصر الملكي من المغرب بالعفو عن العريف ، وبترقية درجته ، وباعطائه وسام استحقاق .

في تلك المرحلة كانت اعمال العنف ضد قواتنا قليلة جدا . اذ ان الكونغوليون كانوا يمدون يد المساعدة الى قواتنا حالما يعلمون بانها ليست قوات بلجيكية .

وكان أمر استقبال القوات الجديدة وتزويدها بالمعلومات اللازمة عن الوضع ، واستخدامها ، وامدادها بالمؤن والذخائر ، قد وضع حملا ثقيلا جدا علينا في اوتيل ستانلي . ولم يكن لدي موظفون يساعدونني ، او حجاب ، او حتى حارس يمنع دخول كل طارق الى غرفة نومي — مكتبي . وقد منعني هذا من ان اضع خططا طويلة الامد ، فكان علينا ان نبتدعها عند الحاجة .

وكان جهاز المواصلات اللاسلكية عندنا عديم الجدوى ، مما جعل امداد وحداتنا داخل الكونغو يعتمد على التخمين . وكانت المعلومات الوحيدة التي تصلنا عن وحداتنا المختلفة يأتي بواسطة رسول افريقي ،

واحيانا اوروبي ، واذكر ما انتابني من غضب ، في أحد الايام ، وانا في مكتب رالف بنش ، عندما أعلن رئيس فرع المواصلات أنه تمكن من انشاء اتصال لاسلكي بالعالم الخارجي . لكن غضبي ذهب سدى ، لان رالف بنش وضابط اللاسلكي معه ، لم يكن باستطاعتهما ادراك حاجتنا الى جهاز لاسلكي داخلي للاتصال بوحداتنا في الكونغو ، وهي مسألة كانت بنفس الاهمية التي كانت لاتصال مكتب رالف بنش بالعالم الخارجي ، وان لم يكن اكثر . ولم يكن قسم الادارة في نيويورك يدرك ايضا حاجتنا الى وضع حد لتلك الفوضى السائدة آنذاك ، وكان أفضل مثال عنها مطار ليوبولدفيل .

كنت قد ذهبت الى المطار لاستفسر عن وصول وحدة عسكرية من غينيا . وكنا ننتظر وصولها عما قريب ، فلاحظت ان العقيد الانكليزي الذي جاء مع فرقة غانا ، والذي كان مسؤولا عن المطار في ذلك الوقت ، منزعجا ، ومتوتر الاعصاب . وعندما سألته عن السبب ، أجابني بان الموظف الفني البلجيكي ، وهو الوحيد الذي يشرف على برج المراقبة في المطار ، قرر مغادرة البلاد ، غدا ، والاحتفال بقراره هذا بالسكر . وها هو الان سكران في برج المراقبة في المطار . وكنا ننتظر وصول الطائرة بعد ساعة على الاكثر ، كما كنا نتوقع وصول طائرات عديدة الى المطار في الايام الثلاثة القادمة .

فطلبت من العقيد الانكليزي ان يأخذني فورا الى برج المراقبة . وهناك وجدت البلجيكي في حالة السكر الشديد ، لا تنفع معها القوة ولا الاقناع . فخرجت من برج المراقبة ، ولم اكد أنزل درجة السلم حتى التقيت طيارا كنديا اعرفه معرفة جيدة . فطلبت منه ان يأتيني بشخص من الطائرة الكندية يتقن العمل على اجهزة برج المراقبة . وقد تطوع الكندي بالبقاء معنا في برج المراقبة حتى نتمكن من ايجاد بديل له ، فيما كانت طائرته تنتظره في المطار .

وهكذا بقينا مدة نستعين بخبير فني من هنا ، وآخر من هناك ، للعمل في غرفة المراقبة في المطار ، قبل أن ترسل لنا مؤسسة الطيران الدولية خبراء يتولون العمل بصورة دائمة . ومما زاد في صعوبة الامر اننا كنا قد استبقينا فريقا من الموظفين البلجيكيين للعمل على المطار . وكان الكونغوليون يعتقدون ان هؤلاء هم من القوات المظلية البلجيكية . فكنا في كل لحظة نرى وزيرا كونغوليا او جنرالا يقود القوات الكونغولية الوطنية ويتجه نحو المطار للقضاء عليهم ، مما اضطرني ان اضع فرقة من الحرس السويدي حول المطار . وفي اليوم التالي زارني قائد القوات الكونغولية الوطنية ، فيكتور لوندولا ، وقال لي ان الامم المتحدة ، تتعاون مع الاستعماريين البلجيكيين وان الامم المتحدة وضعت حرسا من قوات المظلات البلجيكية حول المطار . وعبثا حاولت اقناعه بان هؤلاء ليسوا مظليين بلجيكيين ، بل جنود سويديون في خدمة الامم المتحدة يقومون بحراسة المطار .

ولم يمض وقت طويل على وجود قوات الامم المتحدة في الكونغو ، حتى علمنا بان بعض الدول الافريقية ، كغانا وغينيا ومالي ثم الجمهورية العربية المتحدة ، كانت مهتمة جدا باستمرار حكومة لومومبا . وكانت تلك الدول تمطر همرشولد في نيويورك برقيات تتضمن مقترحات سياسية وعسكرية ، على رالف بنش وعلي ان نتبعها في الكونغو . وكانت خلاصة تلك المقترحات ان على قوات الامم المتحدة في الكونغو ان تعمل على منع استقلال كاتنغا وطرد البلجيكيين الذين يقفون وراء تشومبي . وكان من الطبيعي ان تتجاهل الامم المتحدة هذه المقترحات ، لان سياسة الامم المتحدة ، كما نص عليها قرار مجلس الامن ، قضت بان لا تتدخل قوات الامم المتحــدة في شؤون الكونغو الداخلية ، وان لا تكون اداة للتأثير على نتيجة اي صراع داخلي . وقد وعينا خطر وجود قوات دولية تنتمي الى دول لها مصلحــة مباشرة بشؤون الكونغو الداخلية . لذلك عندما وصلت وحدة عسكرية غينية تحمل اسلحة ثقيلة ، خلافــا لما اوصت به الامم المتحــدة ، ارسلتهــا الــى منطقة داخلية بعيدة ، تجنبا للخطر الذي كان يمكن ان يقع .

لكن ما كادت الفرقة الغينية تتحرك باتجاه الداخل ، حتى وصلني طلب مستعجل من السفير البلجيكي بانقاذ خمس وثمانين بلجيكيا وقعوا في ايدي بعض جنود القوات الكونغولية الوطنية في « واطسا » من ولايــة اورينتال وتبعد نحو ألفي ميل عن ليوبولدفيل . ولم يكن بمقدوري ان أفعل شيئا ، بالرغم من أن طلب السفير البلجيكي كان مستعجلا ، بالاضافة الى صعوبة ترك أولئك البلجيكيين يموتون موتا شنيعا . كانت واطسا اقرب الى اثيوبيا منها الى ليوبولدفيل ، فخطرت لي فكرة نفذتها فورا ، وهي ان استخدم جهاز رالف بنش اللاسلكي الذي يربطه بالعالم الخارجي ، للاتصال بهمرشولد في نيويورك طالبا اليه اقناع الامبراطور هيلاسلاسي بارسال قوة اثيوبية الى واطسا بالطائرة وهكذا كان .

ورأينا في اوتيل ستانلي ان ما فعلناه كان ناجحا ورائعا من النــاحية العسكرية . لكن البلجيكيين رأوا غير ذلك ، اذ قدمت بروكسيل احتجاجا شديد اللهجة لهمرشولد ولرالف بنش .

## الفصل الثالث عشر

اكتشفت من البداية ان آراء رالف بنش في ادارة قواتنا والاشراف عليها تختلف جذريا عن آرائي . وان كنا لم نصطدم واحدنا بالاخر ، عاجلا ، فأننا كنا سنصطدم آجلا . ذلك ان رالف كان يتدخل في الشؤون اليومية لقواتنا . ووجدت ان رغباته كانت تصل مباشرة الى وحدة القوات الغانية بواسطة بريان اوركوهارث ، دون استشارتي بالامر ، او حتى اعلامي به. وكنت أجهل الاجراءات التي كان رالف بنش يتدارسها . وكانت رغبته في التدخل بالشؤون العسكرية تمنعني من انشاء قيادة قوية موحدة . وهكذا كنت في موقف حرج جدا ، اذ ان الامم المتحدة حددت سلطتي بوضوح تام ، وهي انني مسؤول امام همرشولد عن قوات الامم المتحدة في الكونغو ، عبر ممثله الخاص ، رالف بنش . وبكلام آخر كنت مسؤولا امام رالف بنش ، وكان هو صاحب السلطة التي تخوله ان يأمرني كيف واين استعمل قواتنا . وهذا وضع جديد يختلف تماما عن وضع قوة الطوارىء الدولية في غزة . اذ كان لقائدها السلطة الكاملة . على ان الوضع في غزة يختلف تماما عما كان عليه في الكونغو ، لان المشاكل السياسية في الكونغو كانت جديدة على الامم المتحدة ، مما اوجب وجود توجيه سياسي مدني . وهو امر لا خلاف عليه مطلقا . غير ان من يريد ان يتحمل ، بنجاح ، عبء العمل المدني وعبء العمل العسكري معا ، لا بد له من ان يكون حائزا على معرفة واسعة في هذين الميدانين . ولم يكن رالف بنش ، لسوء الحظ ، يعرف شيئا عن الشؤون العسكرية ، كما انه لم يكن قادرا على ان يفهم ان القوة العسكرية التي لا تعمل تحت قيادة موحدة لن تنجح .

كنت اعطف على رالف بنش واشعر معه للمواقف السياسية الصعبة التي كانت تواجهه ، خصوصا اني كنت قد واجهتها بنفسي . ففي صباح ذات يوم من تموز ، اصطحبني بنش معه لحضور اجتماع حكومي رئسه انطوان جيزنغا لغياب لومومبا عن البلاد . وفي هذا الاجتماع شهدت الجهد الذي بذله بنش لحمل الحكومة على التعاون معه . كان التلفون يرن فيلتقطه جيزنغا ، تاركا بنش في منتصف حديثه . وكنت جالسا بالقرب من جيزنغا اسمع صوت امرأة على الطرف الاخر من التلفون . وكان هذا الصوت لا يتغير في كل مكالمة ولم اشك ابدا ان تلك المرأة كانت مدام بلوين ، وهي التي

كنا نعرفها باسم « العنكبوت الاسود » واحيانا « العنكبوت الاحمر » ، والتي كانت تقــوم بدورين ، دور خليلـــة نائب رئيس الوزراء جيزنغا ، ودور مستشاره السياسي .

وكان أعضاء الحكومة الاخرون يجدون في انشغال جيزنغا على التلفون فرصة لاثارة الجدل فيما بينهم . وكان واضحا من ذلك الجدل ان مسألـة الانفصال مشكلة حقيقية . وقد دام هذا المشهد بضع ساعات ، عدت بعدها الى الاوتيل ، وكلي شعور بان النية الحسنة والحكمة غير متوفرين اطلاقا عند سياسيي ليوبولدفيل ، وان هذه المخلوقات وجدت نفسها فجأة في سدة السلطة تتنازعها الاهواء الشخصية والمنازعات الاقليمية . وكم كنت اشك في قدرتنا على القيام بما يخفف من حدة كرههم المتصاعد لنشاط الامم المتحدة في الكونغو ، هذا البلد الذي كان يجلس على فوهة بركان من الحقد على البلجيكيين ، ومن العـــداء لقوات الامم المتحدة ، ومن المشـــاكل القبلية والحركات الانفصالية . وفوق كل شيء من عصيان القـــوات الكونغولية الوطنية .

وكم كنت أشعر بارتياح عظيم لوجود اسلحـــة القوات الكونغولية الوطنية وذخائرها في ايدينا . وكان رالف يعتقد بخلاف ما كنت أعتقد ، ان مشكلة الكونغو هي مشكلة سياسية في جوهرها ، وان حلها يحل المشكلة العسكرية . اما انا فكنت اعتقد ان من المستحيل اعادة الهدوء والنظام الى الكونغو الا عن طريق القوة العسكرية . وهكذا كان كل منـــا ينظر الى الموضوع من زاوية مختلفة . لكنني لم افقد املي بوجود نقطة التقاء تجمع فيما بيننا . الا ان علاقتنا ، لسوء الحظ ، لم تكن ودية في الكونغو . فقد اخذت من البداية ، انطباعا عن ان حب رالف بنش للانسانية ، وايمانه العميق بدور الامم المتحدة في توطيد السلام ، وانشغاله في ايجاد حلول سياسية لمعالجة كل وضع سيء ، كان يصرفه عن رؤية الحقيقة المجردة الماثلة أمام عينيه . واذكر انني جلست مرة ، لساعات ، أقنعه بأن جدول الانظمة التي وضعها اساسا لتصرفات قوات الامم المتحدة ، في الكونغو لم تكن ذات قيمة ، لان الجندي لا يفكر بها في ساعة القتال . لكن رالف بنش لم يقتنع . ولعله كان يفعل لو وضعته التقادير ، كما تضع الجندي ، أمام جمهور معاد يتحفز للانقضاض عليه .

اما قادة قواتنـــا العسكريون ، فكم سعـــدت بمقـــدرتهم وخبرتهم العسكرية . اذكر منهم الجنرال بن حمو كتاني المغربي ومساعده الكولونيل بن عمر ادريس ، كما اذكر العقيد جو ميشيل من قوات غانا ، والكولونيل لسمر قائد القوات التونسية وغيرهم .

غير ان الامر كان بخلاف ذلك في القيادة الرئيسية في ليوبولدفيل ، حيث

كانت المسؤوليات السياسية والمسؤوليات العسكرية متشابكة يسودها شيء من الفوضى ، مما منعنا من وضع سياسة حازمة واضحة . فمن الناحية النظرية ، كانت قوات الامم المتحدة في الكونغو تتألف من ثلاثة اقسام ، القسم السياسي والقسم المدني والقسم العسكري . اما في الواقع، فكان رالف بنش هو المسؤول عن الناحية السياسية ويشرف في الوقت نفسه ، على القسمين ، المدني والعسكري ، مع انه كان في القسم الذي ارئسه موظفون ملحقون بي ، وموظفون ملحقون بالقسم المدني الذي كان يرئسه سويدي آخر ، هو الدكتور « ستور ليز » .

ولم يكن في نية رالف ، كما ادركنا من البداية ، ان يتيح لنا فرصة تنظيم مركز عملنا . فبدأ باصدار الاوامر مباشرة الى وحدة قوات غانا ، ثم استفحلت به العادة فصار يصدر الاوامر مباشرة للوحدات الاخرى . وكانت المشكلة من اساسها تنحصر في وجود جهاز اللاسلكي في مكتبه دون سواه من المكاتب . وعبثا حاولت افهامه ان العمل بنجاح يستحيل على اية قوة عسكرية تحت قيادة مزدوجة .

لم يكن رالف يستجيب ابدا لطلباتي العسكرية الملحة الحيوية لعمل قواتنا في الكونغو . الا انه كان يلح علي بان اجلس معه ، ساعات طويلة ، وهو يخاطب نيويورك طالبا معدات للقوات التي كانت تأتي الى الكونغو ، بالرغم من انه كان يعلم مثلي بان نيويورك لم تكن تقدر اهمية تلك الطلبات ، وان قسم الخدمات والادارة في « قصر الزجاج » لم يكن يقدر مدى حاجتنا لها . وكانت الامور تزداد تعقيدا ، لان بنش كان يتخذ قرارات لا علاقة بها بحاجات قواتنا الملحة . ومثال على ذلك انه قرر نقل مقرنا من اوتيل ستانلي الى بناء آخر يتألف من ثمانية طوابق ويخترقه سلم لا يتسع لمرور شخصين . ولم يكن ذلك البناء ملائما اطلاقا . ذلك انه لو قدر لزمام الامن ان يفلت من ايدينا في مدينة ليوبولدفيل ، لوجدنا انفسنا في فخ يسهل القضاء علينا فيه . وعندما أبديت وجهة نظري هذه ، وعارضت نقل مقرنا اليه ، وجدت ان بنش كان قد استأجره وانهى الامر .

كنا في ذلك الوقت ننتظر وصول همرشولد بين يوم وآخر . ولما كانت اجراءات الامن في اوتيل ستانلي غير كافية لتؤمن حراسة فعالة له ، فقد طلبت الانتقال فورا الى البناء الجديد ، لان تأمين الحراسة لهمرشولد من هناك افضل واسلم .

ووصل همرشولد الى ليوبولدفيل في الثامن والعشرين من تموز ، بطريق بروكسل ، حيث اجرى محادثات مع الحكومة البلجيكية حول كاتنغا . ولم يكن وقت زيارته مناسبا ، اذ ان علاقة الحكومة الكونغولية بالامم المتحدة كانت في أوج توترها . وكان لومومبا في اميركا يطلب مساعدتها . لكن اميركا،

بالرغم من معاملتها له كضيف شرف ، افهمته بصراحة انها غير مستعدة لتقديم اية مساعدات للكونغو عن غير طريق الامم المتحدة . وهكذا عـاد لومومبا في تموز الى الكونغو ، مقتنعا بان الامم المتحدة غير مستعدة للقيام بالعمل الذي يريدها ان تقوم به ضد البلجيكيين في كاتنغا . لذلك قرر ان يطلب المساعدة من الاتحاد السوفياتي .

ما ان وصل داغ همرشولد حتى كانت جموع الكونغوليين والموظفين في استقباله . فاستعرض حرس الشرف ثم انهمك في المحادثات وقراءة التقارير عن الوضع ، الى ان ظهر عليه التعب . ومع هذا ، فقد سألني عن سير الامور ، فلم أرد أن اضيف مشاكلي الى ما كان عنده من مشاكل . لذلك اجبته اننا نقوم بكل ما بوسعنا لانجاح مهمتنا . فبدا على وجهه الامتنان ، لانني لم أمطره بوابل من الشكاوى . ثم التفت الي مرة اخرى وقـال : « أتذكر برقيتي اليك ؟ »

فأجبته بالايجاب . وكان يعني تلك البرقية التي بدأها بقوله : « انا أعلم بانك تتمتع بروح رياضية ... » ثم أضاف قائلا لي : « يا الهي . هذه المهمة هي اكثر المهام التي قمنا بها جنونا . لا يعلم الا الله الى أين ستنتهي بنا . كل ما يمكنني أن أقوله لك هو ان أمرها لم يكن في يدي . »

# الفصل الرابع عشر

عرف عن جوزيف كازافوبو ، رئيس جمهورية الكونغو ، وملك لاسا كما يلقبه مؤيدوه ، انه كان يحب المظاهر والمراسم . وقد رأينا منها الكثير ، عند زيارتنا الاولى له . وكان كازافوبو خصما عنيدا للومومبا قبل الاستقلال لكنهما تعاونا في فترة الاستقال واتخذا موقفا واحدا آزاء مسألة كتانغا.كان موقف كازافوبو منا واضحا منذ الوهلة الاولى . لم اشترك في الحديث الذي دار بينه وبين همرشولد ورالف بنش ، غير انني لاحظت ان همرشولد كان منزعجا من الطريقة التي عبر بها كازافوبو عن قلق الحكومة المركزية وخيبتها من تقصير الامم المتحدة في الدخول الى كاتنغا وطرد البلجيكيين منها . كما كان يعرف ، بحق ، ان البلجيكيين كانوا وراء انفصال كاتنغا . وكان ، كلومومبا ، يتوقع تدخلا فعليا من الامم المتحدة . لكنهما اصيبا بخيبة مريرة.

واستمعت الى همرشولد يعبر عن تفهمه للوضع واهتمامه به ، ويحث كازافوبو على الصبر ، لان مسألة كاتنغا لا يمكن حلها الا بالتأني . وعبثا حاول همرشولد بطريقته اللبقة التي كنت أعرفها جيدا ان يقنع كازافوبو بوجهة نظره . لكن قبل انتهاء المحادثات اتفق الجانبان على أن يؤلف كازافوبو لجنة وزارية تعمل مع قوات الامم المتحدة ، على ان تعقد أول اجتماع لها في اليوم التالي بحضور همرشولد .

وعند ارفضاض الاجتماع ، دعانا كازافوبو لحضور عشاء رسمي يقيمه في قصره ، مساء ذلك اليوم ، على شرف الامين العام .

وفي صباح اليوم التالي حضر همرشولد اول اجتماع للجنة الوزارية برئاسة جيزنغا . الا ان هذا الاجتماع ، كالاجتماع السابق مع رئيس الجمهورية ، لم ينجح . ذلك ان الحرص والصبر اللذين كان همرشولد يدعو اليهما ، صفتان لا يرغب الكونغوليون فيهما . وهكذا استمروا على الضغط ، ليحملوا همرشولد على اقرار تدخل قوات الامم المتحدة في كاتنغا .

لم اعرف ما دار في الاحاديث التي كان همرشولد يعقدهامع اللجنة الوزارية . غير ان نتائجها انعكست على احاديث همرشولد معي حول النتائج التي يمكن أن تترتب على دخول قوات الامم المتحدة كاتنغا . ولسوء الحظ ، لم نكن نعلم اي نوع من الاستقبال ستجد قواتنا في كاتنغا . فضلا

عن ان الصلاحيات التي أعطاها مجلس الامن لهمرشولد لم تكن تسمح لنا بان نلم بالموقف العسكري الماما واقعيا ، اذ لم يكن من حقنا ان نتدخل في شؤون كاتنغا الداخلية . فدخول كاتنغا اذن كان يجـب ان يتم بالضغط السياسي . وكان همرشولد قد حصل على تأكيدات من الحكومة البلجيكية ان القوات البلجيكية لن تعارض دخولنا كاتنغا .

وفي هذه الاثناء ، كانت الحكومة المركزية الكونغولية تمارس ضغطها باستمرار على همرشولد كي تدخل قواتنا ولاية كاتنغا . اضف الى هذا ، ان كتلة الاتحاد السوفياتي وبعض الدول الاخرى كانت تقوم بحملة عنيفة ضد همرشولد في نيويورك .

وفوق هذا وذاك ، كان خطر تدخل الاتحاد السوفياتي يزداد يوما بعد يوم ، كما كان لومومبا على استعداد للترحيب بهذا التدخل الذي لو قدر له ان يحصل لوضع نشاط الامم المتحدة العسكري في الكونغو ، في فوضى شديدة .

قلت لهمرشولد ان دخول كاتنغا ، يتطلب ست فرق عسكرية مجهزة تجهيزا كاملا ، وهذا غير متوفر لدينا . اضف الى ذلك ان جهاز الامم المتحدة لامداد تلك الفرق في حال وجودها لا يفي بالغرض . فوافق همرشولد على قولي وسألني عما اذا كانت القوات الموجودة لدينا تكفي لدخول كاتنغا ان لم يعترضها تشومبي . فأجبته بأن ثلث القوات الموجودة لدينا يكفي في مثل حال كهذه .

وبالرغم من هذا الانذار ، طلب مني ان اضع خطة عسكرية لدخول كاتنغا على اساس ان تشومبي لن يعارض دخولنا . وكانت الخطة التي وضعتها مع مساعدي تقضي بأن ننقل بعض وحداتنا العسكرية المختارة الى حدود كاتنغا .

وفي تلك الايام القليلة الصعبة لم ار همرشولد كثيرا . كان يتنقل من اجتماع الى اجتماع ، في جو متوتر تدهورت فيه علاقاتنا بالحكومة المركزية من سيء الى اسوأ . وأذكر ان جيزنغا في احدى المناسبات الاجتماعية ، في ٣٠ تموز ، انفجر في وجه همرشولد واتهمه بتجريد الكونغوليين من اسلحتهم التي يستعملونها للدفاع عن وطنهم ضد البلجيكيين المعتدين .

واخيرا قرر همرشولد ، تحت الضغط المستمر ، ان تدخل قواتنا كاتنغا . فأعلن في الثاني من آب ان رالف بنش ، تصحبه طليعة قوات الامم المتحدة ، سيصل اليزابتفيل بعد ثلاثة أيام . وكم ازعجني ، في اليوم التالي قولهم ان قواتنا ستدخل كاتنغا بالقوة اذا اقتضت الحال . لكن همرشولد ، لحسن الحظ ، رفض ان يوافق على طلب الحكومة المركزية بارسال بعض

وزرائها الى كاتنغا بصحبة رالف بنش وقواتنا الطليعية ، مما ازاح عن طريقنا بعض العقبات .

اثار تصريح همرشولد عن عزم قوات الامم المتحدة على دخول كاتنغا ، عاصفة في اليزابتفيل . كانت حكومة تشومبي مقتنعة بان دخول قواتنا كاتنغا يعني نهاية استقلالها . وأمطرت كاتنغا دول اوروبا الغربية ببرقيات تعارض فيها دخول القوات الدولية ، وارسلت وفودا لتشرح وجهة نظرها في باريس ولندن ونيويورك . اما على الصعيد الداخلي ، فقد اعلن وزير الداخلية التعبئة العامة ، كما أعلن ان كاتنغا ستعارض بالقوة دخول القوات الدولية . وارسلت حكومة كاتنغا برقية الى همرشولد تحذره فيها من ان دخول القوات الدولية كاتنغا سيسبب مقاومة مسلحة عنيفة غير ان تلك البرقيات انطوت على رغبة حكومة كاتنغا في الاجتماع بممثل همرشولد الخاص ، من اجل ايجاد صيغة للتعاون بين جميع مقاطعات الكونغو المستقلة .

كنا نعلم ، من جهتنا ، بعدم نية القوات البلجيكية منع دخولنا . لكن ما لم نكن نعلمه هو ما سيكون عليه رد فعل قوات تشومبي المحلية التي كان يشرف عليها جنود بلجيكيون ومدنيون متطوعون .

طلب مني همرشولد ان ابدي رايي في هذا الموضوع ، فقلت له اننا لن نستطيع دخول كاتنغا اذا اجبرنا على القتال ، كما اننا لم نكن في وضع يجعلنا قادرين على تأمين الامدادات لقواتنا . ولحظت ان همرشولد لم يكن ينوي اشعال حرب هناك ، دون تفويض جديد واضح من مجلس الامن ، كما لحظت ان همرشولد كان منزعجا جدا من الطريقة التي تطورت فيها الامور .

واقترحت على همرشولد ان يغتنم رالف بنش فرصة وجوده في اليزابتفيل ليدرس عن كثب نية حكومة كاتنغا الحقيقية في حال دخول قواتنا اراضيها . وما ان انقضت اربع وعشرون ساعة حتى هبط بنش في اليزابتفيل . وكان همرشولد قد بعث ببرقية الى سلطات كاتنغا يعلمها بان ممثله الخاص سيصل في الرابع من آب . وكان همرشولد قد اشار على بنش ان يتصل بالجنرال غيسان ليتأكد منه ان القوات البلجيكية انسحبت الى قاعدة كمينا ، كمقدمة لعدم تعرضها لقواتنا ، كما اشار عليه ان يدرس جو كاتنغا واستعدادها لاستخدام القوة في وجه قواتنا . وكم تمنيت ، آنذاك ، لو انني انا شخصيا ، او احد مساعدي، رافق بنش ليدرس الوضع بعين عسكرية مدربة .

لا اعلم ما جرى في اليزابتفيل . لكن بنش عاد في اليوم التالي وقال

ان الاستقبال العدائي الذي لقيه على المطار لم يكن سوى مقدمة للتهجم الكلامي عليه والانذار الشديد الذي وجهه اليه كل اوروبي او افريقي اجتمع به . وقال ايضا ان وزير الداخلية اطلعه على التدابير التي اتخذها الكاتنغيون لمنع طائرات الامم المتحدة من النزول في كاتنغا .

لذلك أعلن بنش ، بعد ان رأى ما رأى ، عن اقتناعه بان كاتنغا ستستعمل القوة لمنع قواتنا من دخولها ، واصر على ضرورة الاقلاع عن هذا العمل . وكم شعرت بارتياح لموقف بنش هذا ، لانني كنت متحقق من الفشل اذا قررت كاتنغا مقاومة دخولنا . وبعد ان اصغى همرشولد الى جميع الاراء ، لخص الوضع بقوله ان مجلس الامن لم يفوضه استخدام القوة ، وان الغاء خطة دخول قوات الامم المتحدة كاتنغا تجعله يعود الى نيويورك ليقدم تقريره الى مجلس الامن .

وفي اليوم التالي ، عاد همرشولد الى نيويورك . وما ان ذاع نبأ امتناعنا عن دخول كاتنغا ، حتى اتهمتنا الحكومة المركزية بالخضوع لتشومبي . ولم يعد لدي شك ، بعد ذلك ، في أن الحكومة المركزية ستلح في طلب مساعدة الاتحاد السوفياتي . لذلك اتخذت الاحتياطات اللازمة واقمت حرسا على السفارتين الروسية والتشيكوسلوفاكية .

وعند عودتي الى ليوبولدفيل من رحلة تفتيش قمت بها الى تيزفيل ومتادي ، وجدت أن الحكومة المركزية تقوم بحملة واسعة ضد رالف بنش لاخراجه من الكونغو . وكان همرشولد ، من جهته يناضل في الامم المتحدة للحصول على تفويض جديد منها ، فيما كان لومومبا يطوف الدول الافريقية الاخرى . وبالاضافة الى ذلك ، اعلن سيكوتوره ، رئيس جمهورية غينيا ، انه على استعداد لان يضع جميع قواته تحت تصرف حكومة الكونغو المركزية اذا ترددت الامم المتحدة في دخول كاتنغا . وسارع الرئيس نكروما الى تأييد سيكوتوره . وبعد ايام قليلة انضم اليهما الرئيس عبد الناصر .

وفي التاسع من آب نجح همرشولد في الحصول من مجلس الامن على تفويض جديد يخوله سلطة دخول كاتنغا . لكن التفويض لم يشر الى استخدام القوة . وفي اليوم نفسه أعلن تشومبي عن استعداده للسماح للقوات الدولية بدخول كاتنغا شرط ان لا تنقل القوات الدولية معها احدا من اعضاء الحكومة الكونغولية المركزية الى كاتنغا . ورد همرشولد على تشومبي قائلا من نيويورك انه لا يقبل اي شروط ، لكنه على استعداد للمجيء الى اليزابتفيل لاجراء محادثات فيها . واذ رحبت حكومة كاتنغا باستعداده هذا ، عاد من نيويورك الى ليوبولدفيل في ١١ آب . وفي زيارته هذه اصطحب الجنرال الهندي ريكيه والجنرال كتاني وجنديين سويديين . أما انا فبقيت في ليوبولدفيل ، لاقوم بالاجراءات اللازمة لدخول كاتنغا في

الخامس عشر من آب . وفي صباح الرابع عشر جاءتني الاوامر بالذهاب الى كاتنغا لقيادة قواتنا .

كنت حريصا على مشاهدة تشومبي . وبدا لي تشومبي اكثر ذكاء ، وقدرة ، وثقافة من اي سياسي كونغولي آخر . اما وزير داخليته ، غودفروا مونجو ، فقد رأيت الشر يتجسد في عينيه .

سرني لقاء همرشولد مرة اخرى . وفي قصر الضيافة الذي كان ينزل فيه وجدت نفسي وحيدا معه . لم أكن منشرح الصدر يومئذ ، لذلك يؤسفني انني اعطيت همرشولد صورة مفصلة مزعجة عن وضعنا العسكري . كانت قواتنا في طريقها الى كاتنغا ، لكن لومومبا كان سيعود ، بعد ايام ، من رحلته في افريقيا . وكنا نتوقع ان يجن جنونه حين يعلم برفض همرشولد السماح لأي عضو من اعضاء حكومته المركزية بان يصحبه الى كاتنغا . اضف الى ذلك اننا كنا قد سمعنا بأن لومومبا دعا الى عقد مؤتمر للدول الافريقية في ليوبولدفيل ، في الثلاثين من آب . لكن همرشولد ، بالرغم من هذا كله ، بدا مرتاحا ، خاليا من الهموم .

وقلت لهمرشولد ان قواتنا اذا دخلت كاتنغا غدا ولم تلق اية معارضة، فان العناية بأمرها سيخلق لنا مشاكل كثيرة . وقلت له ايضا ان امدادها بالذخيرة والسلاح والمؤن وما الى ذلك سيكون مستحيلا ، بالرغم مما يخبره به مساعدوه الاداريون في نيويورك . اضف الى هذا كله ان ليس لدينا أوامر واضحة عن كيف واين يسمح لنا بالدفاع عن انفسنا . ثم أخرجت من جيبي قائمة طويلة وناولته اياها . كانت تتضمن تقريرا واقعيا لكل ما تحتاج اليه قواتنا في القيام بمهمتها في الكونغو .

قرأ همرشولد القائمة بتمعن . وفجأة انفجر ضاحكا وقال لي : « هل انت مجنون ؟ هل تعتقد انني اريد ان ابدأ سباق تسلح ؟ » فقلت : « لا . انا متأكد من انك لا تريد ذلك لكنك اذا كنت تريد ان تسيطر على الوضع في الكونغو فلا بد لك ، اذن ، من قبول هذه القائمة . » فقال : « دعنا نأمل بان لا يتدهور الوضع الى هذا الحد . »

ثم انتقل همرشولد بالحديث الى موضوع آخر ، فراح يتكلم عن جلاء البلجيكيين . كنت أعلم بانه كان قد قابل الجنرال غيسان ، قائد القوات البلجيكية ، كما كنت أعلم بما كان يلاقيه من ضغط لاجلاء الجنود والموظفين البلجيكيين عن كاتنغا . وفي هذا الموضوع كان لي رأي آخر ، وهو ان اجلاء البلجيكيين سيؤدي الى انهيار الادارة والمواصلاتبل النظام بكامله في دولة كاتنغا . وبالنظر للصراحة التي كنت أمارسها مع همرشولد ، سألته اذا كان هو فعلا يعتقد بعدالة طرد كل جندي بلجيكي من كاتنغا ، خصوصا

لعجزنا عن استبدالهم بآخرين يحولون دون انهيار الادارة التـــام . كان الضغط الحقيقي لتحقيق هذه الخطة الغبية صادرا عن الدول الجديدة في عضويتها في الامم المتحدة ، فقد سألته ايضا اذا كان لا يوافق معي على ان توازن اصوات هذه الدول الجديدة مع اصوات الدول النـــاضجة هو التزوير بعينه .

وهنا غضب همرشولد غضبا شديدا حال بيني وبين متابعة حديثي . ثم صاح قائلا ان لا خيار لنا في طرد البلجيكيين . ثم ازداد صوته حدة عندما قال لي ان مبدأ صوت واحد لدولة واحدة هو المبدأ الاساسي الذي قامت عليه الامم المتحدة .

وفي اليوم التالي عاد همرشولد الى ليوبولدفيل ودخلت قواتنا كاتنغا دون ان تلاقي معارضة فعالة . كما ان الجنود البلجيكيين في كاتنغا لم يخلقوا لنا اية مشاكل . كانوا قد تمركزوا في مطار « كمينا » تمهيداً لنقلهم الى بلجيكا في التاسع عشر من آب .

وفي الايام القليلة التالية زرت بعض وحداتنا المنتشرة في الكونغو . وما من مكان ذهبت اليه الا وكان يحمل بذور انفجار مريع . وشرعت افكر ، منذ ذلك الحين ، بان ما انذرت به همرشولد من خطر كان في محله واكثر . ثم لم ألبث ان استدعيت على عجل الى ليوبولدفيل .

# الفصل الخامس عشر

فور وصلي الي مطار ندجيلي ، قرب ليوبولدفيل ، شعرت بان شيئا غير عادي يجري هناك ، فعرفت السبب فورا . وهو ان زمرة من « صيادي جنود المظلات » الكونغوليين احتلت ارض المطار في اليوم السابق وضربت حصارا حول طائرة كندية وصلت مجددا . وامام بصر الحرس المنتمي الى وحدة من قواتنا الغانية ، صعد « صيادو جنود المظلات » الى الطائرة واخذوا يستجوبون قائدها . ثم اخرجوا اربعة من ملاحيها الكنديين وراحوا يضربونهم بوحشية ظنا منهم أنهم بلجيكيون . ولم يحرك الحرس الغاني ساكنا ، الا بعد ان اغمي على الملاحين الاربعة بتأثير الضرب المبرح .

وبعث رالف بنش الى نيويورك تقريرا بالحادث ، ثم وجه همرشولد احتجاجا شديد اللهجة الى الحكومة المركزية الكونغولية ، كما وجه توبيخا قاسيا للقوات الغانية العاملة معنا . غير ان الجنرال الكسندر ، ممثل الرئيس نكروما الشخصي في الكونغو ورئيس القوات الغانية هنا ك، وضع مذكرة شديدة اعترف فيها بحصول الحادث ، لكنه رفض الانتقادات التي وجهها همرشولد الى الضباط الغانيين . وقد أرسل تلك المذكرة الى همرشولد بواسطة الرئيس نكروما .

وعندما غادر همرشولد كاتنغا الى ليوبولدفيل ، وجد ان الوضع هناك قد تدهور ، وان لومومبا يدعي باننا نتعامل مع تشومبي ونتجاهل وجود الحكومة المركزية تجاهلا كليا . وقد تبادل همرشولد خمس رسائل قاسية مع لومومبا في يوم واحد . وكان لومومبا يصر في كل منها على ان الشعب الكونغولي فقد ثقته بالامين العام للامم المتحدة ، وان لا خيار للكونغو الا بطلب المساعدة من مصدر آخر . ومنذ ذلك التاريخ اصبح همرشولد يصرح بخلافه مع لومومبا ، وعلمت من رالف بنش بان الامين العام كان يعتبر رئيس الوزراء ديكتاتورا ، همه الاوحد القضاء على نشاط الامم المتحدة في الكونغو .

فيما كان لومومبا يقوم بجولة في القارة الافريقية اغتنم بعض السياسيين الكونغوليين فرصة غيابه فأسسوا حركة معادية له . غير ان لومومبا اكتشف تلك الحركة ، فور عودته الى ليوبولدفيل ، فأقفل بعض

الصحف ووضع بعض السياسيين في السجن .

هذا ما كانت عليه الحال في ليوبولدفيل ، عندما وصلتها عائدا من كاتنغا . فصممت فورا على ان اتحقق من أمر طالما اقلقني ، وهو ان رالف بنش كان يراقب جميع البرقيات التي كنت أرسلها الى نيويورك عبر جهاز اللاسلكي الوحيد الموجود في مكتبه ويتصرف بها كما يشاء . وهكذا ، ففي ١٢ آب وضعت برقية رمزية الى دافيد فوهان ، رئيس قسم الادارة في نيويورك ، بواسطة اندرو كوردية ، انتقدت فيها الجهاز الاداري في بعثتنا انتقادا عنيفا وطلبت تعيين « يان فانوايك » مساعدا اداريا خاصا . ثم اوكلت الى مساعدي ملاحقتها من مكتب الى آخر حتى يتأكد من ارسالها الى نيويورك . وبعد اثني عشرة ساعة ، علمت بان البرقية لا تزال في مكتب المواصلات . فطلبت من المشرف على المكتب ان يرسلها الى نيويورك فورا . غير انه اخذ ينتحل اعذارا غير مقبولة . ولما احرجتـــه بتحقيقاتي صرح لي ان رالف بنش اصدر امرا بان يوقع هو على جميع البرقيات الصادرة والواردة . ثم تأكدت على الفور من صحة ذلـــك من اوركو هارت احـــد مستشاري بنش .

وكان الوقت باكرا جدا فلم اشأ ان اوقظ بنش من نومه ، بل اكتفيت بالطلب من اوركو هارت ان يضع البرقية في بريد الساعة السابعة صباحا ، ضمانا لسرعة ارسالها .

وفي الساعة السابعة والنصف طلبني بنش الى مكتبه ، وقـــال لي بصوت فيه من الاسف اكثر مما فيه من الغضب . « كارل ، قرأت برقيتك . ويؤسفني ان اجدها تتضمن انتقادات عنيفة ضدي . وانا لا اقبل بهـــذا التصرف . فاذا كنت تصر على ارسالها ، فليس لي الا أن اقدم استقالتي.»

فقلت له : « جئت اليك لاقدم استقالتي ، لانني اكتشفت منذ بضع ساعات انني محروم من الاتصال مباشرة مع نيويورك . كانت عندي شكوكي حول هذا الموضوع ، فوضعت تلك البرقية لأثبت من صحة شكوكي . توقعت انك لن توافق على ارسالها . وعليك ان تعلم بان ما من قائد قوات عسكرية في الدنيا يوافق على هذا النوع من المراقبة . فاذا كنت ستستمر عليها ، فهناك غير ليوبولدفيل يمكنني أن اذهب اليه . » وبعد فترة غير قصيرة من الصمت قلت : « يظهر ان همرشولد سيتلقى استقالتين . الا اننا نساعده كثيرا لو عدلنا عن الاستقالة وحاولنا ان نتعاون على العمل ، ولو في الوقت الحاضر . »

فاجابني : « انني اوافق . وهذا يعني انك لا تصر . . . » فقلت انني لا اصر على أرسال البرقية . وهكذا سحبتها بناء على طلبه . وبعد ذلـــك

ببضعة ايام استبدله همرشولد برجشوار دايال الدبلوماسي الهندي ، نزولا عند طلب الدول الافريقية التي كانت تتهم رالف بنش بمسايرة مستشاريه الغربيين .

كان لومومبا يلح على بنش باعادة الاسلحة التي كنا قد جمعناها من القوات الكونغولية الوطنية . ولم أعلم شيئا عن المحادثات بين لومومبا ورالف بنش . لكن بنش دخل ذات ليلة الى مكتبي ، دون سابق انذار ، وقال لي انه قرر اعادة الاسلحة التي جمعناها الى القوات الكونغولية الوطنية . ولم اصدق اذني عندما سمعته يقول : « أريدك ان تصدر الاوامر بهذا الشأن فورا . » فقلت له : « رالف ، هل جننت ؟ الا ترى ان اعادة الاسلحة الى القوات الكونغولية تعني الحرب الاهلية ؟ الم أبين لك ان القوات الكونغولية هي زمرة من الاوباش ، لا جيش منظم ؟ اذا اعدنا لهم اسلحتهم فما علينا الا ان نضرع الى الله لحماية الشعب وقواتنا ايضا . »

فألح قائلا : « اريدك ان تعطي اوامرك فورا . »

وهنا اخذته بيده واجلسته ورحت اشرح له خطورة اعادة الاسلحة الى القوات الكونغولية . لكنني شعرت بانه لن يقتنع ولن يرجع عن قراره .

بقي رالف بنش صامتا . كنت أعرف ما يجول في خاطره . كما كنت اعرف كيف اجيبه . وعندما كرر قوله لي مرة اخرى بأن هذه الخطوة كانت قرارا سياسيا من حقه ان يتخذه بصفته المثل الخاص للامم المتحدة ، حدقت في عينيه وقلت له : « رالف ، لقد حذرتك من مغبة هذا العمل ، انا القائد الأعلى لقواتك . وبما انك ترفض ان تسمع لنصيحتي ، فاني ارفض ، بدوري ، اصدار هذا الامر رفضا باتا . »

لقد واجهت متاعب كثيرة في حياتي الجندية ، لكني لم اجد نفسي ، في يوم من الايام ، مضطرا لان ارفض امرا يصدر الي . كنت متأكدا من صواب موقفي . وفي اليوم التالي دخل الى غرفتي مساعداي الضابطان وقالا لي ان رالف بنش طلب منهما تنفيذ امره باعادة السلاح الى القوات الكونغولية، لكنهما رفضا ذلك . وبعد مدة قصيرة ، اصدر بنش اوامره راسا الى قادة وحداتنا العسكرية ، وكان في ذلك يتصرف ضمن صلاحياته التي تخوله ان يتخطاني ويصدر تلك الاوامر . وانا الان مقتنع بأننا لو احجمنا عن اعادة الاسلحة الى القوات الكونغولية ، لما وقعت مأساة الكونغو . وكثيرا ما تساءلت اذا كان بنش لم يقرر ما قرره وهو عالم بالنتائج ، لانني اوضحت له خطورة قراره . وفي اعتقادي انه أصر على النظر الى الموضوع من زاوية سياسية ، متوقعا من ورائها استتباب الامن وانهاء الفوضى . لكن ما لم افهمه هو كيف توصل بنش الى قراره ذلك ، بالرغم من تحذيري وانذاري

له . ومهما تكن الاسباب التي دفعته الى ذلك ، فقد برهنت الاحداث انني كنت على حق . واننا لو احجمنا عن اعادة الاسلحة الى القوات الكونغولية لكنا تجنبنا اراقة الدماء . لكن رالف تركنا قبل ان تقع المأساة .

عندما اعود بذاكرتي الى تلك الايام ، ارى انه كان علي ان استقيل . لكنني لم اكن اعلم ، آنذاك ، ان لومومبا كان قد صمم على اجتياح ولاية كاساي التي اعلنت انفصالها ، كما انني لم اكن اعلم ان المساعدات الروسية التي كنا نتوقع وصولها لتعزيز قوات الامم المتحدة قد اعطيت ، في آخر لحظة ، الى لومومبا .

وفي ١٨ آب ، غادر رالف بنش الكونغو عائدا الى نيويورك . وبالنظر الى توتر العلاقات فيما بيننا ، قررت ان اخرج في ذلك اليوم من ليوبولدفيل ، حيث كان الوضع هادئا . واغتنمت الفرصة فتفقدت قواتنا المرابطة في اماكن عديدة من الكونغو .

وفي منتصف تلك الجولة استدعيت على عجل الى ليوبولدفيل . وفور وصولي وجدت ان هناك ازمة كبرى نشأت عن ان الطائرات الروسية اخذت تنقل جنود الحكومة المركزية الى حدود كاساي المنفصلة مؤخرا عن الاتحاد توطئة للهجوم عليها . واذ ذاك ، وصلت طائرة اميركية الى مطار ليوبولدفيل تحمل فرقة من الفنيين الكنديين ويظهر ان شائعة سرت مفادها ان جنود القوات المظلية البلجيكية عادوا الى المدينة للقبض على لومومبا ، مع ان لومومبا كان قد غادر ليوبولدفيل ، قبل يومين الى ستانليفيل . وهكذا اجتاحت المطار جموع غفيرة من البوليس ، والجنود ، والمدنيين الكونغوليين ، واخرجوا الملاحين الاميركيين والفنيين الكنديين من الطائرة وضربوهم بوحشية وقادوهم الى السجن قبل ان يصل حرس المطار اليهم . ولحسن حظهم ، لحقت بهم ممرضة اثيوبية ثم عادت واخبرت احدى قواتنا الاثيوبية عن مكانهم فذهبت فورا ونقلتهم من السجن الى المستشفى .

كان لذلك الحادث اثره الكبير على قواتنا وعلي . اذ بدأ افراد قواتنا يظهرون العداء نحو الكونغوليين بشكل سافر . أما انا ، فقد تمنطقت بمسدسي عندما ذهبت الى المطار لاستقبل فوجا آخر من الكنديين جاء ينضم الينا .

سررت كثيرا لوصول كورديه الى الكونغو في آخر شهر آب . وكان كوردية قد جاء ليحل محل رالف بنش ، ريثما يكون الدبلوماسي الهندي رجشوار دايال قد وصل الكونغو .

دخل كوردية فورا في سلسلة من الاجتماعات اعدتها الدول الافريقية في المؤتمر الذي كان لومومبا قد دعا الى عقده في ٢٨ آب . وكانت الدول

الافريقية تحاول ، عبر تلك الاجتماعات ، تخفيف حدة التوتر بيننا وبين الحكومة المركزية ورئيس وزرائها لومومبا . وقد نجح مؤتمر الدول الافريقية في التأثير على لومومبا وكبح جماحه ظاهريا على الاقل ، لكن بعد فوات الاوان . اذ كانت الطائرات الروسية قد بدأت بنقل قوات الحكومة المركزية من ستانليفيل الى حدود كاساي ، كما كان لومومبا قد وضع تخطيطا لغزو كاتنغا من الشمال ومن ولاية كاساي . وتغلبت قوات لومومبا على الحكومة الانفصالية في ولاية كاساي واحتلتها بعد ان سال نهر من الدماء . اما الحكومة الانفصالية ، فقد لجأت الى كاتنغا .

أما وقد ساعدت روسيا قوات لومومبا ، فقد اصبح التدخل الخارجي في الكونغو امرا محتوما ، ان آجلا او عاجلا . وهناك من يقول ان تشومبي هو الذي وضع سابقة طلب المساعدات الخارجية . والرد على ذلك ان تشومبي كان يتعاون مع الامم المتحدة ظاهريا على الاقل ، بينما كان لومومبا يكن لها عداوة مريرة . وقد اوضحت احاديث كوردية مع لومومبا ان لا مجال لعودة لومومبا واعضاء حكومته عن عداوتهم المريرة تلك . اضف الى ذلك ان لومومبا كان قد اثار معظم الرأي العام الكونغولي ضدنا . اما من جهتنا نحن ، فلم يكن هناك فائدة من اخفاء كرهنا وعدم ثقتنا بلومومبا ، بمن فينا همرشولد . وبدا لنا انه لن يمضي وقت طويل حتى تكون علاقتنا بالحكومة المركزية قد انقطعت ودخلت في مرحلة خطيرة جدا . لكننا لم نكن نعلم بان الخصومات السياسية المحلية ستنفجر في ليوبولدفيل .

# الفصل السادس عشر

استدعي كورديه الى القصر الجمهوري في ٥ ايلول ، فذهل عندما اخبره كازافوبو بعزمه على القيام بانقلاب تلك الليلة . ثم اعطاه قائمة بأسماء عدد من الاشخاص وطلب منه ان يأمر قواتنا الدولية باعتقالهم تمهيدا لنجاح الانقلاب .

كانت الاسماء التي تضمنتها القائمة تثير الاهتمام فعلا ، اذ كان على راسها اسم لومومبا وجميع اعوانه . لكن كورديه اعاد الثقة الى الرئيس كازافوبو قائلا ان لا سلطة لديه للتدخل في شؤون الكونغو الداخلية، كما انه لم يكن مفوضا بتوقيف الناس على هذا النحو .

وبدا الانزعاج على وجه كازافوبو . الا انه اخبر كورديه ، بعد تردد قليل ، بانه سيقوم بالانقلاب على اية حال ، وانه يحتفظ بحق اللجوء الينا طلبا للحماية الشخصية اذا دعت الحاجة . وعاد كورديه من قصر الرئاسة الى المقر العام بسرعة جنونية ، فاستدعاني الى مقابلته في الحال . وكنا نجهل ان كانت تلك الخطوة التي عزم على اتخاذها كازافوبو ستؤدي الى حرب اهلية في ليوبولدفيل ، ام انها ستحظى بمساعدة الشعب والقوات الكونغولية . الا اننا كنا متأكدين من ان لومومبا سيرد بعنف على الانقلاب ، وانه سيستعمل الطائرات الروسية لنقل مؤيديه من ستانليفيل الى ليوبولدفيل ، اذا ما اقتضى الامر . ولم يكن باستطاعتنا القيام الا بتعزيز حراستنا للمطار ، واستنفار جميع قواتنا في العاصمة ، ونقل انباء ما جرى ويجري الى نيويورك . ثم جلسنا ننتظر ونتساءل عما كان يفعله الرئيس كازافوبو في قصره المحاط باعوانه ومؤيديه . ولم يكن لدينا شك في انه كان على اتصال مع الاب فوليير بولو ، المقيم ، عبر النهر ، في برازفيل .

قيل ان الامم المتحدة ساعدت كازافوبو على الانقلاب ، لكن هذا ليس صحيحا . قد يكون ان كازافوبو استشار السفير الاميركي في الموضوع ؛ لكنني لا استطيع الجزم .

وفي الساعة الثامنة والربع من مساء ذلك اليوم ، اعلن كازافوبو في الراديو عزل لومومبا من رئاسة الوزارة ، استنادا الى السلطة التي يخوله اياها الدستور ، كما اعلن عن عزل ستة من اعوانه من الحكومة

وتعيين جوزيف ايليو رئيسا للوزارة الجديدة . وقال كازافوبو في اذاعته ان الاسباب التي دعته للقيام بتلك الخطوة هي استئثار لومومبا بالسطة ، وخطر نشوب حرب اهلية . وبعد الانتهاء من القاء بيانه عاد الى قصره ، حيث طلب من الامم المتحدة ان تؤمن له الحراسة ، فأرسلنا وحدة من الجنود المغربيين .

وفي هذه الاثناء ، كان لومومبا قد بلغ دار الاذاعة ، فتلا ثلاثة بيانات ، في مدة ساعة ، ندد فيها بالعمل الذي قام به الرئيس كازافوبو ، معلنا ان ليس لرئيس الجمهورية الحق بعزله من منصبه ، وان رئيس الجمهورية عميل للاستعمار . ثم نادى لومومبا بخلع كازافوبو من رئاسة الجمهورية ، طالبا من الامم المتحدة والدول الغربيـــة عدم التدخل في هـــذه القضية الداخلية .

وبدا لنا ، بعد الاستماع الى بيانات لومومبا ، ان الخطوة التـــالية ستكون هبوط الطائرات الروسية في مطار ندجيلي ، قرب ليوبولدفيل ، وهي تحمل مؤيدي لومومبا ، مما سيشعل الحرب الاهلية في ليوبولدفيل . عندئذ قد يطلب لومومبا مساعدة روسيا ، فتقيم طائراتها جسرا جويا تنقـــل عبره مؤيدي لومومبا من مختلف انحاء الكونغو الى ليوبولدفيـــل وتخسر بذلـــك قوات الامم المتحـــدة سيطرتها على المدينة العاصمة .

عندما سألني كورديه عن رأيي في الوضع ، أجبته بصراحة ووضوح ان اهم ما يمكن عمله هو ان نمنع التدخل في جهاز مواصلاتنا الجوية ، فنغلق جميع المطارات الكبرى ، بأسرع وقت ممكن ، في وجه جميع الطائرات الا طائرات الامم المتحـــدة . فوافـــق ، دون ان يرجـــع ، لضيق الـــوقت ، الى همرشولد ، متحملا وحده مسؤولية هذا القرار .

وفي صباح اليوم التالي ، عقد لومومبا اجتماعا لحكومته بحضور عدد قليل من اعضائها ، فأعلن حالة الطـــوارىء ، ومنع التجول في مـــدينة ليوبولدفيل ، كما فرض سيطرة حكومته على جميع طرق المواصلات الداخلية والخارجية . لكننا كنا نحن قد سبقناه الى فرض سيطرتنـــا على طرق المواصلات هـــذه . اما محطة الاذاعة ، فقـــد واصلت دعوتها ، طيلـــة اليوم ، الى حرب اهلية ، مما حمل كورديه على اصدار امره الي بالاستيلاء على الاذاعة وايقاف العمل فيها . وكانت هذه مهمة صعبة جدا ، لاننا لم نشأ اثارة قتال حول الاذاعة . فارسلت خبيرا دوليا يصحبه احد الحراس ، لتعطيلها بانتزاع جهاز مهم فيها . غير ان كازافوبو لم يسكت ، بل واصل القاء اذاعاته من محطة برازفيل . ولعل هذا ما دفع البعض الى اتهام كورديه بالعمل لمصلحة كازافوبو ضد لومومبا . لكن لا صحة مطلقا لهذا الاتهام .

وفي ٨ ايلول ، وصل رجشوار دايال الى الكونغو ، ممثلا خاصا للامين العام . وفور وصوله ، قام بزيارة لومومبا وكازافوبو معا . فاتهم لومومبا الامم المتحدة بالتدخل في شؤن الكونغو الداخلية . اما كازافوبو فأشار على دايال ان لا يضيع وقته مع لومومبا لان حكومته لم تعد شرعية . ولم يكن من السهل تثبيط عزيمة دايال بهذه السرعة ، اذ صمم على ايجاد حل يسمح لنا بفتح المطارات ودار الاذاعة ، ودون ان يؤدي ذلك الى اندلاع القتال من جديد بين الفريقين المتخاصمين . وفي ٩ ايلول علمنا ان القوات الكونغولية رفضت تنفيذ اوامر لومومبا باحتلال المطار . وبعد يومين ، حاول لومومبا مع بعض مؤيديه ان يقتحم دار الاذاعة ، لكن حرسنا منعه من الدخول .

وفي ١٢ ايلول ، فتحنا ابواب الاذاعة ، ثم المطارات للمواصلات العادية . وفي هذه الاثناء ، كان لومومبا قد خرج من السلطة ، فألقت بعض وحدات القوات الكونغولية المؤيدة لكازافوبو القبض عليه . ثم جاءت وحدات اخرى من القوات الكونغولية الموالية له واخرجته من السجن .
ولجأ لومومبا الى البرلمان ، فوقف البرلمان الى جانبه واقره على ما يريد . غير ان رئيس الجمهورية كازافوبو ، اعلن في اليوم التالي حل المجلس .

وفي ١٤ ايلول ، قام الكولونيل جوزف موبوتو بثورة سلمية دعت الى تجميد نشاط كازافوبو ، ولومومبا ، وايليو رئيس الوزراء الجديد ، ومجلس النواب ، لمدة ثلاثة اشهر ، تدير البلاد في اثنائها حكومة من الفنيين تخرج البلاد من الازمة الواقعة فيها .

وكان كازافوبو ولومومبا على غفلة من أمر الانقلاب الجديد . وبدأ موبوتو ممارسة سلطته بانذار سفارات الكتلة السوفياتية بمغادرة البلاد في مدة اربع وعشرين ساعة . وبقي كازافوبو في قصره ، فيما سارع لومومبا الى البحث عن موبوتو . لكن بعض وحدات من القوات الكونغولية الموالية لموبوتو القت القبض عليه . غير انه استطاع الهرب منهم بعد ان فقد محفظته . وتبين ان محفظته كانت تحتوي وثائق على جانب من الخطورة ، منها طلب المساعدة من الاتحاد السوفياتي ومن الصين ، ومنها رسالة من الرئيس نكروما ينصحه فيها باقامة نظام ديكتاتوري في الكونغو . وقبض موبوتو على زمام السلطة ونجح في اعادة الامن والاستقرار الى ليوبولدفيل . وفي تلك الاثناء ، كان موبوتو قد عقد اجتماعا معنا ، فاقتنعناه بسحب القوات الكونغولية من ولاية كاساي ، والاقلاع عن فكرة الهجوم على كاتنغا .

اغتنمت فرصة الاستقرار المخيم على ليوبولدفيل ، فقمت بتفقد قواتنا المنتشرة في اماكن مختلفة من الكونغو . وقد لقيت ، حيثما حللت ،

روحا معنوية عالية عند جنودنا بالرغم من انهم كانوا في احوال صعبة جدا . فالبيرد لم يكن يصل اليهم بانتظام ، ولم تكن الاسرة كافية لجميع الجنود كما ان الجهاز الاداري في كل فرقة لم يكن موجودا .

كانت شكاوى القوات التي زرتها كلها متشابهة. وفيما كان قائد الفرقة الايرلندية التي كانت اخر من زرتها ، يردد على مسمعي شكاويه ، عادت بي الذاكرة الى حادثة وقعت لنا في الايام الاولى من وصولي الى ليوبولدفيل. كان يساعدني في ذلك الوقت ضابطان ومتطوعان اخران ينتميان الى احدى الارساليات الدينية. بدأت القصة بوصول شحنة كبيرة من الفواكه والمأكولات المعلبة كانت الامم المتحدة قد وافقت على شرائها بواسطة احدى الشركات في هامبورغ . لكن سرعان ما تبين للامم المتحدة ان تلك الشحنة كانت من مصنوعات اسرائيل ، وان النجمة الاسرائيلية كانت تظهر على كل علبة . وهكذا اضطرت الامم المتحدة لالغاء الصفقة ، خوفا من رد الفعل عند الجنود المسلمين في قواتنا . جن جنون اسرائيل واتهم رئيس وفدها الدائم الامم المتحدة بممارسة سياسة التمييز العنصري بحق اسرائيل . وعادت الامم المتحدة عن الغاء الشحنة ، فارسلتها الى الكونغو مع اوراق جديدة لا تظهر عليها نجمة اسرائيل ، وطلبت من القائد الاعلى لقوات الامم المتحدة الصاقها على العلب وتوزيعها على الجنود . وهكذا ضاع مجهود موظفينا القلائل في لصق الاوراق على علب الفواكه ، بدلا من ان يبذل في اعمال اخرى كنا بأشد الحاجة اليها .

# الفصل السابع عشر

عدت الى ليوبولدفيل لاجد ان الهدوء ما يزال يخيم عليها . وعلمت فور وصولي ان داغ همرشولد استطاع الحصول على ثقة الجمعية العامة ، بالرغم من الهجوم الذي شنه عليه خروشوف ، للطريقة التي عولجت فيها أزمة شهر ايلول .

اما في ليوبولدفيل ، فكان من الواضح ان العناصر الجديدة المثقفة التي استعان بها موبوتو لادارة البلاد ، لم تكن لديها الخبرة الكافية ، مما حمل موبوتو على اعادة المستشارين البلجيكيين الى الكونغو باعداد كبيرة . وعاد البلجيكيون الى الكونغو هذه المرة واتخذوا موقفا معاديا لنا ، مع العلم انهم كانوا لشهرين مضيا ينظرون الينا كمنقذين ويقدمون الينا بيوتهم وسياراتهم لتوفير الحماية لهم .

كان من الطبيعي ان تثير عودة البلجيكيين ردود فعل عنيفة عند مؤيدي لومومبا . وكنت متأكدا ان الوضع سينفجر بين يوم واخر . وبعد زيارتي الى قواتنا في المناطق ، رأيت انه كان علينا ان نجهز قواتنا تجهيزا أوفر واوفى قبل أن تقع الكارثة وينفجر الوضع . لكن العناصر التي كانت تمنعنا من تجهيز قواتنا وامدادها بكل ما تحتاج اليه في عملياتها العسكرية ، لم تتغير ، مع ان رجشوار دايال كان غير رالف بنش ، ومع انني ارتحت للعمل معه .

كانت هناك مثلا مشكلة اللغة . فقد كبرت قواتنا مع مرور الوقت واصبحت تضم جنودا ينتمون الى تسعة وعشرين بلدا مختلفا ، مما حملنا على استعمال اللغتين الفرنسية والانكليزية ، كلغتين اساسيتين نصدر فيهما اوامرنا وتعليماتنا . ولسوء الحظ ، كان الضباط والموظفون الذين يتقنون اللغتين اقلية ضئيلة . وكثيرا ما تأخر صدور الاوامر والتعليمات ثماني واربعين ساعة لسبب الترجمة .

واجهنا صعوبة اخرى ، هي عدم التعاون بين الموظفين المدنيين المسؤولين عن العمليات المدنية وبين القادة العسكريين . كانت كل وحدة من الجنود تضم موظفا للشؤون السياسية ، واخر للشؤون المدنية ، وثالثا للشؤون الادارية . وكان من المفروض ان يكون التعاون تاما كاملا بين هؤلاء

الموظفين وبين القادة العسكريين لكل وحدة . لكن الحقيقة كانت بخلاف ذلك ، اذ كان الموظفون المـــدنيون يجمعون معلومـــات قيمة ضروريـــة للعسكريين . وبدلا من ان يضعوا هذه المعلومات تحت تصرف زملائهم العسكريين كانوا يرسلونها رأسا الى المقر العام في ايوبولدفيل حيث كانت تضيع في الملفات او تهمل .

كان العقيد ريكهي قد جاء الى اليزابتفيل مع الامين العام همرشولد بصفة مستشار عسكري ، لكنه بقي في ليوبولدفيل بعد مغادرة الامين العام . وكنت أعرف العقيد ريكهي من قبل ، اذ سبق لي ان اجتمعت به مع قوة الطوارىء الدولية في غزة . لذلك ، كنت اعلق آمالا كبيرة على مساعدته لي ، لكنني وجدت أن عدوى الطموح السياسي قد انتقلت اليه ، فخاب ظني به ولم الق منه أية مساعدة أو أر فيه أي مقدرة على تفهم الوضع . ولو وقف الامر عند هذا الحد لهان الامر ، لكنني اكتشفت ان ريكهي يطبق الاساليب نفسها التي كان رالف بنش يطبقها من قبل ، وهي انه كان يعطي الاوامر رأسا الى مساعدي . وعندما لفت نظره الى هذا التجاوز على صلاحيتي كقائد أعلى لقوات الامم المتحدة ، قاده طموحه السياسي الى القول لمساعدي ان ليس في مصلحتهم أن يخبروني بكل ما يجري بينه وبينهم .

ولو أعانني ريكهي على اقناع نيويورك بصعوبة حل المشاكل الادارية والعسكرية التي كنا نواجهها ، لقدم لي مساعدة كبيرة ، خصوصا وقد كان فصل الشتاء على الابواب الـــذي يجبرنا على النقـــل بواسطة الطيران . وكـــان جهاز الطيران عندنا عديم الفائدة تقريبا ، مما جعلني اطلب مـــن نيويورك أعطاءنا بعض طائرات النقل الحديثة . لكن نيويورك لم تلب الطلب لعدم توفر المال اللازم .

ونتج عن هـــذا الوضع تأثير كبير على جنودنا . اذ انهم ابتـــدأوا يرون ان الامم المتحدة تعاملهم « كمواطنين دوليين من الدرجة الثانية . » كانت المعيشة غالية جدا في الكونغو ، وكانت الامم المتحدة تعطي جنودنا تعويضات قليلة لا تتناسب مع غلاء المعيشة . وقد خضت معركة مع الامم المتحدة حتى حصلت على زيادة دولار وخمس وعشرين سنتا يوميا للجندي الواحد . ومع هذا ، بقيت التعويضات قليلة . وقد استطعت ايضا الفوز بموافقة الامم المتحدة على ارسال الجرائد والمجلات الى جنودنا ، كل بلغته الام . لكن الامم المتحدة رفضت طلبي تجهيزنا بآلات عرض سينمائية للترفيه عن الجنود . ولما لم يكن هناك ما يشغل الجنود في اوقات فراغهم ، فقد كثرت بينهم حوادث السكر والمشاجرة .

لكن صحة جنودنا بقيت ممتازة . ويعود الفضل في ذلـــك الى الجهاز

الصحي الممتاز الملتحق ببعثتنا والـذي امدتنا الهند وسويسرا وايطاليا والنمسا بأطبائه ومستشفياته . وهكذا صممت على اتخاذ خطوتين : الاولى انشاء مخيمات وثكنات لائقة لجميع قواتنا املا بتقوية شعور الوحدة بينهم . لكن الادارة في نيويورك لم تر الحاجة الى انشاء المخيات والثكنات ، فبقي افراد قواتنا ينقلون سكناهم من مكان الى اخر ، حتى انتهت مهمة الامم المتحـدة في الكونغو .

اما الخطوة التالية فكانت انشاء وسام نعلقه على صدور جنودنا الذين قاتلوا في الكونغو . غير ان الادارة في الامم المتحدة ، وخصوصا رالف بنش لم يوافق على انشاء مثل هذا الوسام .

كل هذا لم يثبط عن عزيمتي على توفير اسباب حياة افضل لجنودنا تجاوبا مع المسؤولية التي شعرت بها نحوهم .

على انه كان للوضع الذي كنا فيه جوانب اخرى ، مفرحة ، منها وصول وحدة عسكرية من اندونيسيا طلب جنودها ، فور نزولهم في المطار ، نساء يرقصن معهن . ولم اكن اتوقع الكثير من الجنود الاندونيسيين ، فارسلتهم الى مناطق بعيدة . ولشد ما كانت دهشتي عندما زرتهم بعد شهر واحد ، فوجدت انهم افضل الجنود اطلاقا . عند ذاك ايقنت انهم انما تعلموا مهنة الجندية بالطريقة الصعبة . فكانت وحدتهم على جانب كبير من الامتياز ، بحيث نالت اعجاب الجميع ، بمن فيهم القوات الكونغولية . وعندما سألت احدهم كيف حصلوا على تدريبهم العسكري ، اجابني بانهم تدربوا اولا على ايدي الهولنديين ، ثم على ايدي اليابانيين ، ثم على ايدي الانكليز ... لكنهم حاربوهم جميعا.

كنا قد اتفقنا في ذلك الحين مع موبوتو على تدريب القوات الكونغولية الوطنية لنجعل منها قوات ممتازة . واوكلت مهمة التدريب الى الجنرال المغربي كتاني . كانت المهمة شاقة . لذلك عجز الجنرال عن تدريب اي وحدة من القوات الكونغولية ورفعها الى المستوى المطلوب ، باستثناء فرقة المظلات . وما ذلك الا لان الكونغوليين ، بعد رحيل فرقة المظلات البلجيكية اصبحوا يطمحون جميعا الى ان يكونوا من جنود المظلات .

استطاع موبوتو السيطرة على معظم القوات الكونغولية الوطنية لانه كان السياسي الوحيد الذي تسلم السلطة وتمكن من ان يدفع لافراد القوات الوطنية مرتبا شهريا . وقد سمعنا بعد وقت قصير ان الرئيس عبد الناصر ارسل اموالا الى ستانليفيل ، جعلت لومومبا قادرا على دفع مرتبات القوات الوطنية هناك . وبذلك فاز بالسيطرة الكاملة على الولاية الشرقية .

اما في ليوبولدفيل ، فقد رفض دايال تنفيذ طلبات موبوتو المتكررة بالقاء القبض على لومومبا . وكان من الواضح ان دايال قد صمم على ان لا يتعاون مع موبوتو . وفي ٢ تشرين الثاني ، وضع دايال تقريره عن الوضع في البلاد وضمنه آراءه واقتراحاته . وكان التقرير ينطوي على تشجيع لومومبا وتأييده ، لكنه اهمل الاشارة الى موبوتو ونظامه ، على اساس انهما لا يستحقان اهتمام الامم المتحدة . وتضمن تقرير دايال ايضا توجيه انتقادات عنيفة الى البلجيكيين في ليوبولدفيل وفي كاتنغا ، معتبرا اياهم مسؤولين مباشرة عن سوء العلاقات بين الشعب الكونغولي وبين القوات الدولية في الكونغو . واصر دايال في تقريره على ان ظهور الخبراء البلجيكيين ، مؤخرا ، في الكونغو اثر في استقرار القوات الكونغولية الوطنية . وضمن دايال في تقريره هذا ، اقتراحات واضحة لحل ازمة الكونغو بالاعتماد على رئاسة الجمهورية ومجلس النواب . وكان معنى هذا ان دايال رفض سلطة موبوتو .

وقد اثار تقرير دايال ضجة كبرى ، خصوصا في الاوساط البلجيكية والاوساط الاميركية التي كانت تعلق آمالا كبيرة على التحالف القائم بين موبوتو وكازافوبو . اما موبوتو ، فقد قاطع علم الامم المتحدة عندما مر امامه بمناسبة العرض العسكري الذي اقيم في ٢٤ تشرين الاول .

لا اعلم اذا كان همرشولد قد وافق على تقرير دايال . لكنني اظن ان همرشولد اعتبر ان التقرير جاء في غير وقته . اما نحن ، فقد شعرنا ان دايال لم يكن يعلم كيف يكسب الاصدقاء . كانت صلتنا بنظام تشومبي متوترة ، وكان اتباع لومومبا في اورينتال ينظرون الينا كاعداء ، والان اصبح موبوتو واعوانه في ليوبولدفيل يشعرون نحونا بالخيبة والمرارة . اما في الولايات الاخرى فقد كان من الصعب معرفة الاثر الذي تركه تقرير دايال .

بعد اسبوع ، تلقينا اول صدمة ناجمة عن تقرير دايال ، عندما علمنا في المقر العام في ليوبولدفيل ان بعض رجال القبائل نصبوا كمينا ، قرب حدود كاتنغا ، لدورية تابعة للفرقة الايرلندية وقتلوا جميع افرادها . وليس من شك في أن هذه المأساة ما كانت تقع للتونسيين والمراكشيين الذين كانوا ، بخلاف الايرلنديين ، مدربين على القتال في المعارك . ولربما كانت تلك اول دورة تفتيشية قامت بها الفرقة الايرلندية المؤلفة من أحد عشر جنديا ، لتتفقد حالة الجسر الواقع على بعد اربعة عشر ميلا جنوبي نياميا . والا لما نزل افرادها من سياراتهم ، مع علمهم بأن المكان يعج برجال القبائل .

كان من الممكن تجنب المأساة لو كان لدى الوحدة الايرلندية عدد

كاف من السيارات تمكنها من القيام ببرنامج تدريب على اعمال الدوريات العسكرية . ولم تنفع المساعـــي التي قمت بها لدى نيويورك لملافاة هذا النقص . وبقيت تقاريري في خزائن الطابق الواحد والعشرين من « قصر الزجاج » يعلوها الغبار .

وشعرت ، مرة اخرى ، برغبة قوية في زيارة قواتنا المنتشرة في الكونغو . كان عددها قد اصبح سبعة عشر الف جندي . فزرت القوات المغربية والمالية والسودانية والسنغالية ، فوجدت ان جميع تلك القوات تقوم بالمهمة التي انيطت بها على اكمل وجه . ولم يكن بمقدوري ان اغادر هؤلاء الجنود دون ان اترك لهم شيئا يدل عن تقديري العميق لهم . كـــان معي ستة اوسمة للامم المتحدة جئت بها من لجنة الهدنة الـــدولية في القدس . فعلقت الاوسمة الستة على صدور ستة جنود . وكم كنت اود ان يكون معي عدد كـــاف من الاوسمة لاعلقهـــا على صدر كـــل جندي في قواتنـــا .

# الفصل الثامن عشر

ليته كان بالامكان القيام بعمل في الكونغو يضعنا موضع العطف او الرضى . لقد اثارت خطوة كورديه الحاسمة ، في اوائل ايلول ، كره لومومبا ومؤيديه لنا وتركت جرحا لا يلتئم في صلتنا به . وها اننا ، بعد مضي شهرين ، نكسب عداوة فئة اخرى نتيجة تقرير دايال . وكما وضع كورديه حدا لنشاطه في الكونغو ، كذلك خط دايال في تقريره نهاية مهمته كممثل خاص للامين العام في الكونغو . وما ان صدر تقرير دايال حتى دأبت اذاعة الكونغو في ليوبولدفيل على نفث سمومها ضد دايال ودعوة الشعب الى العنف ، بحيث اعتقد كل من في ليوبولدفيل ان انقلابا قريبا محتوما سيقع ضد القوات الدولية في الكونغو . اما صلتنا بموبوتو ونظامه ، فقد انقطعت تماما ، ولم يبق من همزة وصل بيننا سوى احد ضباطنا ، جوني برتيوم . ذلك ان الكونغوليين اصروا على عدم التعامل مع الممثل الخاص للامين العام او مع اي من مساعديه . ولم يكن صعبا علينا ان نتصور أنفسنا محاصرين في ليوبولدفيل ، تماما كما كانت تجد بعض وحداتنا العسكرية المنتشرة في أرجاء الكونغو نفسها محاصرة من كل جهة ، على نحو ما حصل للايرلنديين في دوريتهم العسكرية ، مع فارق واحد هو انه كان بامكاننا ، نحن في ليوبولدفيل ، ان نخرق الحصار المضروب حولنا ونصل الى مطار ندجيلي الذي يبعد خمسة عشر ميلا عن ليوبولدفيل .

كان من الواضح في ليوبولدفيل ان الاساليب الدبلوماسية والطرق البهلوانية لم يبق لها نفع أطلاقا . لقد انيطت بنا مهمة حفظ السلام في الكونغو ، وكان يجب أن نقر ونعترف بأن القوة هي العنصر الوحيد الذي كان بمقدوره ان يفرض الاحترام في ذلك البلد البدائي .

كم انشرح صدري لوصول فرقة جديدة من الملايو الى ليوبولدفيل ، اذ بدا لي حسن تدريبها وقوة تنظيمها ، منذ اللحظة التي استعرضتها فيها . وقد دعم وجودها في ليوبولدفيل الهدوء والاستقرار ، مما حملني على ان اغتنم الفرصة لازور بعض قواتنا خارج ليوبولدفيل .

زرت ، اول ما زرت ، فرقة الجمهورية العربية المتحدة الملقبة بالشيطان والموجودة في جيمينا ، على بعد سبعماية ميل من ليوبولدفيل . اجتمعت

بقائد الفرقة الكولونيل شاذلي ، فلفت نظري وجود طائرة تخص الجمهورية العربية المتحدة لا شعار للامم المتحدة عليها ، كما انها لم تكن مدرجة على قائمة الطائرات الموجودة لدينا . فهل كان الكولونيل شاذلي لا يزال يقوم بنشاطه الخفي ، كالزيارات التي كان يقوم بها ، بين الفينة والاخرى ، الى جوبا ، في جنوب السودان .

عندما استعرضت فرقة « الشيطان » ، وجدت انها فرقة ممتازة ومدربة تدريبا حسنا جدا . غير انني ما زلت مرتابا بأن الفرقة كانت تتلقى « أوامر غير رسمية » تتعارض كثيرا مع اوامري . وقد تعلمت ، بثمن باهظ ، مدى التأثير السيء الذي تتركه حالة كهذه في مهمتنا العسكرية . وبالرغم من التقرير الواضح الذي بعثت به الى نيويورك عن تصرفات الفرقة المصرية ، فان الفرقة تابعت العمل معنا في الكونغو .

لا شك عندي في ان نشاط القوات الدولية في الكونغو امر فريد من نوعه في تاريخ الامم المتحدة العسكري . فقد كانت هذه القوات خليطا من الوحدات العسكرية التي اختلفت كل واحدة منها عن الاخرى اختلافا كليا . الا ان الكونغوليين لم ينظروا الى الاختلاف ، بل الى مظاهر السلوك المشترك فيما بينها ، كقوات عاملة تحت راية الامم المتحدة .

ومن حق الجراة علينا ان نعترف بان نجاح القوات الدولية في انقاذ آلاف الانفس في الكونغو انما اعتمد كليا على التنظيم العسكري الغربي ، والتدريب العسكري الغربي ، والمعرفة الفنية لدى القوات الغربية ، كما اعتمد على هذه الخصائص نفسها التي ورثتها قوات الدول الجديدة عن الدول الاستعمارية .

كانت مهمة اعادة الامن والاستقرار الى الكونغو مهمة صعبة جدا ، ان لم تكن مستحيلة . ذلك ان ما اعطيناه من صلاحيات كان مستحيلا ، جلب لنا عداوة كل انسان وسبب لنا العيش في جو من الكراهية . كان لا مفر من ان نصل الى مرحلة كره فيها جنودنا عملهم . ولو لم يكن جنودنا من العسكريين النظاميين الذين مارسوا حياة الجندية مدة طويلة، لما استطاعوا الاستمرار على العمل تحت تلك الظروف الصعبة .

عدت الى ليوبولدفيل فوجدت عدة برقيات من نيويورك تعرب فيها عن قلقها من عزم موبوتو على اقامة عرض عسكري للقوات الكونغولية الوطنية يتبعه عرض آخر قرب المطار لفرقة المظلات . ولم يكن يبعد الا خمسة عشر ميلا عن ليوبولدفيل .

كنت شخصيا اولي موبوتو اهتماما خاصا . فقد بدا لي ، بخلاف لومومبا ، سياسيا وطنيا مخلصا لا يملك الوقت الكافي للعب بالسياسة على

الطريقة الشيوعية او بالتحالف معها خصوصا وانه لم يكن للشيوعية مستقبل في الكونغو . وكان موبوتو بعيدا عن كل مصلحة شخصية . وهو انما انتزع الحكم ليمنع البلاد من التفكك والانهيار . ومن الحق الاعتراف بالنواقص التي افتقر اليها ، منها ان حكمه لم يكن معترفا بـه رسميا ، وانه هـو شخصيا كان ذا طموح ونزعة ديكتاتورية وعلى خلاف معنا ومع لومومبا ، وانه كان عاجزا عن السيطرة على القوات الوطنية الكونغولية . والى جانب هذا يصح ايضا القول بأن موبوتو كان يمثل عنصر الاستقرار الوحيد في الكونغو .

كـان موبوتو مهتمـا باقامة العـرض العسكري المشار اليـه ، بالرغم من معارضة دايال ، لاقامة الدليل على انه كان يتمتع بتأييد القوات الكونغولية القادرة على دعم حكمه .

في أول الامر ، كانت تعليمات نيويورك واضحة ، تقضي بمنع اقامة العرض في المدينة أو قرب المطـار . لكن لم يكن في مقدورنـا تنفيذ هذه التعليمات . ذلك لاننا ، في الواقع ، لم نملك ما يتيح لنا ان نحدد للقوات الكونغولية الوطنية ما كان لها ان تفعله او لا تفعله بعد ان امر رالف بنش باعادة الاسلحـة اليها .

كان دايال ، ولا شك ، وراء قلق الامم المتحدة وتصميمها على منع العرض العسكري . اذ كان دايال يرفض التعامل مع موبوتو ، مدفوعا ، في ظني ، بشعور شخصي اعماه عن رؤية الامور بوضوح . ولم يكن لدي الوسيلة للتثبت من حقيقة هذا الظن . ذلك ان دايال فارقنا الى نيويورك ليشرح تقريره بنفسه .

وحين غادرنا دايال ، عين الجنرال ريكهي نائبـا له في الكونغو . وعارض ريكهي ، بادىء الامر ، اقتراحي السماح لموبوتو بأن يقيم عرضه العسكـري ، واعارتـه احـدى طائراتنـا لتنفيذ عـرض جنـوده المظليين قرب المطار . لكنه وافقني ، فيما بعد ، على اقتراحي وساعدني على اقناع نيويورك بذلك .

كان الجنرال كتاني يشرف على تدريب القوات الكونغولية . وكانت التقارير التي امدني بها كافية لتجعلني اتوقع فشل عرض موبوتو العسكري. وقد صح ما توقعته . فاقتنعت ان لا سبيل الى اعادة القوات الكونغولية الى سابق مجدها وفعاليتها ، الا اذا توفر لها ضباط فنيون من البلجيكيين او الاوروبيين . ولما كان هذا التفكير يعتبر بمثابة كفر ، خصوصا اذا جاء من القائد الاعلى لقوات الامم المتحدة ، فقد احتفظت به لنفسي .

بعد مغادرتي الكونغو بوقت قصير ، اخذ الجيش الاسرائيلي على

عاتقه تدريب المظليين الكونغوليين . وقد ذهب بعضهم الى الارض المقدسة وتدربوا في اسرائيل ثم عادوا الى الكونغو ودربوا رفاقهم .

وبعد ظهر ٢١ تشرين الثاني ، اذ كنت في قيلولة ، دخل الضابط الطبيب وجلس قرب فراشي ، كأنما كان على موعد سابق معي ، وشرع فورا بفحص ضغطي الدموي . ثم دخل الكولونيل كابور ، وهو ضابط هندي يرئس قسم الصحة في قواتنا . لم انزعج اطلاقا عندما اخبرني الطبيبان بأن ضغطي عال لدرجة خطرة . لكنني عجبت كيف انه لم ينفجر اثناء عراكي مع رالف بنش . ولم ابتهج حين امرني الطبيبان بان ابقى في الفراش ، على ان آخذ اجازة في اقرب وقت ممكن .

وجاءتني مكالمة تلفونية من الكولونيل اسمر ، قائد الوحدة التونسية ، ردتني الى الواقع . اراد الكولوتيل ان يعرف الفائدة من حراسة مسكن سفير غانا ، أندرو دجن ، وهو الذي كان يشكل خطرا اكيدا على البقية الباقية من حسن علاقتنا بموبوتو . وكنا نعلم الدور الذي يلعبه دجن ، كمستشار للومومبا . ولم نفاجأ اطلاقا عندما سمعنا موبوتو مؤخرا ، يعلن سفير غانا اندرو دجن ، وممثل نكروما الخاص ناتانيال والبك ، الذي حل محل الجنرال الكسندر ، شخصين غير مرغوب فيهما . والمهم انه لم يكن لدي تعليمات جديدة تقضي بتخفيف الحراسة حول منزل سفير غانا . فقلت للكولونيل أسمر ان افكاره الشخصية فيما يتصل بنشاط سفير غانا وموظفيه لا تمنعنا عن القيام بواجب تأمين الحراسة لسفارته والحرص على أن لا نكون سبب قطع العلاقات بين أكرا وليوبولدفيل .

وسمعت الكولونيل أسمر يتذمر على خط التلفون . لكنني كنت متأكدا من انه سينفذ تعليماتي بحذافيرها . ولم أكن أعلم ، آنذاك ، أن التونسيين سيستميتون في سبيل تأمين تلك الحراسة .

كان الطبيب قد اعطاني منوما فنمت نوما عميقا . الا انني استيقظت على سماع طلقات نارية آتية من جهة سفارة غانا . واستمر اطلاق النار من رشاشات اوتوماتيكية مدة طويلة . فطلبت من مساعدي الخاص ان يتصل بجوني برتيوم ويسأله عما يجري . ولم انتظر الجواب ، لان المنوم كان كافيا لاعادتي الى النوم فورا .

وفي صباح اليوم التالي ، علمت ان الجنود التونسيين شاهدوا ، عند الغروب ، حية في الجنينة المحيطة بسفارة غانا . ويبدو ان قتلها استهلك كمية كبيرة من رصاص بنادقهم الحربية . وحين سكتت نيران بنادقهم ، وصل موظفان ارسلهما موبوتو لمقابلة السفير الغاني وابلاغه وجوب مغادرة البلاد في الحال . لكن الحرس التونسيين رفضوا السماح لهما بالدخول .

وهدد مبعوثا موبوتو ، عندئذ ، باستعمال القوة لشق طريقهما الى داخل السفارة . وفيما هما في جدال كلامي مع التونسيين ، فتحت جماعة من القوات الكونغولية نيران رشاشاتها الاوتوماتيكية وحاولت دخول السفارة . غير ان التونسيين تمكنوا من ردهم على اعقابهم ، بعد ان تبادلوا معهم الرصاص طيلة الليل . ثم حاول بعض الجنود الكونغوليين شق طريقهم الى داخل مستشفى قواتنا ، لاشرافه على السفارة الغانية ، ففشلوا وعادوا الى الاختباء حول حديقة السفارة واطلاق النار حتى طلوع الفجر .

وفي الصباح تبين ان تونسيا واحدا قد قتل وان سبعة قد جرحوا ، فيما خسر الكونغوليون قتيلا واحدا هو الكولونيل كوكولو ، قائد القوات الكونغولية في ليوبولدفيل . وكنا قد حسبنا ان عدد قتلى الكنغوليين اكثر من واحد .

اكفهر الجو بسرعة . وتفاقمت حوادث الشغب بحيث منعنا موظفينا من التجول في المدينة . واهتممنا كثيرا بجثة الكولونيل كوكولو ، لانه كان جنديا ممتازا وكثير الاتباع . وكان لموته ، كما توقعت ، ردة فعل عنيفة . فبدأ أنصاره يتجمعون في المدينة ويتهمون قوات الامم المتحدة بأنها قتلت قائدهم كوكولو واكلته . وسرت الاخبار بسرعة ، في طول الكونغو وعرضه ، تؤكد أن جنود الامم المتحدة هم من اكلة لحوم البشر . وعندما تجمع عدد كبير منهم أمام مقر القيادة العام ، تولى الجنرال ريكهي تسليمهم جثة الجنرال القتيل كاملة كما وجدناها . ثم خاطبهم قائلا ان قواتنا لا تأكل لحوم البشر . وبعد ايام ، شيعته الكونغو بجنازة رسمية لم تشترك فيها الامم المتحدة .

ثم اخذت اجازتي . وقبل مغادرتي الكونغو ، علمت ان لومومبا قد اخترق الحصار الذي ضربته القوات الكونغولية حول بيته في ليوبولدفيل ، وهرب في اتجاه ستانليفيل . وكنا نعلم بمحاولة لومومبا اقامة نظام جديد في ولاية اوريانتال . وما من شك في ان طرد السفير الغاني ، وممثل نكروما الخاص من ليوبولدفيل ، وانتصار كازافوبو بحمل الامم المتحدة على قبول وفده ، دفعا لومومبا الى الهرب من ليوبولدفيل للقيام بعمل سريع حاسم .

وعندما اكتشف كازافوبو وموبوتو هرب لومومبا ، طلبا من ريكهي القاء القبض عليه ، لانهما كانا يعلمان بانه في طريقه الى ستانليفيل . وبناء على تعليمات دايال ، رفض ريكهي تنفيذ طلبهما ، تمشيا مع سياسة الامم المتحدة القاضية بعدم التدخل في شؤون الكونغو الداخلية . وفي اول كانون الاول القي القبض على لومومبا . وظن اكثرنا ، في قوات الأمم المتحدة ، ان القبض على لومومبا سيعيد بعض الهدوء الى الكونغو . ذلك ان وصول لومومبا الى ستانلفيل كان سيؤدي الى اشتعال الكونغو كليا . وكنا قلقين من مدى ردة الفعل عند بعض وحداتنا عندما يصلهم خبر لجوء لومومبا الى

الهرب . ولم ننتظر طويلا ، اذ طلبت الفرقة العسكرية الغانية انقاذ لومومبا في الحال . فاحلنا طلبها الى دايال فرفضه .

واعيد لومومبا الى ليوبولدفيل في اليوم التالي . ورآه جنودنا في المطار ، وعليه آثار الضرب المبرح . ثم نقل الى مخيم هاردي في ثيزفيل . وجلس موبوتو وكازافوبو في ليوبولدفيل يحتفلان بالقبض عليه . غير ان بعض اعوان لومومبا استطاعوا التسلل الى ستانليفيل ، حيث توقعنا ان يكون رد الفعل عنيفا هناك .

وصح ما توقعناه . ففي ٩ كانون الاول ، هددت حكومة ستانليفيل المحلية بالقاء القبض على جميع البلجيكيين اذا لم يطلق سراح لومومبا في مدة ثماني واربعين ساعة. وقد الحوا في تهديداتهم الى امكان تنفيذ الاعدام بهم. في هذه الاثناء ، كانت فرقة من قواتنا في المطار تتأهب للعودة الى بلادها الملايو . واذ كنت سأغادر الكونغو في اجازة ، فقد صممت على الذهاب الى المطار لوداعها ، مهما كانت الظروف .

كانت فرقة الملايو فرقة رائعة ممتازة في كل شيء . وقد ظهر ذلك جليا عندما استعرضتها في المطار. وفي نهاية العرض ، قدم لي اعضاء الفرقة هدية جاؤوا بها خصيصا من الملايو . فألقيت فيهم كلمة وداع ثم شعرت بتعب شديد . واتضح لي ان الصراع المستمر الذي خضته مع نيويورك ، ومع رالف بنش ، فضلا عن الصدمات التي تلقيتها ، قد اثرت كثيرا في صحتي . وكان عزائي الوحيد ان ذلك قد ساعد على تخفيف العبء عن كاهل جنودنا الذين اتوا من مختلف البلدان ليعملوا بهمة ونشاط تحت راية الامم المتحدة .

ولم يكن يفصلني عن موعد رحيلي سوى بضع ساعات ، حين التقيت بالجنرال شون ماكوين ، قائد القوات الايرلندية الذي جاء يزور الفرقة العسكرية التابعة لبلاده في كاتنغا . ولم يكن احد منا يعلم ، آنذاك ، انه سيخلفني في مركز القائد الاعلى لقوات الامم المتحدة في الكونغو .

وفي مساء ١٢ كانون الاول ، غادرت مطار ندجيلي على طائرة اخذت تحلق بي فوق التلال الخضراء المحيطة بليوبولدفيل ، وفوق نهر الكونغو الاحمر اللون .

# فلسطين : للمرّة الثانية

# الفصل التاسع عشر

ما اجمل ان يعود الانسان الى بيته وينام اثنتي عشرة ساعة دون انقطاع . وما أجمل ان يغفو الانسان في كرسي هزاز ويفتح عينيه ليرى ان الشتاء بدأ يظهر في الريف السويدي .

غير ان الجو داخل منزلي كان غير ذلك . فمنذ وصولي لحظت أن صحة زوجتي ، سكارليت ، لم تكن على ما يرام .

لكل عائلة نصيبها من الاحزان والافراح . ولم تشذ عائلتنا عن هذه القاعدة . كنت اعتقد ان الاحزان والافراح خصوصيات عائلية لا يليق بأن تجد طريقها الى النشر . لكن الاحداث التي جرت لنا في السنتين التاليتين ارتبطت ارتباطا وثيقا بتلك المأساة الخاصة ، بحيث اصبحت جزءا لا يتجزأ منها .

كنت على يقين ان الواجب سيدعوني لا الى الكونغو والحمد لله ، بل الى فلسطين . ولم يكن من السهل رفض دعوة همرشولد الى الواجب . اضف الى ذلك انني كنت اتلقى رسائل مزعجة من القدس ، منذ ان وصلت الكونغو . وكنت أعلم ان الثعلب « فيجيه » كان قد أرسل كتابا خاصا الى همرشولد يخبره فيه بالوضع المتدهور في الهيئة ويحثه على اعادتي الى هناك في أقرب وقت ممكن .

جاءت دعـــوة همرشولد لي بالعودة الى لجنة المراقبة في فلسطين اسرع مما توقعت . فوجدت نفسي امام مشكلة صعبة . لا شك أن زوجات الجنود اعتدن على الاجازات القصيرة ورحيل ازواجهن المفاجيء . لكن الوضع الذي وجدت نفسي فيه لم يكن عاديا . ذلك ان زوجتي كانت مريضة ولم يكتشف الاطباء سوى ضعف عام وتصلب في الشرايين سببهما لها قلقها علي في الكونغو . وقد الححت عليها بالمجيء معي حتى اكون بجانبها واسهر عليها في القدس . فرفضت في بادىء الامر ، لكنها وافقت فيما بعد . فسرني ذلك لاعتقادي ان شمس فلسطين ستفيدها كثيرا .

في آخر كانون الثاني ١٩٦١ ، عدت بالطائرة الى القدس . بدا أن كل شيء بقي على حاله ما عدا جو القصر الـــذي تغير علي . وكم سر

« الثعلب » فيجيه حين رآني . وكذلك فرح بعودتي الكولونيل ريكيرت الذي كان يشغل منصب كبير المراقبين الدوليين بالوكالة طيلة مدة غيابي . ولم يكن الموظفون الاخرون اقل سرورا للقائي ، ما عدا جورج جاناك ، التشيكي الاصل ، الذي بقي بعيدا يحملق بي كأني شبح عاد من عالم الاموات . ولم ألم جاناك على ذلك اذ كان يعتقد انني لن اعود ابدا الى القدس .

وفي الايام التالية ، حاولت ان اقف على تفاصيل ما جرى في غيابي . فتحدثت الى الجميع ما عدا جاناك الذي بقي بعيدا في مكتبه .

ثم قسمت العمل على جبهتين : جبهة دراسة التطورات التي جرت مدة غيابي ، وجبهة الكشف عن الاسرار التي احاطت بالصراع الداخلي في اللجنة الدولية لمراقبة الهدنة في فلسطين . كنت قبل ان اغادر القدس ، قد حذرت ريكيرت بأن لا يسمح لجاناك بتسيير امور البعثة ، وان بامكانه اللجوء الى معونة فيجيه عند الحاجة . ومع هذا ، فقد وجدت انني ، بعد سبعة اشهر من غيابي ، امام حالة اصبح فيها ريكيرت ، وفيجيه ، والبير غرانت ، وهانسن ، في يأس مرير . ووجدت ايضا ان اجراءات الامن التي كنت قد اتخذتها سابقا لم تعد موجودة ، وان الروح المعنوية عند الموظفين انحدرت الى درجة الصفر .

فما الذي جرى ؟ لقد تجاهل جاناك جميع الموظفين الاخرين في البعثة ، واخذ يستأثر بجميع السلطات . فبعد بضعة ايام من مغادرتي القدس ، اعطى هانسن ، رئيس قسم الامن في البعثة ، الى جاناك جدول الرموز التي كنا نستعملها مع جميع محطاتنا خارج القدس . وحسب نظام البعثة كانت مسؤولية التوقيع على هذا العمل ، حسب نظام البعثة ، من صلاحية كبير المراقبين الدوليين بالوكالة ، اي ريكيرت . وقد اعطي الجدول الى جاناك ، للعلم فقط . لكنه ما ان رأى توقيع ريكيرت عليه ، حتى استشاط غضبا وقال لهانسن ان التوقيع على الجدول من شأنه هو لا من شأن ريكيرت . فاحتج ريكيرت ، لكن جاناك لم يلبث ان تغلب عليه . فكتب لي الى الكونغو يعلمني بالامر .

وما ان ربح جاناك هذه المعركة ، حتى شرع يوسع سلطته ، محاولا تسليم البعثة الى المدنيين على حساب العسكريين . واول ما فعله انه سيطر على قسم المواصلات في البعثة . وذات يوم اكتشف رئيس هذا القسم ميكروفونا اخفاه الاسرائيليون في المركز الرئيسي للجنة المراقبة المشتركة الاردنية الاسرائيلية . ومع ان هذه مسألة تجسس خطيرة ، فقد ابعد جاناك ضابط الامن في البعثة عن التحقيقات التي كانت من اختصاصه ، وتولاها هو بنفسه .

لم يسمح لي الوقت ببحث تفاصيل هذه القضية مع جاناك . ففي اول اجتماع بيننا ، لم يتكلم جاناك كثيرا ، وكذلك في الاجتماعات التالية . ثم اكتشفت انه كان مريضا جـدا ، وان عودتي التي لم ترق لـه ، اتعبت اعصابه . فقررت ، عندئذ ، صرفه من العمل في اللجنة ، بسرعة . فوضعت تقريرا سريا ارسلته الى كورديه ، بعد ان اطلع عليه ريكيرت وفيجيه ووافقا عليه . لكن جاناك رفض ان يوقعه ، وغادر القدس مهددا متوعدا .

بقيت اللجنة ، لمدة طويلة ، بدون رئيس لقسم الادارة . وفي هذه الاثناء ، اعدنا التنظيم السابق . ثم جاءنا فيكتور ميلز ، وهو اميركي حلو المعشر ، خلفا لجاناك .

كان الهدوء مخيما على القدس حين عودتي اليها . وكانت اسرائيل قد اقتنعت موقتا بان افتعال الحوادث على الحدود لم يعد يثير عطف اوروبا واميركا عليها . وبالرغم من الجهود الاعلامية الاسرائيلية لاستغلال تلك الحوادث المفتعلة ، فان الدول الكبرى بدأت تمل الاستماع اليها وتشك في صحتها كما بدأت تنظر بعين ناقدة الى الخطب التهديدية التي كان يطلقها رئيس الوزراء بن غوريون ووزراؤه . اضف الى هذا ان حوادث الكونغو كانت قد حولت انظار العالم عن الارض المقدسة . وفوق هذا وذاك ، فقد قررت حكومة اسرائيل انه ليس من الحكمة ان تفتعل الحوادث على الحدود، وهي تهيء مسرحية عن الجرائم التي ارتكبها النازيون لمناسبة محاكمتها لادولف ايخمان ، هذه المحاكمة التي ارادت اسرائيل ان تلفت انظار العالم اليها .

كانت تلك السنة صعبة على اسرائيل . ذلك ان مضاعفات قضية « لافون » كانت لا تزال تدوي في البرلمان الاسرائيلي .

ففي ١٩٥٥ — ١٩٥٦ ، اكتشفت السلطات المصرية شبكة تجسس اسرائيلية في القاهرة . وبعد محاكمة مطولة ، قضت على بضعة اعضاء في تلك الشبكة بالاعدام وعلى البعض الاخر بالسجن مدى الحياة . غير ان المحاكمة اظهرت ان نشاط الشبكة لم يكن نشاط تجسس عادي ، بل كان نشاطا يهدف الى اذكاء روح العداء نحو الولايات المتحدة بين المصريين وقد نجحت الشبكة ، بعض الشيء ، في تحقيق هذا الهدف العجيب . وعندما وضع اللوم مباشرة على قسم الاستخبارات الاسرائيلية ، وضعت هذه الاخيرة اللوم بدورها على وزير الدفاع مدعية بأنها فعلت ما فعلته بأمر من وزير الدفاع . وابرزت وثيقة الامر موقعا عليها بامضاء الوزير . لكن التوقيع ، كما تبين فيما بعد ، كان مزورا . ولم تكشف السلطات الاسرائيلية الحقيقة عن هذه القضية ، الا ان المعروف هو ان عقيدين استقالا من الجيش . وبقيت القضية تثير الجدل وردود الفعل العنيفة في البرلمان

الاسرائيلي لسنين عديدة . والان ، وقد اقتربت محاكمة ايخمان ، عمدت اسرائيل الى محو الصورة البشعة التي تركتها قضية « لافون » في اذهان الناس .

تلك كانت الاسباب التي جعلت اسرائيل تصرف النظر مؤقتا عن افتعال الحوادث على الحدود ، مما افاد هيئة مراقبة الهدنة بطريقة غير مباشرة . اما علاقة اسرائيل المباشرة بهيئة مراقبة الهدنة فقد استمرت على اساس من الغش والعداوة وتشويه الحقائق . وكان يتضح مع مرور الايام ان غضب اسرائيل على الدول العربية قد تحول كله الى غضب على بعثتنا . وفي الايام الاولى بعد عودتي الى القدس ، استأثرت قضية جبل سكوبوس بمفاوضاتنا مع اسرائيل . وتبع هذه القضية اعلان اسرائيل عن عزمها على اقامة عرض عسكري في القدس لمناسبة عيد الاستقلال . واذ كان هذا العمل يشكل خرقا لاتفاقية الهدنة ، فقد كان على لجنة المراقبة المشتركة ان تدين اسرائيل .

غير ان ذلك لم يمنع اسرائيل من اللجوء الى جدل قانوني يهدف الى عرقلة صدور قرار اللجنة قبل القيام بالعرض . لكن اللجنة استطاعت اصدار قرار الادانة ، مما اثار غضب اسرائيل ، فشنت حملة عدائية سامة ضدي ، وضد فيجيه وضد الكولونيل بيرن ، رئيس لجنة المراقبة المشتركة ، آنذاك .

ماذا فعلنا حتى نستحق هذه الحملة العدائية ؟ لم نفعل شيئا سوى اننا طبقنا سياسة الامم المتحدة واحكام اتفاقية الهدنة التي وقعت عليها اسرائيل .

ليست هذه الحوادث مهمة . لكنني اذكرها لابين الصعوبات التي كانت تعترضنا . وما من شك في ان ليس هناك من دولة في العالم ، قادرة كاسرائيل ، على اثارة غضب الجندي او حتى الموظف الدولي . كانت اسرائيل تعلم بان لا مفر للجنة المراقبة المشتركة من ادانتها اذا اصرت على اقامة العرض . ومع ذلك طلبت من اللجنة عقد اجتماع دام من الساعة التاسعة صباحا حتى الساعة الثانية والنصف من صباح اليوم التالي ، حين اعيت المندوب الاسرائيلي الحيل لعرقلة اتخاذ قرار . لكن اللجنة اصدرت قرار الادانة فور خروج المندوب الاسرائيلي من الاجتماع .

وصرفت الدعاية الاسرائيلية اهتمامها الى محاكمة ايخمان . وهكذا وجدنا انفسنا بعيدين عن حوادث الحدود ، مما اتاح لي فرصة وضع تقرير عن مهمتي في الكونغو ، بعثت به الى همرشولد ، على امل ان ما تضمنه من ملاحظات يساعد الامم المتحدة على تعزيز مهمتها العسكرية في المستقبل .

وكنت اعتقد ان هذا التقرير يستحق ان يصبح وثيقة من وثائق الامم المتحدة ، وانه سيضم الى الملفات الهامة ، ولكن تبين انه لم يكن موجودا هناك على الاطلاق . واني اذكر هذا التقرير لأبين ان الامم المتحدة لم تكن على استعداد لتقييم مهمتها في الكونغو والافادة من اخطائها الماضية .

في ايار قدر لي ان اقف على حادث مؤسف وقع في الامانة العامة للامم المتحدة . فقد جاء اندرو كورديه الى بعثتنا في القدس بصورة رسمية لكنني اكتشفت بعد وصوله بقليل ان اضفاء الصبغة الرسمية على زيارته لنا كان شكليا . والواقع هو ان كورديه جاء القدس لينتظر رد همرشولد على كتاب استقالته ، وذلك لمساعدة الامين العام على مواجهة التهمة التي وجهها الاتحاد السوفياتي وكتلته الى الامين العام ، وهي انه يحيط نفسه بمستشارين ذوي ميول غربية .

كان اندرو كورديه رجلا عظيما وذكيا وهب افضل سنين حياته لخدمة الامانة العامة للامم المتحدة . وفي مدة اقامته في القدس ، تكلمنا كثيرا عن الحاجة الى تعديل ميثاق الامم المتحدة ، وعن فشل اللجنة العسكرية في اداء مهمتها من جراء الفيتو ( حق النقض ) في مجلس الامن .

واخيرا جاء رد همرشولد . كنت متأكدا من ان كورديه كان يعرف مضمون البرقية قبل ان يفتحها . لكن الانسان مطبوع على الامل ، وقد كان عند كورديه بصيص منه .

فلما فتح كورديه البرقية وقرأها ، تبينت من ملامح وجهه ان همرشولد قد قبل استقالته . ولما كان كورديه رجلا عظيما فقد تصرف بطريقة تتناسب مع عظمة شخصيته . وهكذا خسرت الامم المتحدة واحدا من اكفاء موظفيها .

# الفصل العشرون

كنت دائما اعتقد ان وزيرة خارجية اسرائيل تتمتع بشخصية فذة . كانت شخصيتها تشع جاذبية ، لكنها جاذبية سرعان ما تتحول الى عكسها بسرعة مذهلة . حتى ذلك التاريخ ، كان مقدرا لعلاقتي الرسمية بها ان تشهد الجانب غير المشرق من شخصيتها . اقول حتى ذلك التاريخ ، لانني ، في اوائل تموز ، اي بعد عودتي الى القدس ببضعة اشهر ، تلقيت دعوة لحضور حفلة استقبال اقامتها السلطات الاسرائيلية على شرف رئيس جمهورية الفولتا ، لمناسبة زيارته لاسرائيل . وفي هذه الحفلة ، وجدت نفسي ، دون سابق انذار ، استمع بذهول امام الرئيس يامياغو واعضاء السلك الدبلوماسي الى كلام المديح والثناء الذي كانت تخصني به السيدة غولدا ماير ، والى تقديرها وتقدير حكومتها للجهود التي بذلتها في المدة الاخيرة للمحافظة على السلم والهدوء في منطقة الحدود .

لم اعتد على هذا الاطراء من قبل . وكنت متأكدا انني لن اسمعه مرة اخرى . لكن الظروف كانت غير عادية ، اذ انني كنت اعلم بأن الحوادث على الحدود الاسرائيلية السورية ، في الفترة الواقعة بين ١٩ حزيران و ٩ تموز كانت مزعجة لكلا الجانبين . وكان كل منهما يتوق لوضع حد لها . وكان للسوريين ، وما يزال ، مشاكلهم الداخلية . اما الاسرائيليون فان عطف العالم الخارجي عليهم تدنى الى درجة لم يسبق لها مثيل . حتى ان فرنسا ، اكثر الدول تفهما لوضع اسرائيل ومشاكلها ، وجدت من الضروري ان تذكر رئيس الوزراء ، بن غوريون ، بأن هناك دولا اخرى لا تقل حاجتها الى المساعدة والعطف عن حاجة اسرائيل . وبالاضافة الى فرنسا ، وجدت دول كثيرة اخرى ان من المناسب ان تنصح اسرائيلبعدم التورط في حرب وقائية كان قد دعا اليها رئيس الوزراء ، بن غوريون ، في بيان القاه في مرفأ ايلات . وفوق هذا وذاك ، كانت هناك قضية محاكمة ايخمان التي اثارت رد فعل سلبي في العالم ، خلافا لما توقعته اسرائيل .

وهكذا بدا ، للمرة الاولى ، ان جميع اسباب السلم والهدوء متوفرة . لكن خطر الانفجار كان موجودا وحقيقيا ، بحيث ان الفريقين كانا يعبئان

قواتهما في المناطق المجردة من السلاح . وقد حاولت كثيرا ، لتخفيف التوتر ، ان اجمع المعلومات عن كل ما يقوم به الفريقان . لكنني ، كالعادة ، اصطدمت برفض الجانب الاسرائيلي التعاون معنا . اما الجانب العربي ، فقد شجعني موقفه الايجابي . واذا كنت قد احرزت بعض النجاح في مهمتي ، فمرد ذلك الى الروح الايجابية التي لمستها عند جميع الشخصيات العربية المسؤولة ، بدون استثناء ، خصوصا صديقي الشخصي اللواء حلمي ، مدير الشؤون الفلسطينية في القاهرة .

كانت الغرابة في هذا كله ان تعاون العرب معي حمل اسرائيل على السكوت عن محاربتي في تلك الفترة على الاقل . وفي هذا الجو الهادىء ، وجدت رئيس الجيش الاسرائيلي ، الجنرال زفي تزاور ، ونائبه الجنرال رين ، يتناولان معي طعام الغداء ، في مقر البعثة في القدس . وهذا ما لم اعتد عليه من قبل . وعند الانتهاء قدمت هدية الى الجنرال زفي تزاور هي كناية عن بندقية صنعت محليا في الكونغو . وبعد اسبوع ، دعاني الجنرال زفي الى تناول طعام الغداء على مائدته ، وقدم لي كهدية رشاشا محلى بالنقوش .

كانت تلك الفترة فترة راحة واستجمام لي ، لم يعكر علي صفوها سوى قلقي على صحة زوجتي سكارليت . كانت سكارليت تكتب لي باستمرار . ولا انكر ان البريد وصلنا مرة دون ان يكون لي فيه رسالة منها تتضمن اخبارا عن جوهان وتقريرا عن حياتها اليومية . لكن رسائلها توقفت منذ مدة . وكان اطباؤها يكتبون لي . غير ان رسائلهم كانت مبهمة لا تعطي صورة واضحة عن صحتها . فصممت على العودة الى السويد لاقف على الوضع بنفسي ، وهكذا وجدت الطائرة تقلع بي من مطار بيروت لتنقلني الى «مالمو» في السويد .

كانت جميع مخاوفي في محلها . ففي الشهور القليلة الماضية انتقلت سكارليت من طبيب اختصاصي الى آخر ، دون ان يستطيع واحد منهم ان يضع حدا للنوبات القلبية المتعاقبة التي كانت تنتابها . وكنت فخورا بها منذ تزوجتها ، وكنت اعتقد ان جمالها لا يضاهيه جمال امراة اخرى في العالم . اما الان ، فقد سلبها المرض هذا الجمال ، حتى خيل الي انني سأفقدها . وما كان لي الا ان اقنعتها باللحاق بي الى القدس ، مع جوهان ، في الخريف المقبل .

وفيما كنت استقصي حالتها الصحية من اطبائها الاخصائيين ، تلقيت نبأ وفاة الامين العام همرشولد . فتصورت امامي البقعة المليئة بالادغال التي كان يطير فوقها همرشولد في طريقه الى مطار ندولا في روديسيا الشمالية . وقع الحادث في الليل . وهكذا فجاة وبدون انذار قضي على

حياة رجل عظيم . لم أنــم تلك الليلة . وتردد في ذاكرتي صوته والساعات التي قضيتها معه . وصعب علي ان اصدق انه رحل عنا . ولم يكن عندي شك في ان « قصر الزجــاج » لن يبقى كما كان بعــد ان رحــل عنــه همرشولــد الى الابــد .

بقيت في السويــد لاكــون في استقبال جثمان همرشولــد . وفي الكاتدرائية ، في اوبسالا ، لف نعشه بعلم الدولة . وجلس الــى جانب النعش افراد العائلة الملكية السويدية ، والى الجانب الاخر افراد عائلته . وحضر ممثلو الجمعية العامة للامم المتحــدة يتقدمهم رئيسها المنجي سليم من تونس ، وممثلــون عن امانتهــا العامة ، وممثلو رؤساء دول عديدة . وشعرت بأن مــوت همرشولد كان مأساة للامم المتحدة نفسها ، تماما ، كما شعرت بأن استقالــة اندرو كورديه من الامم المتحدة كانت مأساة لتلــك المنظمة ايضا . مات همرشولد في اوجه ، حين اعطــي منصب الامــين العام للامم المتحدة سلطات لم يعطها من قبل . كان لهمرشولد اخطاؤه . منها انه كان غامضا الى اقصى حد ، وكان يميل مع كل ريح سياسية ، بحيث صعب ، احيانا ، التمييز بين الدبلوماسية وبين اغتنام الفرص . غير انــه لم يحد عن مبادئه اطلاقا . ففي غابة « قصر الزجاج » السياسية في نيويورك ، كان همرشولد وحــده الرجل المتفاني في سبيل عملــه . والمحــزن حقا ان همرشولد مات وترك وراءه اسطورة الرجــل البارد ، المنكمش على نفسه .

كان همرشولد ، في حلقتــه الخاصة وبين اصدقائه انسانا بكــل ما في الكلمــة من معنى . انكر انه ، خلافا لارادته ، استجاب مرة لالحاح بن غوريون الشديد لزيارة أحدى المستعمرات الاسرائيلية الجديدة . وقد رافقته في تلك الزيارة التي ما أن بدأت حتى اتضح لنا ان الاسرائيليين لــم ينظموها الا لاستغلالها من اجــل الدعاية لاسرائيل . كــان المصورون يفاجئوننا عند كــل منعطف ، وعند كل زاوية ، ومــن وراء كل شجرة . وكان نهار تلك الزيارة طويلا ومتعبا لهمرشولد ولي ، ومع هذا بقي همرشولد مسيطرا على اعصابــه . وقدم لنا بن غوريون ، اعتزازا من الاسرائيليين بحياة التقشف والخشونة التي يعيشها سكان المستعمرات ، طعام العشاء في غرفة الطعام العامــة لسكــان تلك المستعمرة . وكان الطعام يتألف من قطعــة من الخبز وبعض الخضــار . وتكريما لهمرشولد ولي ، اعطي كل منا بيضة مقلية اعدتها زوجة بن غوريــون بنفسها . وفيما كنا نأكل ، تعمد بن غوريــون ان ينادي سكرتير المستعمرة الجديدة ويقدمــه الى همرشولد قائلا : « اقدم لك آخر ارهابي موجود في اسرائيل . » وفي اول فرصة سنحت لي ، فيما بعد ، قلت لهمرشولد ، ان « الارهابي الأخير » الــذي قدمه له بن غوريون لم يكن سوى يهوشع كوهــين ، احد قتلــة

الكونت برنادوت .

وقد اقنعني رد فعل همرشولد على تصرفات بن غوريون الغريبة بأن ليس عنده اية برودة او انكماش .

اثارت الظروف التي احاطت بمقتل همرشولد الشكوك عند الكثيرين . وانا منهم . لكنني منذ ذلك الحين ، تحدثت الى موظفين كبيرين شاركوا في التحقيقات التي تبعت مقتله . فتوصلت الى نتيجة واحده هي انه لم يكن ما يبرر تلك الشكوك اطلاقا . وقد قال لي احدهم ، وهو من اصدقائي ، ان مقتل همرشولد ، بالرغم من جميع الظروف الغريبة التي احاطت به ، انما وقع قضاء وقدرا . وكنت اعرف همرشولد جيدا . فقد كان آخر انسان في الدنيا يفكر بالانتحار .

عدت الى القدس في ١٥ تشرين الاول ، بعد ان اتخذت جميع التدابير اللازمة لالتحاق سكارليت وجوهان بي . وفي غيابي حدثت تغييرات هامة في سوريا . ففي أقل من ثلاث سنوات ، انفصل السوريون عن الجمهورية العربية المتحدة وعادوا دولة مستقلة . وفي زيارة قمت بها الى دمشق ، اكد لي الجنرال عبد الكريم زهر الدين ، رئيس القوات السورية ، بأن الحكم الجديد على استعداد للتعاون معي . وقد رأيت من الحكمة ان لا اسأل عن « الاصدقاء الغائبين » ، لأني تعلمت ان مثل هذه الاسئلة قد تؤدي الى النفي او السجن او الموت المفاجىء .

كان الوضع في القدس هادئا ، بالرغم من حدوث مشكلة صغيرة في منطقة سكوبوس تتعلق بحق القرويين العرب بالاسمدة الجافة . لكن الوضع في بحيرة طبريا بدأ يقلقني ، اذ كانت زوارق الدوريات الاسرائيلية على البحيرة تطرد صيادي السمك السوريين منها .

ان سمك بحر الجليل مشهور منذ ايام التوارة . وافضل منطقة للصيد فيه هي تلك المنطقة الواقعة الى الشمال الشرقي القريبة جدا من الاراضي السورية . كانت حدود فلسطين القديمة تتبع الشاطىء الشرقي على بعد عشرة امتار من المياه . ولما كان الاسرائيليون لا يعترفون الا بالحدود القديمة تلك ، فقد ادعوا ان البحيرة بأكملها ، وقطعة الارض الصغيرة تلك ، هي جزء لا يتجزأ من دولة اسرائيل . وهكذا رأى الاسرائيليون من حقهم ان يطردوا الصيادين السوريين وان لا يسمحوا لهم بالصيد هناك ، الا بموجب اذن مسبق تصدره السلطات الاسرائيلية . وبالطبع ، لم يطلب صياد سوري واحد مثل هذا الاذن . وقد بنى السوريون وجهة نظرهم على اتفاق حسن الجوار المعقود في ١٩٢٦ ، والذي اعطى حق صيد السمك في البحيرة للسوريين واللبنانيين ، اسوة بالفلسطينيين .

كانت الزوارق السورية ترمي شباكها في البحيرة ، ليلة بعد ليلة ، وهي تعلم ان المواقع العسكرية السورية المشرفة على البحيرة تؤمن لها الحماية . وكانت الزوارق الاسرائيلية المسلحة تسليحا خفيفا في الظاهر ، وثقيلا في الخفاء ، تراقب السوريين باستمرار .

وكان ان نجم عن هذا سلسلة من الحوادث كان آخرها هجوم شنه الاسرائيليون من البر ومن البحيرة على موقعين سوريين ، هما مزرعة بطيحة والكرسي ، الواقعان في الشمال الشرقي للبحيرة . فقتلوا ستة وخمسين سوريا ، بينهم ثلاثة نساء . وكان زميلي السابق الجنرال بيرنز يعتقد ان الاسرائيليين قاموا بهذا الهجوم عمدا او تنفيذا لأوامر صدرت اليهم . اما قرار ادانة اسرئيل في تلك الحادثة ، فكان اعنف قرار اتخذه مجلس الامن عن هذا النوع من الحوادث . وقد اعطى مجلس الامن للامين العام سلطة انشاء محطات مراقبة في المنطقة ، منها محطة مراقبة في زورق تابع للامم المتحدة يجوب البحيرة ليلا نهارا . غير ان الاسرائيليين رفضوا القبول بانشاء هذه المحطات . فظل موسم صيد السمك في البحيرة لا يقل اهمية عن موسمي الزراعة والحصاد من حيث اثارة الحوادث على الحدود السورية الاسرائيلية .

وفي هذه الاثناء ، علمت بأن سكارليت وجوهان كانا في طريقهما بحرا من السويد الى الاسكندرية . فصممت ان اذهب الى مصر بالسيارة لاستقبالهما هناك .

وحين دخلت الباخرة الايطالية اوزونيا مرفأ الاسكندرية ، لم اقو على الانتظار لارى سكارليت واخبرها بجميع التدابير التي اتخذتها من اجل راحتها . كانت جنينتها المحيطة بقصر البعثة تنتظر عودتها ، كما كان البستاني احمد قد نظم الجنينة بشكل يرضيها . كذلك غرف القصر التي أشرفت على تزيينها لتجعل عيشي فيها هنيئا تنتظر عودتها بفارغ الصبر . وفوق كل شيء ، كان اصدقاؤها الذين عرفوها عند زيارتها السابقة ينتظرون عودتها للترحيب بها .

لكنني كنت واثقا ان الحالة لن تكون على مثل هذه الصورة البهيجة . فقد احسست اننا دخلنا مرحلة جديدة من حياتنا ، وان مرض سكارليت يلاحقنا كالشبح . كنا نرى ذلك المرض في كل نظرة ، وكل حركة ، وكل كلمة . لكن مع مرارة الواقع الذي كان يصدمني كلما نظرت الى سكارليت ، فقد كنت سعيدا بوجودها ووجود جوهان معي في تلك البقعة الصغيرة من العالم .

بدأنا رحلتنا من الاسكندرية الى القدس . وتوقفنا في طريقنا مدة طويلة في القاهرة ، وفي غزة ، من اجل راحة سكارليت . ومن هناك

كنت اتصل بالقدس واطلب منهم ان يجهزوا لنا ممرضات واطباء .

كنا محظوظين بالمساعدة التي قدمها لنا الاصدقاء والمرضات من الجانبين العربي والاسرائيلي . وترددت سكارليت كثيرا بدخول المستشفى ، اذ انها ارادت ان تبقى بجانبي . وقد صرفت كل دقيقة خارج عملي معها ، احدثها عن الايام الماضية ، واحيانا عن خططنا في المستقبل .

لا احب ان اصف مأساة الاسابيع الاخيرة القليلة . غير انها كانت اسابيع عشتها ، وانا اشاهد روح اعز مخلوق عندي تنطفىء تدريجيا . ولأنني كنت في وضع لا يتيح لي مساعدتها ، فقد تولاني شعور باليأس المتزايد .

كان في نيتي ان اجعل سكارليت تقضي عيد ميلاد سعيد ، لكنني انهرت تحت وطأة العمل والحالة النفسية التي كنت فيها ، فأمرني الطبيب بملازمة الفراش . وما ان عادت صحتي الي حتى شعرت بأن التسهيلات الموجودة في قصر البعثة لم تعد كافية لحالة سكارليت المتردية . ولم اكن بحاجة الى استشارة الطبيب لاعلم انه لم يعد لنا من خيار . فكلما دخلت غرفتها ، رأيت وطأة المرض عليها تزداد شدة وقساوة . فما كان مني الا ان نقلتها الى مستشفى هاداسا الاسرائيلي ، تحت اشراف الطبيب غروهن ، الهولندي الاصل ، وممرضتين اسرائيليتين جذابتين . ويظهر ان وجودها في المستشفى افادها كثيرا ، فتحسنت صحتها في مدة ستة اسابيع ، توسلت بعدها الى الطبيب غروهن للسماح لها بالعودة الى البيت ، فوافق بعد تردد كثير .

عادت الى البيت يوم احتفالنا بعيد ميلاد جوهان الرابع عشر . كانت حفلة مرحة اخبرها فيها جوهان عن اصدقائه الجدد ، وعن رحلته الى الاردن وسوريا ولبنان واسرائيل ، وعن رئيس قسم البريد الياباني في بعثتنا الذي اعطاه دروسا في الجودو ، وعن فيرنر ، مصور البعثة الذي علمه كثيرا عن فن التصوير . كان يوما سعيدا . لكن صحة سكارليت سرعان ما اصيبت بنكسة . وبعد ذلك باسبوع ، عندما حملتها بين ذراعي الى مستشفى هاداسا ، كانت تباشير الموت قد لاحت على وجهها . كان من الصعب علي كثيرا ان ارى حياة تنطفىء بين يدي فيما كانت الاشياء في الخارج تضج بالحياة تحت نور الشمس الساطعة . وكنت قد ارسلت جوهان الى السويد ، بعد ان اخبرته بحالة والدته . وما ان مضى على رحيله ثماني واربعين ساعة ، حتى ماتت سكارليت . فأحسست بعدها بوحدة قاتلة .

حضر جنازتها الكثيرون من اصدقائها القدامى . واقيمت جنازتها في

كنيسة سانت اندروز الاسكتلندية في القطاع الاسرائيلي من القدس . ووري جثمانها التراب في بيت لحم في الاردن . وفيما كنت واقفا بجانب قبرها ، تلقيت نبأ الهجوم الذي بدات اسرائيل تشنه على النقب ، صباح ذلك اليوم .

# الفصل الواحد والعشرون

كان اطلاق الرصاص على البحيرة قد بدأ من ثمانية ايام . ففي ٢ آذار سمع احد مراقبينا طلقات رشاش اوتوماتيكي تبعها ستة انفجارات ضخمة . ثم انصبت الشكاوى على مكتب لجنة المراقبة المشتركة من الجانبين . فشكا الاسرائيليون أن التحصينات العسكرية السورية في الكرسي فتحت نيرانها على زورق الحراسة الاسرائيلية في البحيرة ، فيما شكا السوريون من ان زورقا اسرائيليا اقترب من الشاطىء وفتح نيرانه على مراكزهم العسكرية في الكرسي . ودخل مراقبونا الى المنطقتين للتحقيق فلم يحصلوا الا على معلومات متضاربة .

وبعد حين ، اخبرنا رئيس لجنة المراقبة المشتركة بأن موفدا اسرائيليا في طبريا قال له ان الحادث قد يؤدي الى سوء الحال ، كما جرى في ١٩٥٥ . فداخلني الشك في ان هذا التحذير ليس الا تمهيدا لشن هجوم اسرائيلي واسع .

وفي التاسع من آذار ، دعتني وزيرة الخارجية الاسرائيلية السيدة غولدا ماير ، الى مكتبها وطلبت مني ان اذهب الى دمشق واخبر السوريين بأن الحكومة الاسرائيلية تعتبر أن هجومهم على الزورق الاسرائيلي ادى الى زيادة الحال سوءا . وبصوت جهوري طلبت وزيرة الخارجية ان اخبر السوريين بأنهم يلعبون بالنار .

فأجبتها بصوت لم احاول ان اخفي فيه غضبي انها يجب ان لا تتوقع من كبير المراقبين الدوليين ان يعمل رسولا لها ، فيحمل رسائلها المتضمنة انذارات علنية ومبطنة ، خصوصا وان اسرائيل تقاطع اجتماعات لجنة المراقبة المشتركة منذ ١٩٥١ ، وانها تستمر في خرق اتفاقية الهدنة . وقلت لها ان رسالتها الى السوريين ، خلافا لما تتوقعه ، ستثير رد فعل عدائي . وما مهمتي في فلسطين الا الحفاظ على السلم لا اثارة العداء . فما كان من وزيرة الخارجية ، بعد سماعها كلامي ، الا أن غيرت موقفها وقالت انها لا تعني انذار السوريين بقدر ما تريد منهم ان يفهموا موقف اسرائيل . كان هذا افضل . فوعدت السيدة ماير بأنني سأطلب من رئيس لجنة المراقبة المشتركة ان ينقل موقف اسرائيل الى السوريين . وعدتها بهذا ، لا لشيء الا لاجنب الامم المتحدة اللوم في حالة عودة القتال من جديد .

وفي اليوم التالي ، نقل رئيس لجنة المراقبة المشتركة هذا الموقف الى السوريين فأخبروه بأن السلطات السورية لن تعارض في انشاء محطة مراقبة في منطقة الكرسي .

على ان الحالة ، بعد حين ، ساءت الى درجة خطيرة . وفي ١٤ آذار ، زار ميخايل كاماي ، مندوب اسرائيل الدائم لدى الامم المتحدة ، الامين العام للامم المتحدة بالوكالة ، واخبره بأن حكومته تعتبر هجوم السوريين على الزورق الاسرائيلي عملا خطيرا . وفي اليوم التالي ، اي في ١٥ آذار ، لاحظ مراقبونا ان زورقين اسرائيليين ومركب صيد واحد أقتربوا من موسدية ، وهي قرية سورية تقع بين الكرسي ونهر الاردن ، ثم جرى اطلاق الرصاص باستمرار لمدة تزيد عن نصف ساعة . ولم يتمكن مراقبونا من التحقق من الجهة التي بدأ منها اطلاق النار . لكن بنتا عربية اصيبت بالرصاص وماتت فورا .

قدم السوريون شكوى بالحادث الى لجنة المراقبة المشتركة . غير ان الاسرائيليين استعملوا طريقة اخرى ، فأرسلت غولدا ماير برقية خاصة الى نيويورك تطلب من يوثانت ، الامين العام للامم المتحدة بالوكالة ، ان يتدخل قبل ان تسوء الحالة جدا على الحدود السورية الاسرائيلية . حتى ذلك الحين لم أكن قد قابلت يوثانت . وجاءتني برقية مستعجلة منه يطلب فيها معلومات عن الحادث الاخير . وفي هذه الاثناء ، كانت قد وصلت تقارير من مراقبينا تروي حادثة اخرى وقعت بين زورق اسرائيلي وبين محطة عسكرية سورية في كفر عقيب ، القريبة من الكرسي . ومع انهم لم يروا الحادث بوضوح ، الا أن السيدة غولدا ماير أرسلت برقية اخرى مستعجلة الى يوثنت تطلب فيها الاستفسار عما اذا كان هجوم السوريين الاخير على زورق اسرائيلي كان ردا على ما نقله ضابط الامم المتحدة عن موقف اسرائيل .

كان من الواضح لمراقبينا في طبريا والقنيطرة ودمشق والقدس ان الجانبين كانا يستعدان للتقاتل . وفي السادس عشر ارسل رئيس لجنة المراقبة المشتركة تقريرا عن تصلب موقف السوريين ، دون وجود ادلة واضحة لديه تدعم هذا التفسير . وكانت أخبار تحركات الجيش السوري تصلنا باستمرار ، مما اظهر بوضوح ان السوريين يقومون بتعبئة قواتهم . اما الجانب الاسرائيلي ، فكان المراقبون يرسلوا تقارير عن التحركات المريبة التي كان يقوم بها الاسرائيليون . ومع أن الاسرائيليين كانوا يمنعون مراقبينا من الاقتراب من محطاتهم ، الا اننا كنا متأكدين من ان اسرائيل تقوم بتعبئة واسعة لقواتها على الحدود .

وعشية الاحتفال بدفن زوجتي في بيت لحم ، توقعت وصول اخبار

من البحيرة . وعند منتصف الليل ، اطفأت جميع القرى على الشاطىء الشرقي من البحيرة انوارها . كان ذلك دلالة على انهم توقعوا هجوما تلك الليلة . وبعد دقائق معدودة سمع مراقبونا صوت اطلاق الرصاص ، ثم تلاه صوت اطلاق نيران المدافع بغزارة .

ولم يكن مراقبونا ، لسوء الحظ ، في حال تسنح لهم معاينة الهجوم الذي شنه الاسرائيليون على الضفة الشرقية من البحيرة . ودام اطلاق النار طول الليل . وعند الصباح حلقت الطائرات الاسرائيلية فوق الاراضي السورية . وفي التاسعة صباحا ، اصدر الاسرائيليون أول بلاغ عن الحادث ، جاء فيه انه نحو منتصف الليل قامت فرقة اسرائيلية بهجوم على المواقع السورية ، جنوبي « النقيب » فاحتلتها ودمرت تحصيناتها .

لم نكن قد سمعنا بهذا الاسم من قبل ، اذ ان الاسرائيليين لم يذكروه اطلاقا في شكاويهم السابقة . وكان من الصعب جدا أن نعثر على موقع النقيب ، خصوصا وقد كان ثمة ثلاثة اماكن تسمى بهذ االاسم . كان هناك قرية مهجورة اسمها النقيب ، وقرية جديدة اخرى اسمها النقيب ، وقرية حديثة جدا اسمها النقيب ، وهي التي تعرضت للهجوم الاسرائيلي .

وقالت الصحف الاسرائيلية الصباحية ان النقيب كانت محصنة جدا ، وان القوات الاسرائيلية لم تستطع احتلالها الا بفقدان خمسة جنود وسقوط عشرة جرحى . اما السوريون ، كما روت الصحف الاسرائيلية ، فقد فقدوا ثلاثين قتيلا وسقط منهم الجرحى . وبدا لي ان هذا الرقم مبالغ فيه . واعلن الاسرائيليون ، كما توقعنا ، انهم استولوا على معدات روسية كثيرة ، وانهم يقومون بتنظيم الرحلات للجميع ، بمن فيهم طلاب المدارس ، الى منطقة القتال لمشاهدة السلاح المستولى عليه . على انهم استثنوا موظفي الامم المتحدة من ذلك . ولم يكلف الاسرائيليون انفسهم عناء ارسال مذكرة لنا عن الحادث الا بعد يومين من وقوعه .

كنا قد اخبرنا الاسرائيليين بأن السوريين لا يمانعون في انشاء محطة مراقبة لجنودنا عند الكرسي . ومع ذلك قام الاسرائيليون بهجوم على النقيب . ولم يستطع مراقبونا ايقاف اطلاق النار وانهاء تحقيقاتهم حول الحادث الا بعد مرور بضعة ايام ، اي في السابع والعشرين . فقدمت ، عندئذ ، تقريري الى يوثنت .

ثم فوجئت بأن العالم الخارجي لم ينظر بعين الرضى الى الهجوم الاسرائيلي . واستباقا منها لما سيجري في مجلس الامن عند اجتماعه في الثامن والعشرين للنظر في الشكوى السورية ، فقد تنبأت الصحف الاسرائيلية بعد حديث جرى بين السفير الاميركي في تل ابيب والسيدة فولدا ماير ، بأن الولايات المتحدة ستأخذ موقفا في مجلس الامن لا ترضى

عنه اسرائيل . وقالت الصحف الاسرائيلية ايضا ان فرنسا ستقف ضد اسرائيل في مجلس الامن ، لحاجتها الى صداقــة العرب . وهكــذا كان الاسرائيليون يتوقعون ان يجدوا انفسهم معزولين عند اجتماع المجلس . لكن في يوم اجتماع المجلس ، اي في الثامن والعشرين ، وقع انقلاب سوري جديد . في هذه الاثناء ، انهيت تقريري المفصل عن الحــادث ، فوزع علــى مجلس الامن قبل انعقــاده . وقالت الصحف الاسرائيلية عن تقريــري انــه جاف لكنه موضوعي . وذهلت لموقف اسرائيل الودي مني ، وهو موقف لم يكــن لي عهد بــه مــن قبل . وفي جلسة المجلس تكلم ادلاي ستيفنسون ، مندوب الولايات المتحدة الدائم لدى الامم المتحــدة ، محذرا اسرائيل من مغبة اعمالها العدائية علــى الحدود . وبعد ان طلب المندوب الروسي من المجلس ان يدين اسرائيل ، طالب ادلاي ستيفنسون بدعوتي الى نيويورك لتقديم تقرير شفوي عن اعمال الحدود بين اسرائيل والعرب.

ولم يكن ، بعد ، عند يوثنت خبرة كافية بمشاكل الارض المقدسة . فلفت نظر المجلس الى انه يفضل بقائي في القدس ، لان الحالة كانت تتطلب وجودي فيها ، خصوصا وقد تسلم المجلس تقريري الخطي ومن غير الممكن ان يكون لدي ما اضيفه اليه . لكنه اخيرا وافق علــى حضوري الــى نيويورك ، ليقف المجلس علــى الاجراءات التي اقترحهــا لوضع حــد للحــوادث هناك .

وفوجئت اسرائيل بدعوتي الى نيويورك . كان الاسرائيليون يعلمون بأن المجلس سيدينهم ، لكنهم لم يكونوا على علم بمــدى هــذه الادانة . وكانت تعليقات الصحف الاسرائيلية على دعوتي الى نيويــورك متحفظة جدا . لكنها لم تكــن ضدي . وكتبت جريــدة هاارتز تقول ان دعــوة فون هورن الى نيويورك ستضعه في موقف حرج جدا ، اذ انــه روى في تقريره اقصى ما يمكن ان يرويه تفسيرا للوضع ، واقل ما يمكن ان يرويه لكي لا يحــرج الجانبين . واضافت الصحيفة قائلة اما عندما يجيب فون هورن على اسئلة المجلس ، فقد يجد نفسه مضطرا لقول ما قد يعرقــل استمرار عمله كرئيس لهيئة مراقبة الهدنة في فلسطين .

كان هذا تماما ما ازعجني . ذلك ان الخدمة في الامم المتحدة علمتني ان لا اثق بلقاء الجنديــة والسياسة . وتصورت الحفر التي قد يحــاول اعضاء مجلس الامن ايقاع جندي فيها ، عند التحقيق معه ، لاستغلال اجوبته لمصالحهم الخاصة ، لا للوصول الى الحقيقة .

وصلت نيويورك في اول نيسان . وكم كان ارتياحــي بالغا ، حــين اجتمعت بالامين العام بالوكالة ووجدت انه كان يشاركني مخاوفي . لــم اكن قد اجتمعت بيوثنت من قبل . فوجدته شخصا يتمتع بمعرفة واسعة

وبالاخلاص لعمله . واذ كان حديث العهد بمعالجة المشاكل العربية الاسرائيلية ، فقد استشار رالف بنش في جميع ما اتصل بها . وكان رالف، بالرغم من خلافاتنا السابقة ، لطيفا معي الى اقصى حد ، وصديقا مخلصا لي عند الحاجة .

ووافقني الرجلان على خطر الخضوع الى اسئلة شفوية من اعضاء مجلس الامن . لذلك قرر يوثنت ان لا اجيب الا على اسئلة مكتوبة . وشعرت ان هذا القرار كان قرارا نهائيا لا تراجع عنه ، بخلاف قرارات همرشولد التي اكتنفها الغموض . ذلك ان شخصية يوثنت كانت صامدة ، وصلبة ، وتوحي بالثقة .

ارجأ مجلس الامن جلسته الثانية الى ٣ نيسان . وكنت قد اعطيت فور وصولي مكتبا خاصا في الطابق الثامن والثلاثين . فزارني عدد من رؤساء الوفود في الامم المتحدة ، بمن فيهم رؤساء الوفود الاميركية والبريطانية والفرنسية ، وتطوعوا بتقديم ما كنت بحاجة اليه من مساعدة تعزز قدرة هيئة مراقبة الهدنة على القيام بالمهمة التي انيطت بها . واقتصرت زيارة المندوب السوري لي ، بخلاف زيارة المندوب الاسرائيلي ، على المجاملة . ذلك ان المندوب الاسرائيلي ، كما توقعت امطرني بوابل من النصائح لصالحي . وبدا لي ، منذ اللحظة الاولى ، انه جاء يهددني .

وكان من نصائح ميخائيل كاماي ، ان انسى فكرة وضع زورق للامم المتحدة في بحيرة طبريا ، لان البحيرة ارض اسرائيلية . وقال لي ان حكومته اوضحت لي هذه المسألة في القدس . واستطرد قائلا : « لماذا تصر على امور عديدة تعلم ان اسرائيل لا توافق عليها ؟ » وانهى كلامه بأن نصحني ان استمع اليه ، لئلا تتعرض حياتي الى ازعاج شديد !

فأجبته انني اطالع الصحف الاسرائيلية ، منذ مدة طويلة ، وان لا حاجة لي ، اذن ، الى « ارشادات اسرائيل الرسمية . » وقلت له انني اقدر تهديداته المبطنة حق التقدير ، لكنه اضاع وقته في توجيهها الى رئيس هيئة مراقبة الهدنة في القدس ، خصوصا على ارض الامم المتحدة . وهنا استعرت تعبيرا طالما استعملته السيدة غولدا ماير ، وهو انني لا احب ان يجبرني احد على عمل ما لا اريد ان اعمله . وحين غادر المندوب الاسرائيلي مكتبي تذكرت همرشولد عندما قال لي في هذه البناية ، وفي هذا الطابق بالذات : « تذكر انك مهما عملت فلن تكسب معاونة الاسرائيليين او تأييدهم . »

لم يسبق لي ان حضرت اجتماعا لمجلس الامن . وعندما دخلت القاعة بعد ظهر الثالث من نيسان ، خيل الي انني سائح جاء لزيارة الامم

المتحدة . وجلس يوثنت الى يمين رئيس المجلس وبجانبه رالف بنش . اما انا فجلست علي كرسي وراءهما .

ووجه لي ممثلو سوريا ، والجمهورية العربية المتحدة ، وغانا ، والولايات المتحدة اسئلة يستوضحون فيها بعض المسائل . وكنت اعلم بأن تلك الاسئلة سترسل ، فيما بعد ، الى مكتبي في الطابق الثامن والثلاثين ، فور انتهاء الجلسة ، فيكون لدي متسع من الوقت للاجابة عليها . لكنها بقيت جميعا واضحة في ذهني . كان هناك سؤالان وجههما المندوب السوري السيد طرزي ، الاول : هل هناك ما يجعلني اتوقع هجوما اسرائيليا آخر على سوريا ؟ والثاني : كم من الوقت يستغرق اعداد هجوم كالهجوم الذي شنته اسرائيل في ساعة مبكرة من ١٧ آذار ؟ فاجبت على السؤال الاول بأنني أرفض التنبوء بالمستقبل ، وعلى الثاني بأن من واجبي ان الفت نظر المجلس الى ان مهمتي هي الحفاظ على السلام وعلى تنفيذ شروط اتفاقية الهدنة ؛ لذلك لا استطيع اعطاء رد مقنع عن هذا السؤال . واستطردت قائلا ان بالامكان تقليل الحوادث ، او التخلص منها كليا ، لو تعاون الجانبان معنا تعاونا جديا .

لا اريد ان ارهق القارىء بسرد تفاصيل الاسئلة والاجوبة التي وجهت الي . غير انني جعلت من اجوبتي فرصة سانحة لشرح وجهة نظري في الوسائل الكفيلة بتعزيز مركز هيئة مراقبة الهدنة في القدس . فقلت ان حرية التحرك ضرورية جدا للمراقبة الفعالة ، وان مراقبينا في سوريا لا يسمح لهم بالابتعاد عن محطات المراقبة اكثر من خمسين مترا ، دون ان يخضعوا لمراقبة السوريين لهم . اما في اسرائيل فالامر بخلاف ذلك ، لكنه ليس افضل. ثم لفت نظر المجلس الى صراع الامم المتحدة القائم، منذ سبع سنوات ، للحصول على اذن من السلطات الاسرائيلية للسماح لها بانشاء مركز مراقبة نقال في زورق يطفو في مياه بحيرة طبريا . كما لفت نظره الى ان الامين العام للامم المتحدة طالب الجانبين ، في ١٩٥٦ ، ان يعترفا للامم المتحدة بحرية الحركة . فاعترفت الدول العربية بها ، اما اسرائيل فقالت انها « ستستمر على اعطاء المراقبين الدوليين ما تعطيه من حرية لجميع زائريها . »

واخيرا وجدت من الضروري ان الفت اعضاء المجلس الى ان اسرائيل تسمح لزوارقها بحرية التحرك في بحيرة طبريا ، لكنها لا تعطي هذا الحق لمراقبي الهدنة الدوليين ، وان اسرائيل تسمح للطائرات التي تحمل السائحين بالهبوط في مطار رونش — بنينا — مهانيم ، فيما هي ترفض السماح لطائرة كبير المراقبين الدوليين بالهبوط في ذلك المطار ، وان اسرائيل رفضت النظر في طلبنا المتكرر اليها ان تسمح لنا باستخدام

طائرات الهيليكوبتر لزيادة فعالية مراقبتنا .

كانت جميع هذه القضايا سهلة ، وواضحة ، وقد لا ترضي اجوبتي عليها اسرائيل ، لكنها لا تثير غضبها . ولم يكن هذا حال القضية التي اثارها المندوب السوري عما اذا كان هناك مواقع سورية محصنة دمرها او احتلها الاسرائيليون في هجومهم الاخير على « النقيب » . كان ردي المكتوب واضحا جدا ، وهو ان التقارير التي تسلمتها من مراقبينا هناك لم تذكر شيئا عن وجود مواقع محصنة سواء مدمرة او غير مدمرة .

ما ان وزعت اجوبتي على اعضاء مجلس الامن ، حتى نشطت الاجهزة الاسرائيلية بما فيها مندوب اسرائيل مخايل كاماي كما اشرت للضغط علي ، يعززها اصدقاء اسرائيل ومؤيدوها في الولايات المتحدة . وقد بدأ هذا النشاط بالاسئلة التي وجهها بعض اعضاء الكونغرس الاميركي الى المسؤولين يستفسرون فيها عما اذا كان موقف ستيفنسون ، مندوب الولايات المتحدة في مجلس الامن ، تجاه اسرائيل ، يمثل السياسة الرسمية للولايات المتحدة . وفي واشنطن زار ممثلو اسرائيل وزير الخارجية الاميركية ، دين رسك ، فيما طلب وفد من الصهيونيين مقابلة مساعد الخارجية للشرق الاوسط . اما في نيويورك فقد زار مندوب اسرائيل ، ميخائيل كاماي ، الوفد الاميركي . ولما عجز عن مقابلة رئيسه ستيفنسون، لكثرة مشاغله ، قابل شارل يوست ، الرجل الثالث في الوفد . على ان جميع هذه المحاولات لم تجد الاسرائيليين نفعا ، لان الولايات المتحدة اصرت على موقفها المنبثق من اهتمامها بتعزيز منظمة الامم المتحدة .

بعد ان اطلع اعضاء المجلس على اجوبتي ، عاد المجلس الى الانعقاد في الخامس من نيسان . فالقى مخايل كاماي كلمة اسرائيل . بداها بتلخيص وجهة النظر الاسرائيلية ، موضحا العلاقة بين هيئة مراقبة الهدنة الدولية وبين السلطات الاسرائيلية ، ومدعيا بأن اسرائيل اولت اهتمامها كل قضية او مطلب تقدم به كبير المراقبين الدوليين . واستطرد قائلا بأن حكومته ستبقي الوضع على حاله ، فتولي اهتمامها كل قضية او مطلب يتقدم به كبير المراقبين ، شرط ان لا يتعارض مع امنها الداخلي ومع سيادتها على الاراضي الاسرائيلية .

واستمعت الى كاماي باهتمام . كان كلامه محاولة لتغطية الحقيقة التي كنا جميعنا في البعثة نعرفها جيدا . وهي ان اسرائيل لم تقبل ولن تقبل بأي اقتراح او طلب تقدمنا به لمنع وقوع حوادث على الحدود .

ثم استطرد مندوب اسرائيل في كلامه ، فتحمس مشوها تقريري

وقال ان حرية المراقبين الدوليين مقيدة بمسافة خمسين مترا علـى الجانب السوري ، اما علـى الجانب الاسرائيلي فلا يقـول الجنرال ان هنالـك قيدا كهذا على المراقبين الدوليين . اما الحقيقة كما جاءت في جوابي المدون الموضوع امام المندوب الاسرائيلي فهي : « اما في اسرائيل فان الوضع بخلاف ذلك ، لكنه ليس افضل . »

هكذا اخذت الازمة تقترب . وتحدى كاماي في بيانه قولي بأن ليس هناك مواقع سورية محصنة في النقيب ، فهاجمني علنا عندما استطـرد قائلا : « لكن حين يرمي موظف في الامم المتحدة الشك على موقف حكومتي والحقائق التي قدمتها عن المواقع السورية المحصنة في النقيب ، فان هذا في نظرنا يصبح امرا خطيرا للغاية . اريد ان اقول ، بناء على طلب مـن حكومتي ، اننا نرفض الشكوك التي تضمنها جواب الجنرال فون هورن يوم امس . »

ما أن وصل كاماي الى هذا المقطع من خطابه ، حتى ايقنت بأن اجهزة الدولة الاسرائيلية قد تحركت بكل قوتها ضدي . فلم افاجأ ، اذ كنت لا اشك في ان اسرائيل صممت على محاربتي ، وانها خططت لهذا ، بالطريقة نفسها التي خططت بها الهجوم العسكري على سوريا ، وان عملي اذن ، فـي هيئة مراقبة الهدنة قد اشرف على النهاية .

وهكذا جلست استمع الى بقية خطاب كاماي ، فسمعته يقول بأن لديه خريطة تبين الموقع السوري الذي هاجمه الاسرائيليون ، وبأنه على استعداد لان يعرض على المراقبين الدوليين في القدس قائمة الاسلحة التي صادرها الاسرائيليون من الموقع السوري ، وبأن لدى الاسرائيليين اسيرا سوريا مستعدا للشهادة بوجود التحصينات العسكرية السورية . واذ ذاك عادت بي ذاكرتي بضعة ايام الى الوراء ، يوم جـاء كاماي الى مكتبـي يهددني ويلمح لي بأن حياتي ستكون صعبة جدا .

وبعد انتهاء تلك الجلسة ، طلب مني يوثنت ان اضع مذكرة اجيب فيها على ادعاءات كاماي بوجود تحصينات عسكرية سورية في النقيب . وبالرغم من ثقتي المطلقـة بمقدرة المراقبين ، فقد ارسلت برقية الـى القدس اطلب منهم فيها ان يتأكـدوا من هذا الموضوع . ولما كنت اعلـم ما سينتظرني في اسرائيل عند عودتي الى القدس ، فقد جلست مع يوثنت نتحدث حول الموضوع . كان كل منا يعي الوضع الجديد الذي نشأ ، وان عـداوة اسرائيل لي سرعان ما تقف في وجهي لتعرقل عملي ، فيصبـح موقفي وموقف الامم المتحـدة حرجا . جرى هذا من قبل في القـدس . وسيجري مرة اخرى . وهكذا جلست انظر الى يوثنت من خلال الدخـان المتصاعد من سيجارة ، دون ان اعلم بأن يوثنت هو من ذلك الطراز مـن

الرجال الذين يرمون بموظفيهم الى الاسود الجائعة .

وجاء الرد من القدس يؤكد ما قاله المراقبون من قبل وما قلته انا ، بناء على تقاريرهم . فجلست اضع المذكرة التي طلبها مني يوثنت للرد على تحديات مندوب اسرائيل ، مخايل كاماي . ولما كانت هذه المذكرة سببا لجنون اسرائيل وغضبها علي ، فاني أود أن اسجلها هنا كما وضعتها :

« الفت نظر مجلس الامن الى ان مندوب اسرائيل استعمل الخريطة ٢١٠٩٠ـ٢١٦٤٥ ، كوثيقة رسمية ، ليبين فيها الموقع السوري المحصن الذي هاجمته اسرائيل . وقد ذهب مراقبونا في ١٦ و١٧ آذار الى البقعة الظاهرة في الخريطة التي استند عليها مندوب اسرائيل . وبعد تفتيش المكان تفتيشا دقيقا ، وجدوا أن لا اثر لاية تحصينات عسكرية سورية هناك . ثم عاد مراقبونا مرة اخرى في ١٩ آذار الى تلك البقعة وفتشوها تفتيشا دقيقا مرة اخرى ، لكنهم ايضا لم يجدوا اي حصن عسكري سوري مدمر او قائم . وبنتيجة البرقية التي ارسلتها من نيويورك ، اعيد التحقيق مرة اخرى مع المراقبين الذين زاروا المنطقة ، فلم يغيروا شهادتهم . »

ثم انتقلت الى المسألة الثانية التي اثارها مندوب اسرائيل في خطابه ، وهي ان اسرائيل مستعدة لان تضع بين ايدينا قائمة بالاسلحة التي استولى عليها الاسرائيليون . فقلت ان هذه كانت اول مرة حاول فيها الاسرائيليون أن يضعوا بين ايدينا تلك القائمة ، مع انه مضى على الحادث اكثر من تسعة عشر يوما .

ولما كانت اتفاقية الهدنة تجبر الطرفين على اعطائنا الحقائق التي بين ايديهما ، فان مرور تسعة عشر يوما يوجب الاسرائيليين على ان يبرهنوا لنا عن صحة ادعاءاتهم اولا ، بوجود الاسلحة التي استولوا عليها . وثانيا ، بأن اسرائيل استولت على تلك الاسلحة في المنطقة المشار اليها فعلا . وثالثا ، بأن تلك الاسلحة هي نفسها التي استعملها السوريون في مهاجمة الزورق الاسرائيلي .

اما المسألة الثالثة التي اثارها مندوب اسرائيل في خطابه ، وهي وجود اسير مستعد للشهادة بصحة دعوى اسرائيل ، فقلت ان ما يهمني معرفته هو لماذا لم تعرض اسرائيل علينا ذلك الشاهد من قبل ، لتساعدنا على الوصول الى الحقيقة !

لا اشك في ان هذه المذكرة والردود التي تضمنتها على ادعاءات مندوب اسرائيل ، قد قفزت فوق راس مخايل واستقرت في اذهان اعضاء مجلس الامن لتترك اثرا طيبا جدا . وعندما اجتمع المجلس مرة اخرى في ٦ نيسان تكلم رئيس الوفد البريطاني فوافق على جميع الاقتراحات التي تقدمت

بها ثم قال : « بالنيابة عن وفد حكومتي ، احب ان اهنىء الجنرال كارل فون هورن والموظفين الدوليين الاخرين على الاعمال التي يقومون بها في تلك المنطقة . اعتقد انه علينا جميعا ان نتفق ونضع ثقلنا وراء الاقتراحات التي تقدم بها الجنرال فون هورن ، لتمكين هيئة مراقبة الهدنة من اداء الدور الذي دعيت للقيام به . »

كنت اعلم ان مثل هذا الكلام لن يفيدني عندما اعود الى القدس . ومع هذا ، فقد سررت عندما سمعت رؤساء وفود دول شيلي وغانا وفنزويلا والولايات المتحدة يمدحون عملنا ويقدرونه . فقال ممثل الولايات المتحدة : « احب ان اهنىء الجنرال فون هورن وزملاءه على القيام بمهمتهم أحسن قيام . »

وهنا ، اصبحت نتيجة المناقشات في مجلس الامن حول هذه القضية معروفة سلفا . لكن المجلس ، بناء على طلب اسرائيل ، ارجأ اجتماعه الى ٩ نيسان ، لافساح المجال امام اسرائيل لابداء رأيها في مشروع القرار الذي يدينها . وفي حينه ، ابدى مندوب اسرائيل رأي حكومته في هذا المشروع ، فتعرض لهيئة مراقبة الهدنة في القدس ونال منها . وقال : « ان حالة الامن في اسرائيل اوحت لنا بوضع قيود صارمة على تحركات اشخاص ينتمون الى بلدان مختلفة ويتمتعون بحرية الدخول والخروج عبر حدودنا ، خصوصا وان منهم من يقطن في البلدان العربية . واذا كانوا يلبسون لباس الامم المتحدة ، فهذا لا يعني أن وجودهم لا يشكل خطرا على امننا . ويمكنني القول ، استنادا الى الماضي ، أن ليس كل موظف في لجنة مراقبة الهدنة يستحق الثقة التي يتطلبها مركزه . »

وكم حزنت عند سماعي هذا الكلام ، لانه كان يعكس واقعا طالما حاولت أن اكافحه . ومن نكد الدهر آن ينتقد الاسرائيليون سلوك موظفينا ، مع العلم انهم هم الذين انفقوا الاموال الطائلة ، والوقت ، والجهد ، على افساد اولئك الموظفين .

وفي اجتماع ٩ نيسان وافق مجلس الامن على مشروع قرار ادانة اسرائيل ، كما وافق على مقترحاتي الهادفة الى زيادة فعالية هيئة مراقبة الهدنة في القدس . وبالاضافة الى هذا ، فرض المجلس على الجانبين حضور اجتماعات لجان المراقبة المشتركة .

وهكذا غادرت نيويورك لاواجه في القدس مستقبلا الحت اليه تهديدات مخايل كاماي ، مندوب اسرائيل الدائم لدى الامم المتحدة .

# الفصل الثاني والعشرون

وضع البير غراند ، الملحق الصحفي في البعثة ، على مكتبي ملفا ضخما يحتوي قصاصات من الصحف وقال : « اخشى ، ايها الجنرال ، ان نضطر للاعتراف باننا امام ازمة عصيبة جدا » . قال هذا بصوت لا يخلو من العطف . ثم وقف بعيدا عني متوقعا انني سأغضب واثور . لكنني لم افعل ولم أفه بكلمة . ذلك ان الامور كانت تسير كما تحسبت .

لكنني اخطأت في أمر واحد ، هو انني استهنت بموهبة اسرائيل في التحقير والتشهير . وقد أعادني حديث قصير مع « الثعلب » فيجيه الى الحقيقة . فلو انني استجبت لتحذيرات مخايل كاماي ، وقررت ان الحنكة خير من الشجاعة ، لانتهت الحال الى غير ما انتهت اليه . على انني اخترت الوقوف الى جانب الحقيقة ، وانا عالم بان هذا الاختيار سيؤدي الى اعتباري شخصا غير مرغوب فيه . وهذا ، كما قال فيجيه ، ما حصل بالضبط .

كانت زميلتي المصارعة السيدة غولدا ماير هي التي بدات المعركة . والمسألة التي اخذت تستغلها هي جنازة زوجتي . فلو لم أكن ، في نظرها منهمكا في هذه الجنازة ، لما حصل ما حصل في النقيب . وبالرغم من تعزية فيجيه لي بان لا انزعج ، فالاسرائيليون هم من هم ، الا ان التهمة الكاذبة تؤذي وتزعج . لقد خطط الاسرائيليون لهجومهم حين كانت سكارليت تصارع سكرات الموت ، فعمدوا الى ابعاد المراقبين عن مراكز عملياتهم ، ثم شنوا هجومهم وانا اواري زوجتي التراب في بيت لحم . والان ، عندما راى الاسرائيليون ان الراي العام العالمي قد ادانهم ، اتخذوا ذلك ذريعة لاتهامي باهمال واجباتي . كأنما الجيش الاسرائيلي ، لولا هذا « الاهمال » ، لم يكن ليشن هجومه على النقيب .

وكان البرلمان الاسرائيلي ، حتى قبل ان فتحت السيدة غولدا ماير المعركة ضدي ، قد شن علي حملة عنيفة ووصفني بانني عدو نموذجي لاسرائيل . ولم يكن موقف الحكومة الاسرائيلية افضل ، اذ اعلنت مقاطعتها لي حتى يستحيل علي القيام بمهمتي ، وحتى يجعلوا وجودي في منصبي محرجا للامم المتحدة .

ووضع البير غراند بين يدي نسخة من جريدة « لاميرهاف » الحكومية الصادرة في ١٠ نيسان ١٩٦١ ، فاذا فيها ما يلي : « ان موقف العداء الذي وقفه الجنرال فون هورن في مجلس الامن من اسرائيل دليل واضح على انه قرر عدم الاستمرار على البقاء في المركز الرفيع المسؤول الذي يشغله . هذا هو التفسير الوحيد لموقفه المساند لسوريا . وهو في ذلك تعمد اعطاء مجلس الامن معلومات غير صحيحة ، وسعى الى الحصول على قرار بادانة اسرائيل ، مما نسف القواعد الادبية والعملية التي يجب ان يستند اليها كبير المراقبين في القيام بمهمته . وقد يكون العمل قد زاد في احترام السوريين له ، لكنه افقده ثقة الاسرائيليين من الان وصاعدا . ولا خيار له بعد الان الا ان يفسح المجال لمن هو خير منه لرئاسة هيئة مراقبة الهدنة » .

هذا الموقف ، بالاضافة الى تصميم اسرائيل على اعتباري شخصا غير مرغوب فيه ، لم يكن سوى مقدمة لسعي اسرائيل الى اخراجي من الارض المقدسة ومن خدمة الامم المتحدة اذا امكن . ولو كنت شخصا سهل التأثر بحملات التهجم ، لحزمت حقائبي ورحلت . ولم اكن اعتقد ان القيام بالواجب وقول الحق يوصلانني الى التقاعد قبل الاوان . كذلك لم اكن استسيغ عنجهية اسرائيل ، او تقبل قدرتها على الاقتصاص من اي موظف في الامم المتحدة وتحقيره بشكل يضطره الى الاستسلام اليها .

وهكذا عزمت على ان لا اسمح لاحد بان يخيفني ، ما دام يوثنت يوليني ثقته ، وما دامت المنظمة التي لي شرف الخدمة فيها تعتمد على صدقي وامانتي .

ولاحظت بشيء من الاستغراب وجود ثغرات في الجهاز الاسرائيلي . من ذلك ان الجريدة الشيوعية « كول حام » قالت : « كشف قرار مجلس الامن مرة اخرى ان سياسة بن غوريون التوسعية قد انزلت باسرائيل هزيمة سياسية . فأساء ، في المدى الطويل ، الى المصالح الاسرائيلية . ان العالم الخارجي يرى في عملية النقيب نقطة سوداء في تاريخ اسرائيل . اذ انها ، ولا شك ، عزلت اسرائيل وزادت في توتر الحال بين العرب واسرائيل . » .

ثم جاءتني معونة من مصدر لم اكن اتوقعه ، مما يدل على وجود خلاف في الجبهة الاسرائيلية . انني اعني المقال الذي ظهر في مجلة « نار » الشهرية تحت عنوان « ازمة ثقة » . ومجلة « نار » هذه تصدر عن جمعية « احود » التي تدعو الى الصلح بين العرب واسرائيل . وقد اسسها عميد الجامعة العبرية الدكتور ماغنوس . وهي تضم عددا من رجال الفكر ، بينهم مارتن « بوبير » ، الصديق الحميم لهمرشولد . وهذا المقال كتبه الدكتور شيرشفيسكي بموضوعية تدل على ان الحكمة ما تزال موجودة عند بعضهم

في اسرائيل .

ومما قاله الدكتور شيرشفيسكي ان الهجوم الاسرائيلي على المواقع السورية سبب ثلاث ازمات ثقة : في الداخل ، وفي الامم المتحدة ، وفي العالم . فما من عملية واحدة ، في تاريخ العمليات العسكرية ، اثارت القليل من الاهتمام والكثير من الشكوك في اذهان الناس كتلك العملية . حتى جريدة « جويش اوبزرفر » المقربة من السلطات الاسرائيلية اعترفت بأن من العبث نكران التساؤلات الكثيرة عن الحكمة من الهجوم المفاجيء الذي قامت به اسرائيل عند بحر الجليل .

واستطرد شيرشفيسكي قائلا : « اما جريدة دافار فقد كتبت تقول ان حكومة اسرائيل اقترحت في ٩ اذار ١٩٦٢ ، على كبير المراقبين الدوليين الجنرال فون هورن انشاء مركز للمراقبة على الاراضي السورية قرب منطقة الكرسي . وفي ١٠ اذار حمل رئيس لجنة المراقبة المشتركة هذا القرار الى السوريين فوافقوا عليه . كذلك طلبت اسرائيل من الجنرال فون هورن ان يبلغ السوريين بانهم يلعبون بالنار . ولما لم يتمكن الجنرال فون هورن من الذهاب الى دمشق بسبب مرض زوجته ، كلف رئيس لجنة المراقبة المشتركة ان ينقل هذا الكلام الى السوريين . ثم جرى هجوم اسرائيل على النقيب في اثناء تلك المفاوضات التي كان يقوم بها الجنرال فون هورن . وهذه الحقائق تثير الاسئلة التالية : لماذا لم تعط اسرائيل الفرصة ، لــو لبضعة ايام ، لكبير المراقبين الدوليين لانهاء مفاوضاته ؟ لماذا لم توقف اسرائيل ارسال زوارق دورية ؟ لماذا لم تسهل اسرائيل مهمة الجنرال فون هورن باعطائه فرصة كي يتمكن من انشاء مركز للمراقبة في منطقة الكرسي ؟ لا عجب بعد هذا كله ان يتخذ الجنرال فون هورن الموقف الذي اتخذه في مجلس الامن .

« اما ازمة اسرائيل في الامم المتحدة ، فكان سببها مندوب اسرائيل مخايل كاماي الذي حمل على الجنرال فون هورن واتهمه باعطاء اجوبة خاطئة . وقد ادعى مندوب اسرائيل بأن الهجوم حصل في المنطقة المجردة من السلاح وان مواقع سورية محصنة قائمة هناك . لكن مجلة الجيش ، في عددها الصادر في ٢٠ اذار ، كتبت تقيم الدليل على ان الهجوم قد وقع ضمن الاراضي السورية لا في المنطقة المجردة من السلاح . فاذا كانت هذه هي الحقائق ، فلماذا ، اذن ، عمد مخايل كاماي ، مندوب اسرائيل ، على شن حملة على الجنرال فون هورن ؟ الم ير المندوب المقال في المجلة المذكورة قبل ان يلقي خطابه في مجلس الامن ؟

« ان الذين يعرفون الحقائق يفهمون لماذا ادان مجلس الامن اسرائيل، ولماذا كان قرار الحكومة بشن ذلك الهجوم قرارا معيبا ، ولماذا يجب عليهم

ايضا ان يطالبوا اسرائيل باتخاذ موقف اكثر ايجابية من الامم المتحدة ، وان يشجبوا الاوساط الاسرائيلية التي تحاول ان تبرر اخطاءها بفتح معركة ضد الجنرال كارل فون هورن ، وان يحذروا هذه الاوساط من ان هذه السياسة تكسبنا عداء الجميع وتحول العطف علينا الى بغض . » .

وبعد حين ، جاءني البير غراند يتأبط ملفا فيه قصاصات جديدة من الجرائد .

قلت : « ما هذا ؟ »

فأجاب : « سؤالك في محله ، ايها الجنرال . ستقرأ الان ادعاء الاسرائيليين بانك احرزت وسام الصليب الحديدي الالماني ، في اثناء الحرب ، حين كان هتلر يقتل اليهود بالملايين ! »

وعلى الصفحات الاولى وجدت المقالات التي ترمي ظلا من الشك على ماضيي ، وذلك في جرائد تقرأها كل اوروبا . ولم تكن قد وصلتنا الجرائد الاميركية بعد ، لكن لم يكن لدينا شك في ان الجهاز الدعائي الاسرائيلي قد جندها ايضا .

وعلمت من تلك المقالات بان النازيين انعموا علي بوسام الصليب الحديدي تقديرا لخدماتي في الحرب . لم اخف يوما على الاطلاق شعوري العدائي نحو النازيين . لكن انى لاحد في هذه الدولة الحاقدة ان يهتم بحقيقة ما جرى في بلد بعيد كالسويد . وهكذا آمن الجميع بما كان عليهم ان يؤمنوا به ، وهو ان اسرائيل اعلنت الجنرال فون هورن عدوها الاول . لم يكن نصيبي من كره اسرائيل لي بمقدار كرهها لعبد الناصر وللعرب . لكن عبد الناصر والعرب باقون ، فليتخلصوا مني ، اذن ، بقليل من الحذق والبراعة.

وقلت لالبير غراند : « يؤسفني ان اخيب ظنهم ، اذ انني لا احسب هذا الوسام من بين الاوسمة التي حصلت عليها . لدي اوسمة من النروج ، والدانمارك ، ترمز الى خدماتي لهما في زمن يدعي الاسرائيليون انني كنت فيه اخدم الالمان . اضف الى هذا أن الانكليز اعطوني ايضا وسام الامبراطورية البريطانية ، وكان الانكليز في تلك الايام يعلمون من الذي كان يتعاون مع الالمان ويعطف عليهم . »

فهز البير غراند رأسه وجمع قصاصات الجرائد . وتأكدت ان لا فائدة من القلق والانزعاج ، اذ لا بد لالبير من ان يعود بعد حين يحمل قصاصات اخرى جديدة .

كنت من شهر او اكثر ، قد سمعت مخايل كاماي يؤكد لمجلس الامن ان الحكومة الاسرائيلية تنوي الاستمرار على التعاون مع كبير المراقبين .

لكنني اعتبرت ذلك تمثيلية يقوم مندوب اسرائيل بتمثيلها في قاعة المجلس . وقد برهنت التجربة التي كنت امر بها على ما عنته اسرائيل بكلمة «تعاون» .

كانت اسرائيل تتذمر دائما ( والاردن ايضا ) من مخالفات السير المتعددة التي كان يرتكبها موظفو البعثة . وطلبت مني اسرائيل قبل استدعائي الى نيويورك ان اضع حدا لتلك المخالفات ، والا ستجد نفسها مضطرة لمحاكمة المخالفين في المحاكم الاسرائيلية .

وقدرت موقف اسرائيل فعمدت فورا الى احداث دورية خاصة بالامم المتحدة مجهزة بسيارات الجيب وببعض الخبراء ، للسهر على تطبيق قوانين السير . وكنت على ثقة بان دوريات السير الجديدة لن تجد صعوبة في عملها وان الدول العربية واسرائيل سيرحبان بوجودها .

ولما عدت من نيويورك امرت بتجهيز هذه الدوريات ، ولم يبق علينا سوى اعلام السلطات العربية والاسرائيلية عن بدء العمل . فقام بهذه المهمة رئيس القسم الاداري في بعثتنا ، فيكتور ميلز . ولشد ما كانت دهشته عندما قيل له ان اسرائيل لن توافق على نشاط دوريات السير ، لان وجودها يتعارض مع سيادة اسرائيل . وطالبت بالغاء هذه الدوريات ، والا عمدت اسرائيل الى القبض على افرادها .

وهكذا قبلت ، مرغما ، بالغاء الدوريات . اذ لم يكن للاحتجاج لدى الحكومة الاسرائيلية ، اي فائدة . وعندما جاء البير غراند في صباح اليوم التالي بملف قصاصات الجرائد الجديدة ، قرأت فيها ان دوريات السير الدولية باشرت عملها ، وان اسرائيل تحذرنا من مغبة هذا الاجراء ، مهددة بالقاء القبض على افراد الدوريات . فذهبت لمقابلة موشي ايريل ، المدير الجديد لشؤون الهدنة .

لم يسفر اجتماعي بايريل عن نتيجة . كان من العبث تذكيره باننا انشأنا دوريات السير تلبية لطلب اسرائيل ، وانما حاولت اقناعه بفائدة هذه الدوريات . غير انه اصر على موقفه وتشبث بالقول ان نشاط الدوريات يتنافى مع سيادة اسرائيل . وقد اثارني كلام ايريل الببغائي ، بحيث قلت له ان اسرائيل ، على ما يبدو ، تهتم كثيرا بالمحافظة على سيادتها ، لكنها لا تهتم اطلاقا بالمحافظة على سيادة الاخرين . اذ عمدت ، مؤخرا ، الى خرق سيادة الارجنتين لتقوم بعملية خطف مشهورة . وانتهى حديثنا في جو خيمت عليه البرودة التامة .

كان من الواضح لي ان اسرائيل اتخذت هذاالموقف من قضية دوريات السير لاحراجي وافهام الامم المتحدة ان ممثلها في القدس اصبح عاجزا عن اداء مهمته وان الوقت قد حان لاستبداله بشخص آخر . وكنت ، من جهة

اخرى ، عالما بان اسرائيل دأبت على اعطاء الامين العام للامم المتحدة ، بطريقة غير مباشرة ، فكرة مصطنعة عن عجزي وعدم جدوى وجودي ككبير المراقبين الدوليين . ثم كررت طلبها نقلي من مركزي . وكم اشعر بالامتنان من الامين العام يوثنت لانه لم ينزع ثقته مني ، بل طالب اسرائيل بان تثبت صحة اتهاماتها .

غير ان اسرائيل لم تيأس من نقلي من القدس واخراجي من الامم المتحدة اذا امكن . وفي الساعة الثامنة والنصف من مساء احد الايام ، فيما كان رالف بنش لا يزال في مكتبه في نيويورك ، تلقى مكالمة تلفونية من نائب رئيس الوفد الاسرائيلي الدائم للامم المتحدة ، قال له فيها انه تلقى الان معلومات خطيرة من القدس ، وانه يود ان يباحثه بها في الحال . لكن رالف بنش اعتذر عن مقابلته في تلك الساعة المتأخرة وطلب منه أن يؤجل المقابلة الى اليوم التالي . غير أن نائب رئيس الوفد الاسرائيلي اخذ يتوسل الى رالف بنش على نحو ارغمه على اعطائه موعدا في منزله تلك الليلة .

ما ان وصل رالف بنش الى منزله حتى رن جرس الباب رنينا مستمرا . وبعد دقيقة واحدة كان الزائر يتمشى ، جيئة وذهابا ، على سجادة رالف بنش ، محاولا الاعتذار له على حمله اخبارا غير سارة . ثم قال ان اسرائيل اكتشفت ان الجنرال فون هورن هو عميل استخبارات ، وانه يقوم بجمع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية لنقلها الى العرب ، في زياراته الرسمية الى غزة والقاهرة .

لم يكن رالف بنش يتوقع هذا النوع من الاتهام . وبدا واضحا ان الاسرائيليين حاولوا استغلال صداقتي باللواء امين حلمي ، مدير الشؤون الفلسطينية في مصر لتوجيه هذا الاتهام زورا . مع ان هذه الصداقة هي التي اتاحت لي مرارا تخفيف حدة التوتر على الحدود الاسرائيلية . ولكم شكرت لي السيدة غولدا ماير جهودي تلك . لكن هذا جرى قبل الرابع من نيسان. اما الان فقد سعى الاسرائيليون الى تشويه صداقتي الشخصية الطيبة مع اللواء حلمي ونقلها الى احد كبار مساعدي الامين العام .

كان رالف بنش شخصا ذا خبرة واسعة في شؤون الشرق الاوسط فلا عجب ، اذن ، ان ينظر الى زائره ، بالرغم من خلافاتي معه ، ببرودة تامة ويطلب منه ان يقدم برهانه خطيا . ثم دله على الباب . وكم توطدت صداقتي برالف حين سمعت هذه القصة . ولم اكن اجهل ان اسرائيل ستواصل حملتها ضدي وانها ستستغل كل وسيلة لتشويه سمعتي .

وكان لدي الوقت الكافي لمراقبة التكتيك الجديد في القدس . فقبل شهر كانت السلطات الاسرائيلية تتعامل معي مباشرة في جميع القضايا

المهمة . ثم اصبحت تتجاهلني وتتعامل مع مساعدي . وهكذا وجد «الثعلب» فيجيه والكولونيل شيرلي ، مساعدي الجديد ، مكتبيهما ملجأ لكل مشكلة . وساعدني « الثعلب » كثيرا بنصائحه المبنية على فهم عميق للعقل الاسرائيلي . ولما اصبح حضوري في المناسبات الرسمية مضحكا لان الاسرائيليين كانوا يرفضون التكلم معي ، فقد أوكلت مهمة حضور الحفلات الرسمية لفيجيه الذي كان يقوم بها مع زوجته خير قيام .

لكن كان هناك اسرائيليون آخرون يتوقون للقائي . فذات يوم في ايار ، وصلت رسالة موجهة الي ، تسلمها فيكتور ميلز وفتحها ظنا منه انها كانت رسالة رسمية . لكنه وجد ورقة مطبوعة على الالة الكاتبة ، بامضاء « اليد المنتقمة » تتضمن قائمة « بالجرائم » التي ارتكبتها . ثم تنصحني بمغادرة البلاد قبل ٢٠ ايار والا أرغمت على مغادرتها ملفوفا بكفن .

وهرع فيكتور ميلز بالرسالة وهو يرتجف خوفا علي . فطلبت اليه تسليمها للبوليس الاسرائيلي . ولم ارها مرة اخرى ، كما انها لم تسلبني النوم ، مع انني لم انس ما حدث للكونت برنادوت ولهانسن . غير ان ما ازعجني هو ان اشخاصا عديدين جاؤوا الي ، في صباح اليوم التالي ، للتعبير لي عن قلقهم وشجبهم لتلك الرسالة . وحين سألت زواري كيف عرفوا بها ، ذهلوا وقالوا « سمعنا ان الجرائد ذكرتها ليلة امس . » ثم علمت ان الرسالة وزعت على الجرائد قبل أن تصلني . حتى ان راديو النمسا اشار اليها في نشرة اخباره المسائية .

رأيت ان اعلم الامين العام يوثنت بالامر ، ففعلت . وبعد ايام ، جاءني كتاب منه ينطق بالعطف ، قال فيه انه سارع الى تذكير الحكومة الاسرائيلية بمسؤوليتها نحو ضمان حياة جميع افراد الهيئة الدولية ، ثم طلب الي ان اقدم بنفسي احتجاجا الى الحكومة الاسرائيلية . وكم سرني هذا الطلب لرغبتي ، بالرغم من مقاطعة اسرائيل لي ، في مقابلة وزير الخارجية السيدة غولدا ماير والتحدث اليها .

وترددت غولدا ماير ، بادىء الامر ، بمقابلتي ، رغم الظروف الاستثنائية التي طلبت فيها تلك المقابلة . لكنها ، آخر الامر ، وافقت ، واعطتني موعدا بعد يومين . وفي اثناء تلك المقابلة اكدت لي ان البوليس الاسرائيلي يبذل جهده لكشف خبايا القضية ، وان البوليس يعتقد ان مجنونا وجه الي هذه الرسالة . فأجبتها قد يكون ذلك صحيحا ، واكدت لها انني لم اكن اشعر بقلق على حياتي لان السلطات الاسرائيلية تقوم بالاجراءات اللازمة . لكنني لفت نظرها الى الظروف الغريبة التي احاطت رسالة التهديد . وهنا قدمت لها تقريرا مفصلا عن توقيت تسليم الرسالة الي وكيف نشرت في الصحف وفي نشرة اخبار راديو

النمسا ، قبل ان اتسلمها بيوم . ثم انهيت كلامي بالقول : « انت توافقين معي على ان اية خسارة في ارواح افراد هيئة مراقبة الهدنة في فلسطين ستؤذي سمعة اسرائيل ، خصوصا اذا كانت الخسارة شخصا سويديا ! »

وهنا ثارت السيدة غولدا ماير ، لكنني بادرتها قائلا : « استمعي الي جيدا . صارحتك بكل هذا لانني ، من بضعة ايام ، قرأت في جرائدكم عن اجتماع عقده في ابو غوش بعض العرب الذين تعاونوا معكم ايام الانتداب . وقد حضره افراد من عصابة « سترن » ، بينهم رجلان شاركا في قتل الكونت برنادوت . وكانت حكومتكم قد لفظت بحقهما حكما رمزيا ، ثم عفت عنهما ونفتهما الى الخارج . وها هما يعودان الان ، فتستقبلونهما استقبال الفاتحين . واملي ان لا يعودا الى مزاولة نشاطهما السابق . »

وفهمت السيدة غولدا ماير ما عنيته تماما .

ثم كان ان فرض علي ان اخبر مدير بوليس القدس مسبقا عن جميع تنقلاتي ، وان لا انتقل من مكان الى اخر الا برفقة احد رجال الشرطة . كان يستحيل منع اغتيالي اذا كان هذا الاغتيال على اساس خطة مدروسة ، لذلك ترددت في قبول الحراسة . لكنني كنت مرغما على قبولها ، سياسيا بالنظر الى تحذير يوثنت للحكومة الاسرائيلية . ثم ان الحارس الذي رافقني احصى علي حركاتي ، وهذا ما اهتمت به اسرائيل . وكان علي ، ديبلوماسيا ، ان يرافقني حارس دولي الى جانب الحارس الاسرائيلي .

كانت نهاية المهلة التي اعطاني اياها الارهابيون للخروج من البلاد تقترب بسرعة . وفي العشرين من ايار ، وهو اخر يوم من المهلة ، قرأت في الجرائد انني تسلمت رسائل تهديد اخرى . وعندما وصلتني هذه الرسائل ، بعد ان ذكرتها الجرائد ، كا نالبوليس الاسرائيلي يجمعها دون ان اراها .

وفي صباح احد الايام نهضت من نومي لارى كوخا تم بناؤه بين ليلة وضحاها في المنطقة الحرام الواقعة بين مقر البعثة وحاجز البوليس الاسرائيلي . ثم علمنا بعد ايام انه بني مسكنا لرجل البوليس الذي يقوم بحراستي .

لكن الاسرائيليين ، على الصعيد الرسمي ، استمروا على مقاطعتي . ورأيت ان الوضع الذي واجهه اندرو كورديه بدأ يقترب مني بسرعة . ذلك ان مبرر كوننا قيمين على السلام وعدم انحيازنا الى اية جهة هو موضوعيتنا. لكن هاتين الصفتين قد تؤديان الى العداوة . وقد تفهمت عداوة الاسرائيليين ، لانني سمعتهم مرات عديدة يرفضون فكرة الموضوعية علنا . كانوا دائما يقولون : «اما ان تكون معنا او ضدنا . » واذا تجرأت فاتخذت موقفا موضوعيا فكان لا بد من ان يعتبروني « ضدهم » . والاسوأ من هذا

كله هو استعداد اسرائيل لاتهام كل من يقف موقفا موضوعيا بالتميز العنصري ضد اليهود . حتى اصبحت « اللاسامية » ماركة مسجلة يدفع بها كل مراقب تجرأ فوضع تقريرا موضوعيا في غير صالحها .

لقد كانت تجابهنا ، بعض الاحيان ، مواقف عربية صعبة لم تكن تخلو من العداء لنا لكنها لم تكن على تلك الدرجة من التحجر والجنون .

وكنا جميعا ، في هيئة مراقبة الهدنة ، قد توصلنا الى هذه النتيجة ، وهي ان العرب كانوا يضيقون ذرعا بتصرفاتنا بعض الاحيان ، لكن رد فعلهم كان على مستوى من التمدن اعلى بما لا يقاس من مستوى رد فعل الاسرائيليين . كان هذا غريبا حقا ، اذ لم يجيء الارض المقدسة احد الا وكان في قلبه حب وعطف على الاسرائيليين وعلى طموحهم الى بناء دولتهم الجديدة . لكنني لا اعرف بلدا كاسرائيل له مثل هذه القدرة على تبديد نية الاخرين الحسنة نحوها في دروب الخيبة والاشمئزاز . فكأن شيطانا تقمص اسرائيل ، همه تحويل اصدقائها الى اعداء . وانا واثق من ان ما دونته في هذا الكتاب سيثير حملة عنيفة ضدي . غير انه يبقى ، مع الاسف ، الصدق ولا شيء غير الصدق .

كان كل من جاء منا الى اسرائيل لا يعرف شيئا عن العرب ، فيما كان يعرف الكثير عن اليهود وعن الاضطهاد الذي تعرضوا له في غضون الحرب العالمية الثانية . لم اكن ولن اكون في حياتي لاساميا . ولطالما اتخذت من اليهود اصدقاء لي منذ الصغر . ولي في اسرائيل اصدقاء كثيرون فتحوا أمامي ابواب بيوتهم في اوج مقاطعة اسرائيل لي . وللكثيرين من موظفينا اصدقاء عديدين في اسرائيل . وما من هيئة في العالم ، كبعثتنا ، بدأ اعضاؤها عملهم وفي قلوبهم مثلما كان في قلوبنا من شعور ودي نحو اسرائيل .

أين هو الخلل اذن ؟ لكم تحدثت مع افراد البعثة ممن كانوا على أهبة مغادرتنا فعلمت ان جميعهم ، بدون استثناء ، انما جاءوا بنية شريفة ليساعدوا الجانبين على تنفيذ اتفاقية الهدنة ، مع عطف خاص على « اسرائيل » ، الدولة الصغيرة المسكينة . فما ان تمضي سنتان او ثلاث على احتكاكهم اليومي بالموظفين والعسكريين والافراد العاديين من الجهتين العربية والاسرائيلية حتى تتغير نظرتهم ، بل تنقلب راسا على عقب .

وكنت اسالهم عن الاسباب ، فأحصل على الاجابة ذاتها ، وهو ما خبروه في اثناء قيامهم بواجبهم ، من نفاق الاسرائيليين وخداعهم المستمر .

# اليمن



# الفصل الثالث والعشرون

كان ذلك في اوائل شباط ١٩٦٣ .

قلت : « هنري ، يظهر ان ايامـــي هنا اصبحت معدودة . » فقال « الثعلب » فيجيه : « كلا ايها الجنرال . لا تدع هذه الافكار تراودك . » لكن صوت فيجيه اعوزته رنة المؤمن بما يقول. ذلك ان المقاطعة الاسرائيلية نجحت بعزلي وتجميد فعاليتي ، بحيث لم اعد موجودا بالنسبة لاسرائيل . اما للعرب فبقيت صلتي بهم ناجحة وعلى احسن حال .

ولطالما تصورت وصول تلك اللحظة الحاسمة المريرة . وها هـــي الان قد وصلت . كنت جنديا دوليا عودته خبرته على انتظار وقوع اي امر مهما يكن غريبا . لذلك لم اجد فائـــدة من التذمر .

كنت مولعا بهنري فيجيه . وما كان لاحد في الدنيا ان يساعدني في تلك الايام العصيبة التي عانيتها ، مثلما ساعدني فيجيه . ومع مرور الايام اصبحت انظر اليه نظرتي الى رجل دولة من الطراز الرفيع . وها انا الان ارى في عينيه تلك النظـــرة التي ترتسم في عيني كل رجل دولة يعرف ان اللحظـــة الحاسمة قد وصلت وحان وقت الفراق .

كنت قد كتبت الى يوثنت لاقول له ان وجـــودي في القدس لم يعد ذا نفع . فجاءني رد يوثنت في اليوم التالي . وفيه يطلب مني الحضور الى « قصر الزجاج » في نيويورك .

لم يتغير قصر الزجاج من الخارج اطلاقا . لكن جوه الداخلي تغير تغيرا ملحوظا . ففي السنوات الاخيرة القليلة ، ارسلت اكثر من ثلاثين دولة افريقية جديدة ممثليها الى الامم المتحدة . فكنت تراهم في الردهات وفي الصالونات وفي قاعة الطعام . واكتسبت الدول الجديدة في الامم المتحدة اهمية سياسية اكبر بكثير مما كانت تستحق فعلا . فكـــان العالم يسمـــع اصوات مندوبي تلك الـــدول من فوق منبر الامم المتحدة ولم يكونوا يمثلون في الحقيقة ، الا زمـــرة حاكمة في بلاد متخلفة لا يربو عدد سكانها عن سكان الزنوج في حي هارلم في نيويورك . القلة منها فقط تدفع الاموال المتوجبة عليها للامم المتحدة . فكان شأن تلك الدول في الامم المتحدة شأن من يتمتع

بنفوذ دون مسؤولية . وكانت بمثابة مركز تجمع تحولت معه الامم المتحدة الى بؤرة للكراهية العنصرية .

لقد اخل وجود تلك الدول الجديدة في الامم المتحدة بميزان القوى في المنظمـة الدولية وساعـد علـى انحدارهـا . ولا شك في ان الروس والاميركيين ندموا على مساعدتهم لها ، حين تولت الحكـم فيها زمـرة فاسدة . واعتقـد ان انضمام الدول الجديـدة الى الامم المتحدة قد جرد المنظمة من قوتهـا ، وان لا سبيل بعد الان لحـل الازمـات الدولية الا بالمفاوضة المباشرة .

كانت أروقة الامم المتحدة تغص بجماعات من الافريقيين ، حلقـات حلقات ، يتحدثون وعلى وجوههم دلائل التآمر . فما ان تنضم سيدة بيضاء الى حلقاتهم حتى تحل دلائل السرور على وجوههم محل دلائل التآمـر . وكم من مرة رايت سيدة بيضاء وحيدة ، وقد احاطت بها حلقة من الوجوه السوداء الضاحكة . مما ذكرني بالشائعة القائلة بأن خير سبيل لضمـان النفوذ في تلـك الدول الجديدة هي شبكـات الدعارة السرية .

زادني الجو المتغير في الامم المتحـدة انقباض على انقباض ، عنـد وصولـي اليها . لكن ما ان دخلت الطابق الثامن والثلاثين حتى وجـدت كل شيء على ما كان عليه مـن قبل . فلقيت يوثنت جالسا الـى مكتبه والسيجار في فمه وملف المراسلات بيننا امامه على الطاولـة . ودهشت عندما بادرني بقوله : « ايها الجنرال ، هل انت على استعداد للبقاء فـي القدس ؟ » فأجبت : « نعم يا سيدي ، شرط ان تكون انت مطمئنا الى انني لست في هذا المكان عديم الفائدة . »

فنظر الي يوثنت صامتا . فاستطردت قائلا : « اعتقد ان هذا أمـر أصبح مفروغا منه . » فقال : « قد يكون كما تقول . لكننا نقدر الظـروف الصعبة التي عملت فيها . والان ارى ان مهمتـك في الامم المتحدة قاربت الانتهاء . » فأجبت : « نعم . لم يبق منها سوى اسبوعين . » فقال : « وبعد ذاك ؟ هل لك ان تدرس مسألة بقائك معنا للقيام بمهمة جديـدة اذا دعت الحاجة ؟ اعتقـد ان الحاجة اليك ستنشأ . فبالاضافة الى القدس ، هناك مشاكل كثيرة في اماكن عديدة من العالم . واذا كان هذا يوافقك ، اريدك ان تبقى في القدس ، ريثما نجد خلفا لك . »

ـــ حضرة الامين العام . عندما تتكلـم عن مهمـة جديدة ، هل تعني اليمن ؟

فلم يجب يوثنت سلبا او ايجابا . فتابعت كلامي قائلا :

ـ اذا كنت تقصد اليمن ، فيسرني ان اقبل ، انما بشروط .

فنظر الي وعلامة الاستفهام ترتسم على وجهه . فقلت :

ـ قضيت في خدمة الامم المتحدة خمس سنوات ، جابهت فيها صعوبات مريرة علمتني بعض الدروس الاساسية . لست قلقا على نفسي ، بقدر ما انا قلق على الذين يعملون معي . فلي واجب نحوهم . وقد تعلمت من خبرتي أن ليس من السهل القيام بهذا الواجب نحوهم .

ـ من الافضل ان تتكلم بصراحة ، ايها الجنرال .

ـ اشكرك يا سيدي . شروطي للخدمة في الامم المتحدة لا تتغير اينما ارادتني المنظمة ان اخدمها . اولاً ، يجب أن تكون سلطاتي واضحة لا لبس فيها ولا ابهام . وثانيا ، عندما اطلب مساعدة ، فانما تكون الحاجة اليها ملحة وحيوية بحيث تستدعي مساندتك لي بقوة . وثالثا ، اخذ رايي عند تعيين اي موظف كبير في البعثة التي ارئسها .

ـ يا عزيزي الجنرال . شروطك معقولة جدا . واؤكد لك اننا سنجيبك على طلباتك . وثق ان باستطاعتك الاعتماد على مساندتي لك .

لو كنت من المتشائمين لطلبت من يوثنت ان يسجل هذا الاتفاق على ورقة . حتى في تلك الساعة وفيما كنت اطلع يوثنت على قضايا الامن في بعثتنا ، تملكني شعور بالشك لم اتمكن من التغلب عليه . ولم يكن يوثنت هو مبعث هذا الشعور . فقد كنت وما ازال اثق ثقة كلية به وبنفسه الطيبة . لكنني كنت افكر في قسم الادارة وقدرة هذا القسم على سوء الادارة . وكنت لا اجهل انني لم أكن محبوبا في الطابق الواحد والعشرين ، وان ذلك كان كافيا لعرقلة تنفيذ ما وعد به يوثنت .

جالت هذه الافكار في خاطري ، وانا اضع بين يدي يوثنت ملفا عن فتاة اسرائيلية كانت تعمل في احدى السفارات الاجنبية في باريس قبل ان تأتي الى اسرائيل . فأخرجت صورتها من الملف ليراها يوثنت . كان حالها كحال اللواتي كنا نجابههن دائما في القدس . فبعد ان نزحت من فرنسا الى اسرائيل ، اختارت ان تخدم وطنها بالالتحاق « بالفدائيات » في القدس للايقاع بموظفينا . ورفع يوثنت حاجبيه بدهشة ، عندما قلت له أنها طلبت الينا مساعدتها على دخول الولايات المتحدة ، للزواج من اميركي عاد الى بلده بعد خدمة طويلة في اوروبا . فاذا لم يتم زواجها هنا ، فهي تطلب ان نضمن لها عمل في الامم المتحدة بنيويورك .

ثم عدت الى القدس انتظر تعيين خلف لي . واغتنمت الفرصة

لدراسة الوضع في اليمن . ولم يكن ذلك بالامر السهل .

تقع جمهورية اليمن في الجنوب الغربي من الجزيرة العربية . عرضها مئتا ميل ، وطولها ثلاثمائة . ارضها صحراء قاحلة وعدد سكانها يتراوح بين الاربعة والخمسة ملايين . يحدها من الشمال المملكة العربية السعودية، وتفصلها عنها سلسلة من الجبال . ويحدها من الغرب شاطىء البحر

واليمن بلاد فقيرة ذات مجتمع قبلي . كان يحكمها لمدة قصيرة مضت الامام احمد ، وكان حاكما ظالما ، الى ابعد حدود الظلم . حتى انه قتل شقيقيه احمد وعباس خوفا من أن ينتزعا الحكم . كذلك فتك بعدد من السياسيين والعسكريين الطامحين الى الحكم . وامتاز حكم الامام بمزيج من الحكمة والحدس والارهاب . وكان على خلاف دائم مع الانكليز في الجنوب العربي ، مما دفعه الى قبول المساعدات الروسية دون ان يسمح لهم بالسيطرة عليه . بل انه كان يستعدي الصينيين على الروس والعكس بالعكس . ففيما كان الروس يبنون له مرفأ بحريا في الحديدة ومطارا في صنعاء كان الصينيون يعملون على شق طريق طوله مئة وخمسين ميلا ، بين المرفأ وعاصمته . ولما طالبه الصينيون بأكلاف الطريق اجابهم : « لا اريد ان ادفع لكم . واذا كان هذا لا يعجبكم ، فخذوا الطريق معكم . »

في التاسع عشر من ايلول ١٩٦٢ ، قتل الحاكم المستبد وانهار حكمه بسرعة . واصبحت اليمن عرضة للاضطرابات التي كان يغذيها المصريون والصينيون والروس ، أملا باضعاف علاقة الولايات المتحدة بالعرب . وبدأ صوت العرب من القاهرة يبث دعايته بين اليمنيين الذين توافرت لهم اجهزة الراديو . وطلب الرئيس عبد الناصر من الامام الجديد البدر ان يعلن تضامنه مع القوى المناهضة للاستعمار ، لكن الامام الجديد رفض الاستجابة لهذا الطلب واعلن قائلا : « ان اليمن بلد مستقل . اريده حياديا كسويسرا وعلى صلة طيبة مع جيراني في عدن والسعوديين في الشمال . ولا اريده خاضعا لسيطرة احد . »

كان هذا التصريح ضربة للرئيس عبد الناصر ، الذي كان يهيء ضربة جديدة في اليمن يستعيد بها النفوذ الذي خسره في العالم العربي بعد انفصال سوريا . فلم يمض اسبوع حتى اندلعت الثورة في اليمن . وحاول احدهم ان يغتال الامام ، لكنه فشل ، مما دفع الجيش اليمني الى شن هجوم على القصر الملكي بقيادة عبد الله السلال ، رئيس الحرس الملكي . فنسف الجنود الطوابق العليا من القصر ، ثم اعلن السلال مقتل الامام البدر . وفيما كان السلال منهمكا بقتل بعض الوزراء والامراء الملكيين ،

هرب الامام الى القبائل الموالية لـــه ، القاطنة في الجبال الشمالية علـــى الحدود السعودية . وهناك انشأ حكومة ونظم جيشا بمساعدة السعوديين الذين أمدوه بالاسلحة والذخائر والذهب .

اما في صنعاء ، فقد رقّى الكولونيل السلال نفسه الى رتبة مشير ، وشكل حكومة ثورية لا تتعدى سيطرتها المدن وبعض القبائل القاطنة في المنطقـــة الغربية ولا تستطيع الاستغناء عن المعونة العسكرية الخارجية اذا ارادت ان تدوم . واستجابت مصر لطلب المعونة فورا ، فارسلت فرقتين مظليتين نزلتا في منطقة جبلية تقطنها قبائل معادية لمصر . وكان ان قضي على أكثر افراد هاتين الفرقتين . وتعويضا عن تلك البدايـــة السيئة ، قام المصريون بعملية غزو كثيفـــة لليمن عن طريق مرفأ الحديدة . وسرعان ما اصبح ثلث الجيش المصري في اليمن .

وهكذا استطاع السلال الاستمرار في الحكم ، فدشن عهده الجديد ، عهد الحريات الديموقراطية والتقدم ، بقتل كل شخص تعاون مع النظام القديم واوقعه سوء حظه بين يديـــه . لكـــن سيطرة السلال بقيت ضعيفة وضيقـــة . اما الامام البدر ، فقـــد استطاع احتلال مناطق شاسعة في الشمال والشرق وحصر المصريين داخل المدن .

ثم تبين ان رجال القبائل المؤمنين بالامام كانوا يخوضون حربا يؤمنون بها ، فيما كـــان الجنود المصريون يقاتلون بدون حماسة . ولولا تفـــوق المصريين الجوي لانهارت جمهورية السلال في الحال ، ولاضطر المصريون للخروج من اليمن . كان الطيران المصري يلقي يوما بعـــد يوم اطنانا من الصواريخ الروسية فوق الجبال واطنانا من القنابل فوق المناطق المناهضة لحكومـــة السلال . ولم يستطع اي من الفريقين احراز النصر . فبقي الامام مسيطرا على قسم كبير من اليمن ، فيما بقي السلال ، بمساعـــدة المصريين ، مسيطرا على صنعاء والسواحل ومعظم المدن الكبرى ، ومنطقة الشافعية في الجنوب .

واعترفت الولايات المتحدة بحكومة السلال ، في ١٩ كانـــون الاول ١٩٦٢ ، بعد التشاور مع القاهرة ووعدها لها بالانسحاب من اليمن . وكان هذا الاعتراف محزنا حقا ، استند الى اعتقاد وزارة الخارجية الاميركية ان عبد الناصر رجل وطني يستطيع الوقوف في وجه الشيوعية . فضلا عن ان الولايات المتحدة رات في الشرق الاوسط سوقا ضخمة لرجال الاعمـــال الاميركيين . وهكذا اعتمـــد تدخل عبد الناصر في اليمـــن على الاسلحـــة الروسية وعلى الاموال الاميركية .

وهناك سبب آخر للاعتراف الاميركي بحكومة اليمن الجديدة ، هـــو

محاولـــة اضعاف النفوذ الروسي في تلك المنطقة القريبة من افريقيا ومن حقول النفط العربية . وانا ، شخصيا ، ارى ان هنالك سببا آخر ، هو احراج السياسة البريطانية في الجنوب العربي ، لتوسيع مصالح اميركـا النفطية الى تلك البقعة من العالم .

لم يسحب عبد الناصر جنـــوده من اليمن . بـــل بالعكس ، اضطر لزيادة عددهم . فقد كان انسحابهم يؤدي الى انهيار الحكم الجديد . وهكذا اصبحت اليمن مسرحـا لحرب اهلية على نطاق واسع . فكان المصريون يدعمون فريقـــا ، والسعوديون فريقا آخر ، يؤيدهم في ذلـــك ، ادبيا ، الاردن وايـــران .

وشهدت نيويورك وواشنطن ، في هذه الاثناء ، مساعي ضخمة ادت الى ارسال بعثتين الى الشرق الاوسط في آذار ١٩٦٣ لــــدراسة الوضع وامكـــان وقف الحرب هناك . وتألفت البعثة الاولى من رجـــل واحد هو السفير الاميركي السابق الزورث بنكر ، والبعثة الثانية من رجل واحـــد ايضا هو رالف بنش ، ممثلا للامـــم المتحدة . وقـــد زار افراد البعثتين القاهرة وجدة وصنعاء ، واجريا محادثات هدفها منع انتشار القتال وتمهيد الطريق للمراقبين الدوليين .

ولما كانت الولايات المتحدة والامم المتحدة لا تعترفان بحكومة الامام البدر ، فقد اقصي هذا الاخير عن تلك المحادثات التي تم الاتفاق فيها على ما يلي : اولا ، انشاء منطقة مجردة من السلاح على الحـــدود السعودية اليمنية ، تمتد مسافة عشرين كيلومترا من كل جهـــة . وثانيا ، السماح باقامة محطـــات مراقبة في المنطقـــة المجـــردة من السلاح علـــى جانبي الحدود هدفهـــا منع المملكـــة السعودية من مساعدة القوات الملكية فـــي اليمـــن . ووعد المصريون بعد تردد بالكف عن ضرب المعاقل الملكيـــة ، حالما يوضع هذا الاتفاق موضع التنفيذ .

كان هذا الاتفاق في الظاهر ، على الاقل ، خطوة حسنة نحو وقف اطلاق النار . لكنني شككت في السعوديين والمصريين على التقيد بمضمونه.

كنت لا ازال في القدس ، حـــين تلقيت امر يوثنت بالقيـــام برحلة استطلاعية لوضع تقرير عن نوع المراقبة التي تحتاج اليها الامم المتحدة لتنفيذ مهمتها الجديدة .

كان ذلك في ٢٧ نيسان ١٩٦٣ . طلب مني يوثنت ايضا ان اطير الى القاهرة وجدة وصنعاء ، لاجراء محادثات مع المسؤولين حول جهاز المراقبة ومداها ، وان ازور المنطقة الحرام المنوي انشاؤها لارى ما يحدث هناك . وكان علي ايضا ان اختار مكانا لائقا لمقر القيادة ، وان اقترح اين تقـــام

محطات المراقبة ، وان اقدم تقريـــرا عن خطوط الامـــدادات والمواصلات واحوال المعيشة . ثم ارادني يوثنت ان ارفع له ، على اساس المعلومات التي احصل عليها ، توصياتي بشأن عدد افراد البعثة ، على ان يكون حوالي خمسين . والمح يوثنت الى ان الامم المتحدة لا تريد ان تفعل اكثر من هذا في اليمن ، بالنظر الى صعوبة البلاد ومساحتها الشاسعة .

كانت رحلتي استطلاعية في تلك المرحلة . فانحصرت مهمتي باجـــراء محادثات حول اقامة رقابة فعالة تتحمل الحكومات المعنية جزءا من نفقاتها . وكانت الامم المتحدة مضطرة لطلب المعونة المادية من هذه الحكومـــات ، لان كثيرين من الدول الاعضاء في الامم المتحدة لم يدفعوا ما يتوجب عليهم دفعه من نفقات المنظمـــة في الكونغو .

وهكذا فقد تعدت مهمتـــي الشؤون العسكرية واكتسبت صفـــة دبلوماسية . لذلك حرصت على ان اختار مساعدي من خيرة الموظفين واشدهم كفاءة فوقع اختياري على ستة ، بينهم العقيد لاري دافيد الاميركي الذي كان يتكلم العربية بطلاقة . ثم غادرنا القدس في ٣٠ اذار ووصلنا القاهرة في اليوم نفسه .

وفي اليوم التـــالي قابلت صـــديقي اللواء حلمي ، مـــدير الشؤون الفلسطينية ، ثم السيد عمر صبري . فأجريت معهما محـــادثات عملية وودية امتدت حتى بعد ظهر ذلك اليوم . ثم قابلت المشير عبد الحكيم عامر ، قائد القوات المسلحة ، ففاجأني بقوله ان المصريين لا يوافقون على سحب جنودهم من المنطقة المجردة من السلاح في الوقت الحاضر ، وانهم قد يفعلون ذلك في المستقبل وفقا لتطور الامور ومجرى الاحـــداث . واوضح المشير عامر ان ليس في نية المصريين سحب جميع جنودهم من اليمن . لكنه اكد لي ، في الوقت نفسه ، ان مصر تحرص على سحب اكبر عـــدد ممكن مـــن جنودها ، شرط ان توقف السعودية معونتها للملكيين .

واستطرد المشير عامر مؤكدا ان السعوديين لن يكفوا عن معونتهم هذه للملكيين ، خصوصا وان السعوديين يستغلون الفترة الحاضرة التي تسبق اقامة محطات المراقبة الدولية لارسال مساعدات ضخمة من الرجال والسلاح . ثم اخذ المشير عامر خريطة واطلعني فيها على الطريق التـــي يستعملها السعوديون لايصال مساعداتهم الى الملكيين ، كما دلني على مدينتي جيزان ونجران وادعى ان السعوديين يدربون القوات الملكية فيها على القتال .

وعندما سألته عما اذا كانت مصر مستعدة لاعادة النظر في موقفها هذا اذا ما سمحت السعودية لنا باقامة محطات مراقبة في المنطقة الحرام ،

على جانبها من الحدود ، اجابني بان اتفاقا كهذا لن يكون الا حبرا على ورق ، وانه لا يعني شيئا للسعوديين . وطلب مني المشير عامر ان اخبره بحصول امر كهذا اذا تم حصوله بالفعل .

وحملتني احاديثي مع المسؤولين المصريين على الاعتقاد انهم يريدون انشاء بعثة مراقبة دولية ، يزيد عدد افرادها عن عدد افراد فرقة عسكرية كاملة ، وذلك رغبة منهم في ان تقوم بمهمتها خير قيام . ومع ان هذا الموقف سليم من الناحية العسكرية ، الا ان ميزانية الامم المتحدة لم تكن تسمح به . واكد لي المصريون ان مقر قيادتهم في اليمن سيزودني بتقدير صحيح للمساعدة التي يستطيعون منحها لي . اما بشأن اقتراحي المبدئي ان تتحمل مصر بعض الاعباء المالية التي تحتاج اليها البعثة ، فقد تردد المسؤولون المصريون في الرفض او القبول .

وفي اليوم التالي ، ذهبت الى مكة ، حيث حالت بيني وبين مقابلة الامير فيصل مشاغله الكثيرة . فاستقبلني نائب وزير الخارجية السيد عمر السقاف ، وهو رجل جذاب يهتم بالرؤيا السليمة وبالصدق اكثر مما يهتم بتحقيق مطامحه . فقال لي ان اي اتفاق حول المنطقة الحرام يجب ان يتم مع مصر ، لان المملكة السعودية لا تعترف بالجمهورية اليمنية . لكنه اكد لي ان حكومته توقفت ، منذ ٢٩ نيسان ، عن ارسال الاسلحة والذخائر والاموال والرجال الى الملكيين . وهنا تذكرت قول المشير عامر لي بان السعوديين ارسلوا مساعدات ضخمة الى اليمن ، قبل اقامة محطات مراقبة دولية . فاشرت الى هذا الموضوع بلباقة ، لكن السيد السقاف اكد لي بان حكومته اوقفت جميع المساعدات على اختلاف اشكالها ، وان الامير فيصل اعطى كلمة شرف بذلك . واستطرد السيد السقاف قائلا ان بلاده لا تقبل ببقاء قوات مصرية في اليمن لحفظ الامن ، وانها تلح على انسحاب الجيوش المصرية انسحابا تاما كاملا ، بما في ذلك الخبراء العسكريون في منطقة « المفتي » .

وبالرغم من الحاح السقاف على ان مساعدة حكومته للملكيين قد توقفت بجميع اشكالها ، الا انه اكد لي رغبة حكومته في الاستمرار بارسال الاغذية والادوية الى ان تستطيع الجمهورية الجديدة فرض سيطرتها على جميع الاراضي اليمنية . اما بشأن تحمل قسم من الاعباء المالية ، فقد وعد بان حكومته مستعدة لذلك ، كما انها مستعدة للتعاون مع بعثة المراقبة تعاونا كليا . وقال ان حكومته تمنح افراد بعثة المراقبة حرية التحرك الكاملة ، عبر الحدود السعودية في الجانب الشمالي من المنطقة المجردة من السلاح . وبصدد عدد افراد بعثة المراقبة ، فقد قال لي السيد السقاف : « هذا امر لا يستطيع ان يقدره سواك . فاذهب ، ايها الجنرال ، وانظر بنفسك . لكن ثق باننا نقدم لك كل مساعدة تحتاج اليها . »

# الفصل الرابع والعشرون

اقلعت بنا طائرة الداكوتا من مطار جدة يقودها بوب دينسون ومساعده اوليماك ، وهو طيار سعودي روسي الاصل ومتزوج من فرنسية. كانت رحلتنا من جدة الى مرفأ جيزان على البحر الاحمر قصيرة جدا .

استقبلنا في جيزان الامير تركي السديري وبعض الضباط في الجيش السعودي الملكي استقبالا بالغ الحفاوة والتكريم . وبدا لي منذ اللحظة الاولى انهم لا يريدون ان يخفوا شيئا عنا . وطفت في المدينة متفقدا المرفأ والمستشفيات والثكنات العسكرية . لكنني لم الحظ اي اثر للتدريب العسكري . ولاحظت ان وسائل العيش في جيزان صعبة جدا ، وان من الصعب على مراقبينا ان يعيشوا في تلك المدينة .

وبعد ان اكد ضيوفنا لي ان بامكاننا الاعتماد على كل مساعدة يستطيعون تقديمها لنا ، اقلعت بي الطائرة في رحلة استطلاعية فوق حدود المنطقة المجردة من الناحية الشمالية . كانت المنطقة شاسعة تزيد مساحتها عن ستة الاف ميل مربع . وهي تتألف من صحارى قاحلة مسطحة ، وجبال مسننة تصل في ارتفاعها احيانا الى اكثر من احد عشر الف قدم . ورأينا في تلك الصحارى القاحلة بعض القرى المنتشرة هنا وهناك . وقال لي لاري دافيد الذي كان يصحبني ان الطقس مع قسوته ، صالح لانواع كثيرة من الحيوانات كالحيات والعقارب والذئاب . اما عن السكان ، فعلمت بانهم جميعا ملكيون وينظرون نظرة عداء الى زائر غريب . واتضح لي ان مهمة هيئة المراقبة عسيرة جدا ان لم تكن مستحيلة . خصوصا وان الطائرات لم تكن تجدي نفعا ، لان الغيوم تتصاعد وتتلبد صباح كل يوم .

كان السكن على الجبال كثيف ، بخلاف الصحارى القاحلة . فكنا نرى من الطائرة قرية بعد اخرى تقبع في السفوح التي يستحيل على سيارة «الجيب» سلوكها . ولم يكن يعترف السكان باية سلطة ، سعودية كانت أم يمنية ملكية ام جمهورية . واتضح لي عدم امكان مراقبة المنطقة الجبلية الا من الجو . ولما كانت القوافل تسير في الليل لتتجنب حر النهار والطائرات المصرية ، فقد كانت المراقبة الجوية عديمة الفائدة . وفي نهاية المنطقة الى الجهة الشرقية تقع صحراء الربع الخالي وقرية نجران ؛ حيث حطت بنا الطائرة على مطار صغير .

تقع نجران في نهاية المنطقة الحرام ، ضمـــن الاراضي السعودية ، وبجوارها بحيرة تحيط بها جبال يصل ارتفاعها الى اربعة الاف قدم .

ما ان خرجت من الطائرة حتى شاهدت جهازا للرادار ، ومدافع مضادة للطائرات ، وآثار ضرب الطائرات المصرية للمنطقة . فاستقبلنا حاكم المنطقة الامير خالد السديري ، وقائد قواته الكولونيل محمود عبد الحاج ، بحفاوة عربية اصيلة . ودخلنا خيمة قرب المطار حيث شربنا القهوة والشاي ، ثم تابعنا رحلتنا الى قرية نجران بسيارة الجيـــب التي تخص الحاكم الامير . وشاهدت في طريقنا رجالا قدرت عددهم بفرقتين يقومون بتمارين عسكرية ، كما شاهدت بعض المدافع على منحدرات الجبـــال . وتذكرت عندئذ قول اللواء حلمي لي ان اليمنيين الملكيين يتدربون في جيزان وفي نجران وان المساعدات السعودية تأتي من هذين المركزين . وتبين لي انه كان مخطئا فيما خص جيزان ، لكنه كان مصيبا فيما خص نجران .

وبدا لي ، منذ الوهلة الاولى ، ان جو قرية نجران جو استعـــداد للمعركة . كان الامير رجلا ظريفا ، ومضيافا ، ومزهوا بنفسه . وقبل ان نغادره اصر على اننا نستطيع الاعتماد عليه في كل ما نحتاج اليه .

وعدت الى فندق الكندرة في جـــدة . وفي اليوم التالـــي اقلعت بنـــا الطائرة من مطار جدة الى مرفأ الحديدة . وهنـــاك وجدت اللواء حلمي وبعض الضباط الاخرين في انتظارنا . وكان مطار مرفأ الحديدة يعج بطائرات السلاح الجوي المصري . اما المدينة نفسها ، فكانت قديمة تقوم فيها بعض البنايات الحديثة التي يقطنها ، كما قيل لي ، الخبراء الروس .

وفي اثناء طوافنا في المدينة ، صرح لي اللواء حلمي ان السيئة الوحيدة في الحديدة هي الرطوبة التي تقرب المئة درجة . وكان واضحا ان احدا من الضباط لم يكن متحمسا لوجوده في تلك المنطقة النائية . لكن هؤلاء الضباط ، بالطبع ، لم يظهروا عدم تحمسهم هذا امام اللواء حلمي . ولا لوم عليهم .

وحلقت الطائرة بنا من مطار الحديدة الى صنعاء ، فوق سلسلة من الجبال ، يزيد علوها عن تسعة الاف قدم . وكان مطار صنعاء ، بخلاف مطار الحديدة الحديث ، غير مهيأ لاستقبال الطائرات النفاثة . كان مطارا صغيرا لا يصلح الا لوسائل النقل الجوية القديمة . كتلك الطائرات البالية التي شاهدناها فيه ، والتي اهدتها حكومة تشيكوسلوفاكيا الى الامام .

قادني اللواء حلمي الى مكتب قائد المطار ، حيث وجدنا عددا مـــن الصحفيين والمصورين المصريين . لكن اللواء حلمي حماني منهم حتى دخلنا المكتب . وسرعان ما سمعت ضوضاء في الخارج كان مصدرها شابا صغيرا يلح على ان يتكلم معي شخصيا . ولم يكن ذلك الشـــاب سوى موظف

المراسم في وزارة الخارجية اليمنية الذي عينته الوزارة لمرافقتي . كان قد درس اللغة الانكليزية في مدرسة ارسالية ايطالية في الخرطوم . فطلب مني ان ارافقه الى السيارة المعدة لنقلي الى المكان الذي خصصته الحكومة اليمنية لاقامتي في المدينة .

كانت السيارة تضاهي افخم القصور . اذ كان كل ما فيها مطعما بالنقوش الجميلة ، كما كان زجاجها لا يخترقه الرصاص . ثم علمت ان الملك سعود كان قد أوصى على هذه السيارة هدية الى الامام مع جارية جميلة جدا . وتوقفت خدمات السيارة بعد ان اصبحت اليمن جمهورية ديمقراطية .

وتوجهنا الى المدينة فحللنا في قصر الضيافة الذي كان قصرا للحريم في الماضي . ولما كان عدد مرافقي يبلغ اثني عشر شخصا ، بمن فيهم سكرتيرتنا الانسة دوروتي ستيفنيسن ، وهي سيدة اسكتلندية ذات شخصية فذة ، فقد واجهنا وضع غريب لم تتمكن دبلوماسية الامم المتحدة من معالجته . وهو خلو القصر الا من حمام واحد ليس لبابه قفل او مفتاح . وبعد التداول فيما بيننا ، قر الرأي على ان يرافق احدنا السكرتيرة ، فيقف في الباب حارسا لها ، كلما ذهبت الى الحمام .

لو كنت اعلم ان عدد اعضاء بعثتنا سيبلغ ، بعد ستة اسابيع ، خمسا وعشرين عضوا ، لما كنت اخترت تلك الليلة غرفة المحظية بين الزوجات . فقد بت فيها مع اللواء حلمي ، فكانت في الاغلب ، المرة الاولـــى التي يبيت فيها ذكران برتبة لواء !

وعند غروب الشمس ذهبت لزيارة الرئيس السلال ، وبرفقتي اللواء حلمي ولاري دافيد . وسرنـــا في اروقة قصر من طـــراز قصور القرون الوسطى . كان يعترضنا حراس مدججون بالرشاشات . ثم وصلنا اخيرا الى غرفة مفروشة بالسجاد الجميل والكراسي المطعمة بالذهب ، فجلسنا فيها ننتظر الرئيس السلال . وما هي الا لحظة حتى دخل الرئيس . كان رجلا صغير الحجم ، بادي التعب . ولم يبتهج للقائنا ، بل اتخذ منا موقفا عدائيا فور دخوله . وتحدث اليه اللواء حلمي باللغة العربية شارحا له الغرض من زيارتي . وكان الرئيس السلال يقاطعه بصوت عال ، وبكلمات قصيرة جدا . ولم يتغير موقفه عندما اخذ اللواء حلمي يشرح له البيان الذي كان قد اعده لي لاري دافيد ، لهذه المناسبة ، والذي انهيته بطلب الى السلال ان يؤكد لنا نيته في التعاون معنا ومساعدتنا على انجاز مهمتنا . وفجأة دبت الحياة في الرئيس ، فأخذ يتكلم عن الثورة واهدافها ، وعن الوضع الحاضر الذي تواجهه الجمهورية الجديدة ، مما اقنعني باخلاص السلال وتفانيه في سبيل ما يعتقده خيرا لشعبه . ثم قال الرئيس ان بعثتنا ستكون « هدية حلوة » من الامين العام للامـــم المتحدة . واخذ يهاجـــم

السعوديين بلهجة مرتعبة ، كارهة ، مدعيا بانهم اعطوا اليمنيين الملكيين من الذخائر والاسلحة ما يكفيهم لسنة كاملـــة من الحرب فيما اذا توقفت الامم المتحدة الى قطع الحدود اليمنية السعودية . ثم تحدث السلال ايضا عن الفقر في اليمن ، وعن قلة موارد الجمهورية الجديدة ، كما طلب المساعدة الفنية من الامم المتحدة . واخيرا اكد لي ان الحكومة ستعطي بعثتنا كل مساعدة تحتاج اليها ، والح على ان اليمن بلد فقير لا يستطيع ان يتحمل قسطه من نفقات البعثة .

بعد تلك المقابلة بيومين ، قمت برحلة جوية استطلاعية الى الحديدة ، ثم الى قرية سعدي التي تقع على بعد خمسة واربعين ميلا جنوبي الحدود اليمنية السعودية ، فتكون بذلك اقصى مكان في الشمال بلغه المصريون . كانت الامدادات تصل اليها بواسطة جسر جوي اقامه المصريون بعـــد ان استطاع الملكيون ان يقطعوا الطريق البري . وتبين لي ، بعد التحدث الى السلطات العسكرية هناك ، ان معظم المصريين كانوا ناقمين ومؤمنين بان خطتهم الاساسية فشلت . فقد وصلت ، او ما وصلت ، فرقة مصرية مؤلفة من ثلاثة الاف رجل وفي ذهن افرادها انهم انما جاؤوا اليمن لمساعدة ثورة ترتكز الى مساندة شعبية واسعة . لكن سرعان ما اتضح لهم ان الثورة لم تكن شعبية ، وان مطامح عبد الناصر واشتراكيته العربية لم يكـــن لها ، هي الاخرى مساندة شعبية في اليمن . وهكذا ازداد عـــدد افراد القوات المصرية حتى اصبح ثلاثين الفا . ولم يفعل هؤلاء شيئا سوى انهم خسروا نصف الاراضي التي استولوا عليها ، لسبعة او ثمانية اشهر مضت . ومن سعدي ، اكملت رحلتي الجوية الاستطلاعيـــة على طول حدود المنطقة الجنوبية المجردة من السلاح . ولم تكن الحالة هناك اكثر ملائمة لمحطات المراقبة من الحالة على حدود المنطقة الشمالية المجردة من السلاح .

وفي اليوم التالي ، اي في ٦ ايار ، عدت الى صنعاء وعقدت اجتماعا مـــع اللواءين حلمي وقاضي في مقر القيادة المصرية . وساد الاجتمـــاع جو من الود ، اذ كان الرجلان من اصدقائي الخلص . وكنت قد التقيت بالجنرال قاضي ، قائد القوات المصرية في اليمن والمسؤول المباشر عنها ، عندما كان قائدا في سوريا ، ايام وحدتها مع مصر . كان متزوجا من امراة هنغارية الاصل . وقد شاع في حينه انه قتل في سوريا ابان حركة الانفصال. وكم كان سروري عظيما بلقائه والاجتماع اليه في صنعاء .

وتأكد لي في محادثاتي مع اللواءين حلمي وقاضي ان المملكة السعودية امدت الملكيين باسلحة وذخائر تكفيهم بسنة كاملة من القتال . وبالرغم من هذه الصورة المقنطة، فقد اكد لي محدثاي ان المصريين سحبوا ثلاث فرق من اليمن الى مصر . لكن القسم الاكبر من القوات المصرية ما زال فـــي اليمن . ثم قالا لي انهما سيعطياني ، عندما يتم تاليف البعثة ، معلومات

مفصلة عن المواقع التي يسيطرون عليها ، وخرائط مفصلة للطرق التي يسلكها رجال القبائل اليمنية بعد حصولهم على التدريب العسكري في السعودية . كما كانا على استعداد لاعطاء البعثة جميع المعلومات التي ترد اليهم عن نشاط القوات الملكية . اما بصدد الاماكن التي ستحتاج اليها بعثتنا ، فلم يعتبرها اللواءان امرا صعب الحل ، اذ كان في صنعاء قصور كثيرة ما تزال خالية بعد ان استولى عليها الجمهوريون . وقد وافقا فورا على طلبي استعمال المطار المصري في مرفأ الحديدة، واكدا لي ان باستطاعتنا الافادة من التسهيلات المتوافرة في مستشفياتهم عند الحاجة . ثم رغب اللواء حلمي في ان يعرف العدد المقدر لافراد البعثة . ولما كنت اجهله ، اقتصرت على القول ان البعثة ستكون خليطا من الوحدات العسكرية ومن المراقبين .

وقبل مغادرتي اليمن في ٧ ايار ، اقام الرئيس السلال حفلة عشاء لنا في قصر الثورة ، وهو بناء مؤلف من طبقات عديدة ، كان في كل واحد منها اكثر من عشرة حراس يحملون اسلحة حديثة . ولاحظت ان جميع افراد الحرس كانوا صغار البنية . وحين جلس الرئيس السلال على رأس مائدة الطعام ، اخذ يحدثنا عن ان اليمن ما ان تتحرر من الظلم ، حتى تينع وتصبح زهرة ناضرة .

وفي القدس شرعت فورا باعداد تقرير عن رحلتي الى الامين العام يوثنت . والذي شغل بالي هو التوفيق بين اقامة جهاز مراقبة فعال في منطقة قفر تزيد مساحتها عن ستة الاف ميل مربع ، وبين رغبة الامين العام في ان لا يتجاوز عدد افراد البعثة خمسين شخصا .

بدأت تقريري هذا بوصف دقيق للرحلة التي قمت بها ، وللصعاب المادية التي ستواجهنا . وبالنظر الى رغبة الامين العام في ان لا يزيد عدد افرادها عن الخمسين ، فقد اشرت في تقريري الى ان اية محاولة لاقامة محطات مراقبة في المنطقة المجردة من السلاح ستبوأ بالفشل . واقترحت ، اولا ، وجوب توضيح حدود المنطقة المجردة من السلاح ، لان الخرائط المصرية والخرائط السعودية ليست متطابقة . وثانيا ان تتلقى البعثة بالنظر الى الصعوبات التي ستواجهها ، امدادات تكفيها ، في كل مرة ، لمدة تتراوح بين تسعين يوما ومئة وعشرين يوما . وثالثا ، ان لا يقل عدد افراد البعثة عن مئتين واربعة وثلاثين شخصا. اما بصدد عمليات المراقبة ، فقد اقترحت ان يكون عدد المراقبين العسكريين ستة ، يعينهم سرب من السيارات الاستطلاعية المسلحة ، وست طائرات للمراقبة الجوية ، وثلاث طائرات للشحن .

لم اكن اجهل ان مقترحاتي هذه ستزعج يوثنت كثيرا ، وقلقت لرد الفعل الذي ستثيره في الطابق الواحد والعشرين ، بالرغم من انها كانت معقولة

جدا . فطائرات النقل كانت ضرورية جدا للبعثة ، لانها وسيلة النقل الوحيدة . اما سرب الاستطلاع ، فكان أكثر ضرورة في بلد لا تتكلم فيه الا القوة .

لذلك داخلتني الشكوك حول الموافقة على مقترحاتي . ولعله كان خيرا لي لو استقلت حينذاك ، اذن لوفرت كثيرا من المال والالم والحنث بالوعود . لكنني وثقت بيوثنت وآمنت بالوعود التي اغدقها علي في نيويورك عندما قال لي : « لك ان تعتمد على مساعدتي . وثق اننا سنلبي طلباتك » .

# الفصل الخامس والعشرون

الجنرال اود بول شخصية مهيبة محبوبة . عرفته لعدة سنوات مضت . وكم سررت عندما علمت بتعيينه ابتداء من اول حزيران خلفا لي في القدس . وفي هذه الاثناء كنت منهمكا بانشاء بعثتي الجديدة التي اطلق عليها اسم « بعثة المراقبة الدولية في اليمن » .

لم اكن اشك ابدا في ان افراد هيئـــة مراقبة الهدنة في فلسطـــين سيتعاونون مع رئيسهم الجديد وسيحبون العمل معه . كنت والجنرال اود على ايمان واحد بالقيم العسكرية . وكم اعجبت بقدرته على العمل ، عندما انيط به تنظيم هيئة المراقبة الدولية في لبنان .

كان بودي ان انتظر قدومه في القدس فلم يسمح لي ضيق الوقت ، اذ كان من الحيوي والضروري ان أشرع بتنظيم بعثتي الجديدة . وفي الايام القليلة التي سبقت وصول الجنرال اود بول ، انهمكت باختيار الاشخاص الذين كانوا يريدون العمل معي في البعثة الجديدة . فاخذت بعضا منهم من هيئة الهدنة في القدس ، والبعض الاخر استعرته من الجنرال غياني ، قائد قوة الطوارىء الدولية في غزة . وهكذا غادرت الارض المقدسة في اخر شهر أيار .

درجت العادة على ان يجري احتفال رسمي امام العلم ، عندما يغادر رئيس القيادة مقر عمله . ويتخلل الاحتفال عـــرض صغير مع موسيقى عسكرية . اما الاحتفال الذي اقيم فكان رمزيا جدا ، لخصته بسطر واحد في تقرير ارسلته الى نيويورك .

تلك اللحظة يندر ان ينساها قائد . فهي بمثابة اسدال ستار على فصل من حياته . قد تعني تلـــك اللحظة شمسا مشرقـــة لمهنة القواد العسكريين ، وقد تعني شمسا آفلـــة لمهنة افنوا فيهـــا حياتهم . اما لي ، فكانت تلك اللحظة تعني خمس سنوات من الخبرة في الجندية الدولية ، خمس سنوات حاولت فيها ان اعطي افضل ما عندي بتجرد واخـــلاص ، كما حاولت ان ابعث الثقة والفعالية في تلك القوة الدولية التي انيطت قيادتها بي . فنحجب ، بالرغم مـــن انني كنت اخـــوض حربـــا علـــى جبهتـــين : عقلية الامم المتحدة التي لم تع مبدأ القوة العسكرية الموحدة القيادة ، وعداوة

اسرائيل التي تقف دائما حجر عثرة في سبيل تحقيق المثل العليا للامم المتحدة في الارض المقدسة . وبين تعصب الصهيونية والقومية العربية تألمت كثيرا .

ربما كان الممر الى الارض المقدسة هو في طبيعته مليء بالاشواك والحفر . وربما كانت المهمة مستحيلة منذ البداية . الا ان الستار الان قد اسدل على هذا الفصل من حياتي .

اثارت كلمة « علم » التي ذكرتها في اخر تقرير لي للامم المتحدة من القدس ، ويا للعجب ، اهتماما بالغا في نيويورك . فتصور البعض عرضا ضخما جرى لي امام قصر البعثة في القدس . ذلك ان القليلين في الامانة العامة للامم المتحدة كانوا يعلمون شيئا عن الاحتفال العسكري الذي يجري للقائد عندما يغادر مقر قيادته . كان بامكان هؤلاء وسواهم ان يسألوا الجنرال ريكهي . لكن فكرة سؤال ريكهي لم تخطر في بالهم ، او ان الطموح السياسي عند ريكهي قد تغلب على صفاته العسكرية ، فآثر الصمت . اقول هذا كله ، لان ردود الفعل التي اثارها في نيويورك ذلك السطر عن الاحتفال الرمزي الذي جرى امام قصر البعثة في القدس لحقني الى غبار اليمن وحرها .

وفي اليوم الذي سبق مغادرتي القدس ، اي في ٢٩ ايار ، ذهبت الى المقبرة اللوثرية في بيت لحم لزيارة ضريح سكارليت ، اذ ان قسما من قلبي كان مدفونا هناك ايضا .

كان في وداعي ، حين غادرت القصر الذي كان منزلي ومقر عملي في القدس ، جميع مساعدي والعاملين في بناء القيادة ، بمن فيهم الطباخ والبستاني والمشرف على الكاراج . رافقوني الى المطار ، حيث وقفوا صفا صفا ، فصافحتهم جميعا . ورأيت في تلك الوجوه الاردنية وفي البستاني أحمد الذي كان يتوسطهم ، شوقا لمصافحتي واخذ الصور التذكارية معي ، واستعدادا للذهاب معي الى اليمن . كانوا اصدقاء مخلصين ، وهم ما زالوا يكتبون لي حتى اليوم .

توجهت من القدس الى بيروت ، حيث صممت على تأسيس مقر مؤقت لبعثة المراقبة الدولية في اليمن . ذلك لان مدينة بيروت تتمتع بمركز ممتاز . فالى جانب كونها حلقة مهمة في سلسلة الخطوط الجوية العالمية ، فهي ايضا مقرا لعدة وكالات للامم المتحدة في الشرق الاوسط . وقد شعر تكذلك ان المراقبين الذين سيجتمعون هناك من القدس ودمشق وطبريا وغزة ليلتحقوا ببعثتنا الجديدة ، يستحقون بضعة ايام في بيروت للتمتع بمأكولاتها الطيبة وبحماماتها ، قبل ان يجدوا انفسهم في وسط غبار اليمن .

كان علي ان إنظم كل شيء بنفسي . فقد وجدت ان مكتب الامم

المتحدة ، عند وصولي ، لا يتسع لنا ، كما وجدت ان جميع الفنادق تغص بالزبائن . واذ كنت زبونا دائما في اوتيل فينيسيا ، فقد استطعت الحصول على ثلاث غرف اقمنا مكتبا فيها لمدة قصيرة . وهكذا باشرنا بالعمل رسميا في هيئة المراقبة الدولية لليمن . وظهر علم الامم المتحدة على مبنى اوتيل فينيسيا في بيروت .

في اليومين الاولين ، قضينا الوقت في تقديم تقرير الى الجنرال اود بول عن وضع البعثة في القدس ، وعن الوضع العام في المنطقة . ذلك ان الجنرال اود بول كان قد جاء بيروت في طريقه الى القدس . ثم بدانا نضع قوائم بكل ما كنا بحاجة اليه ، كما بدانا بتحضير اجهزة اللاسلكي التي سنستعملها فور وصولنا الى اليمن .

كنت اتوقع شعور يوثنت بالخيبة من مقترحاتي لكن لم يظهر اي رد فعل منه . ربما كان الامين العام منهمكا بمطالبة السوفيات بالاقتراع في مجلس الامن على ارسال بعثة المراقبة الى اليمن ، مع ان السعودية ومصر اعلنتا بعد عودتي الى فلسطين انهما على استعداد لتحمل نفقات البعثة بالتساوي ، وان البعثة ستعمل مبدئيا لمدة شهرين . وعلى هذا الاساس ، بدأ المحاسبون في الامانة العامة بتقدير نفقات البعثة ، مستندين الى تقريري الذي ارسلته الى الامم المتحدة . وقد اسرع المحاسبون في وضع تقريرهم بين يدي الامين العام دون ان يسألوني عن رأيي فيه او دون ان يعرضوه علي . وقد وصل المحاسبون الى رقم تقديري بلغ اربعمائة الف دولار تتحملها المملكة السعودي ومصر بالتساوي . وعلى الفور بعثت الامانة العامة في نيويورك بهذه الارقام الى القاهرة وجدة ، فوافق عليها الجانبان . وهكذا زرعت الامانة العامة للامم المتحدة بذور المأساة المقبلة ، باسراعها في ارسال هذه الارقام الى مصر والسعودية . ذلك انهما ، بعد الموافقة عليها ، لن يسمحا بزيادتها اذا اقتضت الحاجة في المستقبل . وكأن هذا لم يكن يكفي ، فقد قيل لي ، فيما بعد ، ان الامانة العامة توصلت الى ذلك الرقم بناء على دراسة المقترحات التي كنت قد قدمتها . لكن لو ان الامانة العامة استشارتني ، او اطلعتني على ذلك الرقم ، لما عضنا ناب الجوع . اذ كنت اعلم ان انشاء بعثة في منطقة نامية يكلف نفقات باهظة . والا تقلصت البعثة ، بحيث تصبح جهازا رمزيا .

حين علمت بارسال ميزانية البعثة الى جدة والقاهرة ، دون اطلاعي عليها ، كتبت فورا الى الامين العام يوثنت الفت نظره الى هذا الامر ، واطلب منه اعطائي فرصة لدراسة هذه الميزانية بالتفصيل وتقديم ملاحظاتي عنها . وجاء رد يوثنت غير مقنع ، بل مثير للغضب . وهو ان خطأ اداريا قد وقع ، وان الوقت قد فات الان ، وان تقديرات نفقات البعثة قد انجزت ، وان الحاجة الى وجود البعثة في اليمن لا تتحمل اي تأخير .

وهكذا لاحقنا « الخطأ الاداري » كالشبح في جميع عملياتنا في اليمن . وكلما شكوت من عدم مساندة الادارة في نيويورك لنا ، تلقيت الرد نفسه ، هو ان تقدير النفقات انما جرى على اساس المقترحات التي قدمتها في تقريري . مما جعلني اتساءل اذا لم يكن يوثنت قد نوى الاقتصار على وجود سياسي للامم المتحدة في اليمن . كل ما اعرفه هو ان الشقاق وقع بين القيادة العسكرية وبين السلطة الادارية .

وقد تأكدت من ذلك في اثناء زيارتي للقاهرة ، لمقابلة جوزيه رولز بنت ، احد المستشارين المقربين جدا من الامين العام يوثنت . كان بنت قد جاء القاهرة لحضور مأتم عمر لطفي ، المندوب المصري الدائم لدى الامم المتحدة. وفيما كنت اتناول معه طعام الغداء في نادي الجزيرة قلت له يجب انشاء بعثة قوية ذات فعالية سريعة في اليمن . ثم رويت له خبرتي في الكونغو . كان حديثنا صريحا او هكذا ظننت على الاقل . ثم افترقنا وانا اعتقد انه تفهم الوضع ، وانه لا بد سيسعى لمساعدتنا عند يوثنت ، لانه كان يثق به كثيرا .

وهذا ما جرى ، فافادتنا نصائحه ليوثنت كثيرا . وبالرغم من ان رولز بنت لم يشك في صحة ما قلته له ، فقد فوجئت عندما قرأت فيما بعد التقرير الذي ارسله الي يوثنت بعد انتهائنا من تناول طعام الغداء . ففي هذا التقرير اشار علي يوثنت بان يختصر جميع طلباتنا ويحصر مهمة البعثة في اليمن « بتأمين حضور دولي فقط . » وقال ان ذلك يوفر نفقات كثيرة .

للامم المتحدة الحق بان تحصر مهمتها في اليمن « بتأمين حضور دولي فقط . » لكن لماذا دعيت لقيادة بعثة في بلاد مقفرة ، مع التأكيد لي باعطائي كل مساندة احتاج اليها ، وبتلبية جميع طلباتي فورا ؟ كانت اليمن بلادا صعبة ، والعمل فيها شاق ، فشعرت انه كان من واجبي اعطاء صورة واضحة عن الوضع للذين كنت مسؤولا عنهم . اعلم الان انه كان علي ان استقيل انذاك . لكن استقالتي ربما كانت قد ادت الى اجهاض العملية باكملها .

ما من قائد الا ويرتكب الخطأ . وكان الخطأ الذي ارتكبته هو امتناعي عن الاستقالة لسببين : اولا ، لاعتقادي انني لو فعلت لذهبت البعثة الى اليمن على كل حال ولعانى الذين قبلوا بالعمل معي من فرض قائد عليهم في اللحظة الاخيرة . وثانيا ، لانني قد بلغت مرحلة كان من العار علي ان اتراجع منها .

لم اعد محبوبا في نيويورك ، او هكذا كنت اظن . فلم تعد نيويورك تكلف نفسها عناء الاجابة عن اسئلتي حتى تلك التي اتصلت بالمساعدات

الطبية . فقد تكون ملت من شكاوى عن صعوبة عملياتنا في اليمن . ففي مذكرة الى يوثنت قلت ان اليمنيين الملكيين قاموا بهجوم خاص في اثناء وجودي في اليمن ، هدفه البرهان على ان المصريين لا يسيطرون الا على منطقة محدودة من اليمن . كذلك شن اليمنيون الملكيون هجوما على موقع مصري يحرسه خمسون رجلا ، فقضوا عليهم بان فتحوا بطون الجثث ووضعوا فيها الراس الذي يخص كل جثة . وانهيت المذكرة بقولي : « ليس عندي ما يجعلني غير متأكد من حصول الشيء ذاته لجنودنا . »

وتلقيت أمرا من نيويورك بالاستعداد لمغادرة بيروت مع طلائع البعثة لانشاء مقر في صنعاء . فأجبت نيويورك ان وجودي شخصيا في صنعاء أمر عديم الفائدة اذا لم يكن معنا اجهزة لاسلكية . لذلك ، اقترحت ان يذهب فريق من بعثتنا لانشاء التجهيزات اللاسلكية ، ورفع العلم على المقر قبل وصولي . لكن نيويورك نبهتني الى وجوب اطاعة الامر الصادر الي باقامة مقر البعثة بنفسي ، مع تفادي اجراء عرض عسكري عند رفع العلم على البناء . ذلك ان اجراء مثل هذا العرض قد يؤدي الى سوء تفاهم بين البعثة وبين السلطات المحلية . فعادت بي الذاكرة الى العرض الذي أقيم لي يوم غادرت القدس .

لم استطع الحصول على طبيب يلتحق ببعثتنا . فاضطررت الى تجهيز « صندوق طبي » بنفسي ، وعلى حسابي الخاص .

ووافق مجلس الامن على ارسال بعثة الى اليمن، فجاءنا الامر بالتوجه فورا الى هناك، في ١١ حزيران. لكن نيويورك نسيت ان تعطينا طائرة تنقلنا، كما انها لم تكلف نفسها عناء الاجابة عن استفسارتي بهذا الشأن . فتذكرت ما جرى لي فيما مضى ، عندما عزمت على مغادرة بيروت الى الكونغو . وفي نهاية الامر ، اعطانا الجنرال أود بول طائرته الداكوتا ، فاقلتنا الى صنعاء ، حيث وجدت ان تغييرات كثيرة حدثت في الاسابيع القليلة التي كنت غائبا فيها ، منها ان تحسينات عديدة اجريت على قصر الضيافة ، وان باب الحمام جهز بقفل ومفتاح ، لكنه بقي الحمام الوحيد فيه . وبسرعة متناهية اقمنا جهازا لاسلكيا ضعيفا ، لاننا لم نستطع ان نحمل معنا من بيروت سوى الاجهزة الخفيفة . وقد تبين لنا ان الجهاز لا يلتقط المحطة في نيويورك ، فاضطررنا لاستعمال جهاز الامم المتحدة اللاسلكي في أديس أبابا ، ومنه كانت تنتقل رسائلنا الى نيويورك .

وبعد حين ، تلقينا رسالة من نيويورك ، عبر مكتب اديس ابابا ، تقول ان يوثنت ، بالرغم من وعده لي بان يستشيرني قبل تعيين اي موظف في البعثة ، فانه قد عين ثلاثة موظفين جدد في البعثة ، احدهم من هايتي كرئيس لقسم الادارة ، واخر ايراني كمستشار سياسي ، وثالث كولومبي

كمستشار مالي .

وفي الايام التالية انشأنا الاجهزة الضرورية للبعثة في مقرها الرئيسي في صنعاء ، كما انشأنا محطات اخرى في قرية سعدي التي كان يسيطر عليها المصريون ، ومحطتين اخريتين في كل من جيزان ونجران ضمن الحدود السعودية . وقبل ان يبدأ عملنا الفعلي ، كان علينا ان نقيم قاعـــدة امدادات في الحديدة ، حيث قدم لنا المصريون جميع التسهيلات . لكن طائراتنا لم تكن قد وصلت ، مع انها كانت ضرورية لنجاح مهمتنا . وما ان اصبح جهازنا اللاسلكي يعمل بصورة مرضية ، حتى وصلتنا طائرتا شحن وثلاث طائرات من نوع أوتر ، وثلاث طائرات هيليوكبتر . كانت جميع هذه الطائرات كندية يقودها كنديون . ولم نتمكن من ايجاد مساكن لهم ، فانزلناهم معنا في قصر الضيافة ، مع انه لم يكن يتسع لهذا العدد .

وفي هذا الجو من الفوضى ، ذهبت الى المطار لاستقبال موظفي البعثة الجدد . كان علي نكونام المستشار السياسي رجلا ممتازا مخلصا في عمله قادرا . اما مارك بيسكا ، رئيس قسم الادارة ، فكان يختلف تماما عن زميله ، اذ تحلى بطبيعة شاعرية حساسة . ولم يكن جو اليمن الخشن يناسب شخصيته ، خصوصا وقد كان لا يقلع عن التفكير بزوجته الحامل . فكنت كلما وجهت اليه انتقادا على تقصير اداري ، انفجر باكيا وتساقطت الدموع من عينيه بغزارة ، مما كان يحرجني كثيرا ، خصوصا وقد كانت تلك الدموع غير قادرة على حل المشاكل التي كنا نواجهها .

كنا ما نزال نعود انفسنا على العيش في المكان الجديد ، حين وصل الطبيب الذي طال انتظارنا له . كان الدكتور جيرار ليشنر ، شابا نمساويا جذابا ، جاء من الكونغو ليلتحق بنا . وقد قبل هذا المنصب لانه يقربه من خطيبته الموجودة في النمسا . وكان لم يرها منذ وقت طويل . وفي اليوم التالي لوصوله ، علق اعلانات في جميع الاماكن ، خصوصا فوق مواسير المياه ، تحذر من استعمال المياه لانها لم تكن صالحة للغســـل ، فكيف للشرب . وامر بان تغلى المياه قبل استعمالها . ولم يمض وقت طويل حتى وجدناه مكبا على سلة مملوءة بالبطاطا وبيده ابرة يحقن بها كل حبة بطاطا بمادة الكلورين المطهرة . وهكذا اصبحنا نستطعم الكلورين في كل شيء : في القهوة ، وفي الشاي ، وفي الفواكه ، وفي الخضار ، ما عدا الويسكي . حتى اوشك الموظفون ان يعلنوا العصيان . فكان لا بد لي من ان اقول للطبيب جيرار ان الحياة هنا صعبة بدون طعم الكلورين في كل ما كنا ناكله . وبالنظر الى انه كان رجلا عمليا بطبيعته ، فقد اوقف حقن البطاطا والفواكه بمادة الكلورين .

## الفصل السادس والعشرون

وصلنا صنعاء ، ونحن خمسة ضباط ومعنا سيارتان وطائرة . ومضت بضعة اسابيع على وجودنا في اليمن وقوتنا بقيت كما هي . وعبثا كنت اسأل عن موعد قدوم الطائرات الاخرى ، وعن الموظفين الاخرين ، وعن الفرق الاستطلاعية . وكلما طال انتظارنا ، ازداد اقتناعي بانه اذا لم تنم بعثتنا وتكبر بين ليلة وضحاها ، فان المصريين واليمنيين الملكيــين سيستأنفون اعمالهم الحربية ، واثقين ان بعثة الامم المتحدة لن تتمكن من ايقاف القتال .

كنت بحاجة ماسة الى طائرات النقل والفرق الاستطلاعية . اذ كان وجودهما يتيح لي انشاء محطات مراقبة في المنطقة المجردة من السلاح . ولما لم يكن لدي الرجال والمعدات للبدء بالعمل ، فقد وجدت نفسي في حالة شلل عام . والغريب في هذا كله هو أن نيويورك كانت ترسل لي برقية تلو الاخرى تحثني فيها على توفير « حضور » للامم المتحدة في اقرب فرصة ممكنة . ولم يكن لي الخيار في تفسير موقف نيويورك الا انه كان يعني رفع علم الامم المتحدة في المنطقة المجردة من السلاح ، باية طريقة كانت .

واذ كان لا يجوز ان اطلب من ضباط الذهاب الى تلك المنطقة وتعريض حياتهم للخطر من اجل اشباع فضول نيويورك ، فقد صممت على الذهاب انا بنفسي .

وهكذا وجدتني اقود سيارة الجيب في طريقي من صنعاء الى المطار . وقد تعمدت ان ارفع العلم على السيارة ليراه الجميع ، فاستجيب لرغبة نيويورك في تأمين « حضور » الامم المتحدة . كانت الطائرة تنتظر وصولي الى المطار ، وكان بابها مفتوحا فقدت سيارتي الى داخلها . وحين اقلعت بي الطائرة في رحلتنا الاستكشافية على حدود المنطقة المجردة من السلاح ، لم يكن معي سوى مساعدي لاري دافيد والطيار .

كنت قد وضعت خطة لرحلاتنا الاستكشافية اليومية هذه ، بانتظار امدادنا بالطائرات والرجال . فكانت الطائرة تقلع بنا صباح كل يوم من صنعاء متجهة نحو جيزان ثم نجران ثم سعدي ، ثم نعود الى صنعاء قبل الساعة الثالثة بعد الظهر ، وهو موعد هطول المطر . وفي بعض الاحيان كنت ادخل بعض التعديل على رحلتنا فتقلع الطائرة بنا من صنعــاء الى

سعدى ، بدلا من جيزان ، فنكمل دورتنا ثم نعود الى صنعاء .

وكنا نعلم السلطات مسبقا بموعد وصول طائرتنا . وفي كل مرة وصلنا مطار جيزان وجدنا لجنة استقبال في انتظارنا . وكان افرادها ينظـــرون مذهولين الى سيارة الجيب ، وهي تخرج من بطن الطائرة يرفرف عليها علم الامم المتحدة .

ثم لم نلبث ان نقود السيارة في رحلة استطلاعية الى الحدود التي تبعد نحـــو عشرة اميال . فلم نكـــن نـــرى رجـــالا او قوافـــل ، بـــل صحراء بدت كما كنا نراها في الجو . ولم يكن هناك ما يدل على ان القوافل السعودية كانت تعبر الحدود . ولو فرضنا ان السعوديين كانوا يمدون اليمنيين الملكيين بالاسلحة ، فمما لا شك ان ذلك كان يتم بواسطة القوافل التي تسير في الليل فلا نعرف بوجودها . وفيما عدا « عرض العلم » الذي كان يرفرف على السيارة في تلك الرحلة ، فقد كنا نضيع وقتنا .

وكانت لجنة الاستقبال في المطار تقدم لنا القهوة والشـــاي وعصير الفواكه . وكان يصعب علينا اقناعهم بان رحلتنا طويلة لا تسمح لنا بقبول دعوتهم الى تناول طعام الغداء . ومن جيزان كانت الطائرة تقلع بنا مرة اخرى فترتفع فوق الجبال . وسرعان ما كنا نمر فوق « حرض » فنشاهد القوات المصرية المجهزة تجهيزا حسنا . وهكذا حتى نصل نجران . وقبل ان تهبط بنا الطائرة كنا نرى مواقع المدافع السعودية ، كما كنا نرى آثار ضرب القنابل المصرية . فاقتنعت تماما انه اذا لم يكن لدى الامم المتحدة قوة كبيرة رادعة ، فلن نتمكن من فرض شروط الاتفاق على الجانبين بصدد المنطقة المجردة من السلاح .

كان العقيد السعودي عبد الحميد الحاج ينتظرنا على المطار . وفور نزولنا من الطائرة ، ركبنا سيارة الجيب وقمنا بالرحلة نفسها الى الحدود . وكان هدفي من ذلك اعطاء فرصة للسعوديين ليروا « حضور » الامم المتحدة من خلال العلم الذي يرفرف على السيارة . وكان العقيد الحاج يذكرني بأنتوني كوين في فيلم « لورانس العرب » ، فكان دائما يقول لي بزهو عندما نبلغ الحدود : « انظر ايها الجنرال ، لا ذهب . لا اسلحة . لا ذخائر اليوم . انشاء الله . »

اقلعت بنا الطائرة من مطار نجران ، ثم اخـــذت تحلق فوق قرية سعدي وهو مركز مواصلاتهم للمصريين . كانت محصنة تحصينا قويا ، مما دل على نية المصريين في البقاء فيها ، مهما تكن الظروف . وكانت الامدادات تصل سعدي بطريق الجو ، اذ ان الملكيين استطاعوا قطع الطريق الجنوبي التي تصلها بصنعاء .

استقبلنا على المطار في سعدي العقيد حلمي ، وهو لا يمت بصلة النسب الى اللواء حلمي ، فطلب مني ، فور وصولنا ، ان اصطحب معي الى صنعاء ضابطا مجروحا . فقبلت بكل سرور . وفيما كان العقيد حلمي يجهز امتعته ، تحدثت الى الضباط فوجدت ان معنوياتهم كانت عالية ، لكنهم شكوا من ان جميع الطرق محفوفة بالمخاطر .

وبعد ان حملنا الضابط الجريح الى الطائرة ، عدنا الى صنعاء ومعنا العقيد حلمي ، فوصلناها في الساعة الثالثة والخمس دقائق بعد الظهر ، اي بعد مرور خمس دقائق على موعد هطول المطر ، فمنعتنا الغيوم المتلبدة من رؤية المطار الا بصعوبة .

هكذا كنت اقوم بتلك الرحلة يوما بعد يوم ، دون ان تكلف نيويورك نفسها عناء الاجابة على البرقيات التي كنت ارسلها يوميا واصر فيها على ارسال الرجال والمعدات لتصبح بعثتنا قادرة على العمل .

في التقرير الاصلي الذي ارسلته الى نيويورك ذكرت انه يلزمنا اسبوع لتأسيس البعثة واسبوع اخر ليصبح عمل البعثة قائما على قدم وساق ، شرط ان تبرهن نيويورك عن ادارتها الحازمة ، فتمدني فورا بما احتاج اليه من الرجال والمعدات .

لكن نيويورك لم تعر هذا اي اهتمام ، مما جعلني ، مع بعض زملائي الضباط القلائل في صنعاء نعاني صعوبات لا لزوم لها . اضف الى ذلك ان الامم المتحدة خسرت جانبا كبيرا من سمعتها عند الفريقين .

وهنالك مشكلة اخرى طالما ازعجتني واقلقتني . وهي ان التعليمات التي صدرت الي منعتني من ان اقوم باي اتصال مع السلطات الملكية . كنت افهم الدوافع السياسية التي املت على الامم المتحدة اتخاذ هذا الموقف من اليمنيين الملكيين ، لكنها لم تكن مطابقة لواقع الحال . فقد كان الامام يسيطر على القسم الاكبر في جنوبي المنطقة المجردة من السلاح ، حيث كان علينا ان نقوم بمهمتنا . ولا شك في ان الزيديين هناك ، الذين دانوا بالولاء له ، كانوا سيقفون مع رجالنا الذين يدخلون اراضيها موقف العداء ، اذا لم يسمح الامام نفسه بهذا الدخول . وفضلا عن ذلك ، فقد كانت القوات الملكية شديدة البأس ، لا يستهان بها . حتى ان القوات المصرية وطائراتها لم تستطع اخضاعها .

وهكذا كان « الفيتو » الذي وضعته الامم المتحدة على القوات الملكية عملا غبيا . اذ كان لا بد لنا ، عاجلا ام آجلا ، من القيام باتصال مع الملكيين ، لان دورياتنا كانت ملزمة بالعمل ضمن الاراضي التي يسيطرون عليها .

وبعد حين ، وصلت رسالـــة بطريقة غامضة من اليمنيين الملكيين الى مكتب الارتباط التابع لبعثتنا في جـــدة . وكانت موجهة الي ، وهـــذا ما جاء فيهـــا :

« الرئيس الموقر ،

« وصلتم اليوم مع اعضاء بعثتكم للوقوف على فظاظة القوات المصرية في بلدنا من جهة ، وللوقوف ، من جهة اخرى ، على فظاظة الدعايـــة الكاذبة التي يقوم بها المصريون ضدنا . وهي ان في اليمن قوات بريطانية واردنية واسرائيلية وسعودية تقاتل جنبا الى جنب مع قواتنا .
« والان بعد ان وصلتم ، فلا شك انكم رأيتم من الذي يقاتل في بلدنا . كان الاتفاق يقضي ، ان تكف القوات المصرية عن القتال ، وتقف على الحياد ، بعد ان تصل القوات الدولية الى اليمـــن . لكن المصريين لا يحترمـــون وجود القوات الدولية . وفي حوزتنا حقائق تدل على ان المصريين يتابعون تقتيل اليمنيين في بلدهم . اننا نطلب اليكم ان ترسلوا بعثة من قواتكم القريبة من الحدود الى منطقـــة زغرف لترى من الذي يقاتل اليمنيين في بلادهم . هل هم البريطانيون ام الاردنيون ، ام المصريون فقط ؟ ونطلب اليكـــم ان تتفضلوا بارسال هذه البعثـــة لترى ان الحرب هي بين ابناء اليمن انفسهم وبـــين الطائرات المصرية والمصريين في اليمن . »

كانت الرسالة موقعـــة من الامير احمد بن آل حسين . وهي دليـــل على ان اليمنيين الملكيين كانوا يرغبون في الاتصال بنا . ولـــولا الاوامـــر الصريحة بعدم الاتصال بهم ، لسارعت الى اتخاذ هذه الخطوة المنطقية . ولم يكن حجب الحقيقة في صالح احد . وهذه الحقيقة هي ان قوات الامام كانت تسيطر على القسم الاكبر من اليمن ، بما في ذلك جوار العاصمة .

وفي ١٦ حزيران دعاني اللواء قاضي لحضور حفلـــة اقيمت في نادي الضباط . وفي هذه الحفلـــة تحدثت الى اللواء عباس ، فقال لي ان القتال الدموي بين القوات المصرية والقبائل اليمنية يقـــع كل يوم على طـــريق صنعاء ـــ الحديدة . وعلمت منه ومن اللـــواء قاضي بأن هنالك فريقـــين يتصارعان في اليمن ، وبأن كلا منهمـــا يمثل طائفة من المسلمين . فمـــن جهة ، كان هنالك الشافعيون القاطنون في الجنوب ، وعلى السواحل ، وفي العاصمتين صنعاء وتعز ، ومعظمهم مسلمون سنيون عانوا الظلـــم في عهد الامامـــة . لذلك فهم يساندون الجمهورية الجديدة . وكانت الامامة تظلمهم وتضطهدهم لان الامام زعيم للقبائـــل الزيدية القاطنـــة في الجبال الشمالية وفي شرقي اليمن ووسطهـــا . غير ان الخـــلاف بين الفريقين لم يكـــن على درجة كبيرة من الوضوح . ذلـــك ان الزيديين ، بالرغم من تأييدهم للامام ، قد احتلوا معظم مقاعد جمهورية اليمن الجديدة .

غير ان القلة من اليمنيين ، بصرف النظر عن طائفتهم ، لم يحبوا المصريين . حتى ان القبائل القريبة من صنعاء كانت تقاتلهم . ومن هذه القبائل ، قبيلة بني مطر التي انضمت الى السلال فيما بعد ، وقبيلتا بني حمدان وبني خيمة .

واغتنمت فرصة وجودي في تلك الحفلة ، فاخبرت اللواء قاضي باننا نريد ان ننشىء بعض محطات المراقبة في مرفأ الحديدة ، لمشاهدة جلاء الجيوش المصرية عن اليمن . ولما كنت قد رايت باخرتين مصريتين في مرفأ الحديدة منذ يومين ، فقد استنتجت انهما جاءتا لاعادة الجنود المصريين الى مصر . لذلك ، فقد طلبت الى اللواء قاضي ان يسمح لنا بالعمل فورا ، خصوصا وان ذلك كان سيجد تجاوبا حسنا عند الامير فيصل الذي كنت على موعد معه في اليوم التالي . لكن اللواء تجنب الاجابة على طلبي وقال لي ان جلاء المصريين عن اليمن رهن بايقاف المعونة السعودية للملكيين . واضاف قائلا ان لديه ما يحمله على الاعتقاد ان السعوديين استأنفوا ارسال معونتهم في الايام القليلة الماضية . واكد لي اللواء قاضي ، في الوقت نفسه ، انه على استعداد لتقديم كل مساعدة ممكنة لي ، وانه عين العقيد حلمي ضابط ارتباط معي .

وفي اليوم التالي ، سافرت الى جدة لمقابلة الامير فيصل . والامير فيصل الذي اصبح ملكا فيما بعد ، رجل فذ ، وحكيم ، ووقور . ومنذ ان قابلته في قصره الخاص ، شعرت بأنني امام رجل يقدس الشرف وانه ، بخلاف المألوف في الحكام العرب ، يهتم بصالح شعبه ، وانه شخص يفيض جاذبية ويجمع في شخصيته بين القوة واللين .

انتظرت الامير فيصل حتى يبدأ هو بالكلام ، حسب مقتضيات البروتوكول . وبعد ان انهى كلامه ، قلت لسمو الامير بواسطة الترجمان ، ان بعثتي ، عندما تكتمل ، ستراقب الحدود الشمالية للمنطقة المجردة من السلاح ، وانها ستحاول ان تقوم بعملها على اكمل وجه . وقلت ان نجاح بعثتنا يعتمد ، في المقام الاول ، على نية السعوديين الحسنة . ثم قلت انني اعلم ان الوضع معقد ، وان المصريين استأنفوا القاء قنابلهم على الاراضي السعودية . لكنني آمل بأن المملكة السعودية ، بالرغم من نقض المصريين لاتفاقية المنطقة المجردة من السلاح ، لن ترد على ذلك بزيادة مساعداتها للقوات الملكية . وقلت ان تأخير انشاء بعثة الامم المتحدة قد ادى ، ولا شك ، الى تدهور الوضع . لكن سمو الامير لا بد يعلم ان من طبيعة الحكومات والمؤسسات الدولية ان تتحرك ببطء .

وحين جاء وقت الاستئذان بالانصراف ، التفت الي سمو الامير وقال

لي ، بلغة أنكليزية رفيعة ، ان بوسعي الاعتماد على تعاونه معنا ، وانــه يتوقع من الامم المتحدة ان تحصل على تعاون مماثل من المصريين .

عدت الى صنعاء وانا على اقتناع تام بأن « حضور » الامم المتحدة لن يكفي ، بل ان هذا الحضور لن يكون الا كنقطة مــاء في المحيط ، وانه ، لذلــك ، سيسيء الى الاوضاع القائمة ، بـــدلا من ان يجمدها . وتزاحمت الافكار السوداء في راسي تلــك الليلة ، فكــاد لا يغمض لي جفن . وفــي صباح اليوم التالــي قمت برحلة « عرضت فيها العلم » ، اذ كان هــذا كل ما كنت قادرا على القيام به . وعند عودتي الى قصر الضيافــة وجــدت ان بيسكا ، رئيس قسم الادارة ، قد امر الكنديين باخـــلاء قصر الضيافة . فطلبت احضاره الي فورا . فأنكــر ذلك تماما ، وقال ان كــل ما فعلــه هو انه « طلب منهم » اخلاء القصر . ولما سألته عن السبب ، اجــاب بأن السلطات اليمنية تريــده لاستضافــة الرسميين المصريين الذين يزورون اليمن . فثار غضبي وعزمت علــى ان لا أسمح لسواح مصريين بالتنعم على حساب الكنديين العاملين معنا في ظروف شاقــة مرهقة كالظــروف التي كنا فيها . وهكــذا بقي الكنديون في القصر .

وفي صباح اليوم التالي وصلت المطار ، فاراني قائد الطــائرة اثار الرصاص فيها . فادركت سبب الارتجاج الذي شعرت به عندما كنا نطير ، بعد ظهر أمس ، في طريق عودتنا الى صنعاء .

ولم يكد تقريري عن هذه الحادثة يصل نيويورك حتى جاءتني برقية تعرب عن قلق الحكومة الكندية لاصابة الطائرة التي تفضلت باعارتها لنا ، وتحذرني من تعريض حياة افراد البعثة او اجهزتها للخطر مهما تكن الحال .

كان هذا أكثر مما استطعت ان أتحمله . فأجبت نيويورك بصراحة انه كان على الامم المتحدة ان لا ترسلنا الى اليمن اذا كانــت تعتقد ان طائراتنا ورجالنا لن يتعرضوا للضرب بالرصاص . وما دام هذا قد حصل ، فلماذا تصر الامم المتحدة على ان لا تزودنا بالرجال والاجهزة التي نحتاج اليها ؟ فالحياة في اليمن ليست نزهة في شوارع نيويورك . واذا كانت الامم المتحدة لا تفهم هذا بوضوح ، فخير لها ان تلغي البعثة بكاملها .

كانت اسباب غضبي الشديد هذا وجيهة جدا ، شاركني فيه حتى اعضاء البعثة المدنيين الذين يعطفون على الادارة في نيويورك .

وهكذا كتب لنا ان نعيش في جو من الخيبة تزيد حرارة الطقس من صعوبة تحملها . وكان العالم الذي نعيش فيه صغيرا ، محصورا بما احاط حولنا مباشرة . ولم يكن لدينا صورة واضحة عن القتال المستمر فــي اليمن ، الا تلك الصورة التي اعطتنا اياها الاستخبارات المصرية . كذلك

لم نكن نعلم شيئا عن ميزان القوى ، على الصعيد الدولي . بل كنا نعيش في عالم مغلق تسيطر عليه كلمة واحدة : « الامدادات » .

لكنه كان هنالك جوانب اخرى ممتعة لحياة الخيبة التي كنا نعيشها بانتظار اكتمال البعثة السائر بسرعة السلحفاة . ومثال على الجانب المرح من حياتنا ، اسرد هذه القصة كما رواها لنا المقيد حلمي :

قيل انه كانت تقطن بالقرب من سعدي قبيلة حمل شيخها المصريين على الاعتقاد انه يريد العيش معهم في امان . فوجه دعوة الى قائد القوات المصرية هناك ليشرب معه القهوة . وساد هذا اللقاء جو ودي ، الى ان شرب القائد الضيف قدح القهوة الثالث . فقام الشيخ واعوانه ، عندئذ ، وذبحوا العقيد من الوريد الى الوريد . وانتقاما لقائدهم شن المصريون هجوما من البر والجو على تلك القبيلة ، فيما كان الشيخ واعوانه مختبئين في مغارة يشاهدون منها ، بلذة فائقة ، تدمير قريتهم .

ألقى المصريون أطنانا من القنابل على القريـــة . ولم يكـــد ينهـــار اخر حائط فيها ، حتى اعلن احدهم للقائد المصري ان شيخا عجوزا يود مقابلته . ولما حضر العجوز امام القائد الجديد للقوات المصرية عرف القائد فيه الشيخ المسؤول عن مقتل زميله . لكن قبل ان يتحرك القائد من مقعده ، اخذ الشيخ يشكره بحرارة . وذهل القائد واستفسر منه عما فعله حتى يستحق فيه هذا الشكر ، فأجاب الشيخ العجوز : « سيدي . افقدني ضرب قنابلكم المستمر للقرية زوجتي العجوز الشمطاء التي لم يكن من السهل علي التخلص منها . وهكذا حللتم لي هذه المشكلة . وقد اتخذت لي الان زوجة صبية جميلة ، وانوي اتخاذ زوجتين اخريتين لادخال البهجة الى قلبي في السنوات القليلة الباقية لي من العمر . لذلك فانا مدين لكم بهذا الى الابد . اما ما تبقى من قريتي ، فلكم ان تأخذوه . »

# الفصل السابع والعشرون

ما زلت اذكر صباح ذلك اليوم من شهر حزيران عندما دخل لاري دافيد الى مكتبي وقال : « واخيرا يا عزيزي الجنرال ، جاءنا فريق الاستكشاف الذي كنا ننتظره . »

« هل هو فريق كندي ؟ » قلت هذا وانا اتصور نوع المراقبة التي نقوم بها من الجو والبر .

فقال : « لم يسعدنا الحظ بهذا المقدار . انه فريق يوغسلافي . ولا اعرف شيئا عن مدى تدريبه وفعاليته في العمل . انما قيل لي ان اليوغسلافيين جنود ممتازون . »

لم اكن اشك في ذلك اطلاقا . كان همي الاول ايصالهم الى اليمن باسرع وقت ممكن ، بصرف النظر عن مستوى تدريبهم ومستوى الاجهزة الموجودة لديهم . المهم هو اننا كنا نحتاج اليهم هنا باسرع ما يمكن . وها هم قد عينوا للالتحاق بنا .

لكن يوغوسلافيا كانت بعيدة عن اليمن . واذا كنت تعلمت شيئا من عملي مع الامم المتحدة فهو طريقة العمل التي كان ينتهجها قسم الادارة في نيويورك . لذلك ايقنت بانهم لا بد من انهم ارسلوا الفرقة اليوغسلافية الى اليمن بطريق البحر وباطول مدة ممكنة . وفي الحال طلبت من لاري دافيد ان يبرق الى نيويورك طالبا ارسال الفرقة بطريق الجو .

ليتني وفرت نفقات ارسال تلك البرقية ، اذ سرعان ما اعلمتنا نيويورك بان ارسال الفريق بطريق الجو امر مستحيل ، وان الفريق سينتقل بطريق البحر الى مرفأ الحديدة . فابرقت الى نيويورك فورا بانه اذا كان لا بد من سفر الفريق اليوغسلافي بطريق البحر ، فمن الافضل ان يصل الى مرفأ جدة بدلا من الحديدة ، لسهولة توزيع بعضهم من هناك على منطقتي نجران وجيزان في المملكة السعودية . اما الباقي فينتقل بالطائرة من جدة الى منطقة سعدى الواقعة في جنوب المنطقة المجردة من السلاح . والاسباب وجيهة جدا ، انه كان يتعذر نقل الفريق اليوغسلافي من مرفأ الحديدة الى مراكز المراقبة في المنطقة المجردة من السلاح ، لان

طريق البر كانت محفوفة بالمخاطر فضلا عن ان الملكيين كانوا يسيطرون على القسم الاكبر منها . اما نقل الفريق بطريق الجـو فلم يكن ممكنا ايضا ، لحاجتنا الى طائرات . وعبثا حـاولت ان افهم نيويورك هذا الواقع ، وانه اذا وصل الفريق الى الحديـدة فسيبقى مسمرا فيهـا .

وفي ٢٧ حزيران ، وصل صنعاء بالطائرة ثمانية اشخـاص ، هم طليعة الفريق اليوغسلافي . فأخبرني قائدهم الكولونيل بفلوفيتش بـأن الفرقة مؤلفة من مئة واربعة عشر رجلا ستصل الى مرفأ الحديدة في ٤ تموز ، وان الفرقة مجهزة بسيارات الجيب والشحن الخفيفة المعدة للعمل في المناطق الصعبة ، وانه ليس لدي الفرقة وحدة من سلاح الطيران لتقوم بالمراقبة من الجو ، وانه ليس مع الفريق اي مترجمين .

لم تكن هذه المشاكل مهمة بالنسبة الى المشكلة الكبرى ، وهي كيفية نقل الجنود من الحديدة الى مراكز المراقبة في المنطقة المجردة من السلاح . واذ لم أكن على استعداد للاهتمام بايجاد حل لهـذه المشكلة ، فقد قررت ان اطلب الاجازة المستحقة لي ، فاذهب الى السويد . ووافق يوثنت على طلبي الاجازة ، فغادرت صنعاء في ٣ تموز بعد ان وضعت تقريرا مفصلا شرحت فيه اوضاع البعثة . ثم سافرت الى السويد ، وانا موقن بان نيويورك ستعود الى رشدها يوما ما ، لتعترف بالواقع الذي شرحته لها ، بطريقة لم يكن فيها لبس ولا ابهام . وعندئذ تضطر الى نقل اليوغوسلافيين من الحديدة بطريقة ما .

وبعد ثلاثة اسابيع عدت الى صنعاء ، فوجدت ان كل شيء جرى حسبما توقعت . فقد وصلت الفرقة اليوغوسلافية الى الحديدة في ٤ تموز ، وكان مقدرا لها ان تبقى هناك الى الابد اذا لم تقم نيويورك بعملية انقاذ سريعة . وامل المسؤولون في نيويورك بان المشكلة ستحل نفسها ، لو لم يكتشفوا ان الباخرة التي اقلت الجنود اليوغوسلافيين الى مرفأ الحديدة تكلفهم الف دولار عن كل يوم تتأخر فيه عن الابحار من المرفأ . عند ذاك استفاق الموظفون في نيويورك فارسلوا طائرات شحن اميركية لتنقل الجنود من الحديدة الى مراكز المراقبة في جيزان ونجران وسعدى .

غير ان حالة المواصلات بقيت على ما كانت عليه ، ممـا جعلنا عاجزين عن امداد فرقنا بالمؤن والبترول وقطع الغيار بالقدر الكافي . وكانت قد وصلتنا بعض طائرات الشحن ، لكنها لم تكن كافية اطلاقا .

بدأ اليوغوسلافيون اعمال المراقبة . فاتضح انهم لم يستطيعوا التوصل الى نتائج افضل من تلك التي توصلت انا اليها بوساطة سيارة الجيب . ذلك لاننا تباطأنـا كثيرا بأنشاء مراكز المراقبة ، ممـا حمل

السعوديين على فقدان ثقتهم بقدرتنا على اقناع المصريين بالتقيد بشروط اتفاق المنطقة المجردة من السلاح . لذلك ، عادت القوافل السعودية الى نقل المعونة الى الملكيين . واستأنف الجانبان القتال ، دون ان تستطيع حكومة الجمهورية ، بالرغم من مساندة الطائرات المصرية ، ان تضم شبرا واحدا الى سيطرتها .

تقيد السعوديون بشروط الاتفاقية في بادىء الامر . اما الان ، فقد اتضح انهم لن يتعاونوا معنا لاقتناعهم ، في الاشهر الاخيرة ، بأن المصريين لن يتقيدوا بتلك الشروط ، وبان الامم المتحدة لن تبالي بشكاوى اليمنيين الملكيين من المذابح التي كان يقوم بها المصريون .

لم يكن من السهل علي ان لا اعطف على الملكيين . اذ كان حكم الامام يستند الى الولاء القبلي والتقاليد التي سبقت الاسلام ، اي مملكتي سبأ وحمير . وكان من الواضح ان السلام الدائم في تلك المنطقة يستحيل بدون مهادنة هذه القيم العميقة الجذور في التاريخ . اضف الى هذا ، ان الملكيين كانوا يسيطرون على الجزء الاكبر من اليمن ، وكانت سيطرتهم هذه تتوسع يوما بعد يوم ، بالرغم من سقوط القنابل المستمر على قراهم ومعاقلهم .

هكذا داخلني القلق لموقف نيويورك من الملكيين . وطلبت من نيويورك مرارا ان تسمح لي بالاتصال بالملكيين ، لكن دون جدوى . فكان علي ان ابقى معتمدا على المعلومات التي كان المصريون والجمهوريون يضعونها تحت تصرفنا .

ونشأت بعض الامور التي تطلبت مني اهتماما عاجلا . وهي اولا ، مقابلة الامير فيصل لاقناعه بوقف شحن الاسلحة الى الملكيين . واذ كان التجار هم الذين قاموا بارسال الاسلحة ، لا الحكومة السعودية مباشرة ، فقد علقت املا كبيرا على نجاحي في هذا المسعى . وثانيا ، زيارة مراكز المراقبة لارى ما احرزه اليوغسلافيون من تقدم في تنفيذ مهمتهم . وثالثا ، مواصلة السعي لدى نيويورك للسماح لي بالاتصال باليمنيين الملكيين . ورابعا ، استئناف المعركة مع نيويورك لاقناعها بارسال ما كنا نحتاج اليه من طائرات واجهزة مواصلات وما الى ذلك .

ومن سوء الطالع ان الامير فيصل لم يمنحني موعدا لمقابلته الا بعد مرور شهر علي طلبي . وفي هذه الاثناء قررت ان اقوم بجولة تفتيشية على الجنود اليوغوسلافيين في مراكز المراقبة . وكنت قد سمعت بان اليوغوسلافيين جنود ممتازون يقومون بمهمتهم خير قيام ، لكنهم يرفضون ان يدخلوا المناطق الخطرة .

وقد تأكدت من ذلك فور وصولي مراكز المراقبة . كان الجنود اليوغوسلافيون على مستوى عال من التدريب والكفاءة . وكانوا يستعملون اسلحتهم استعمال الواثق من نفسه والمعتد بها . لكنهم كانوا في الوقت نفسه ، يترددون في الذهاب الى المناطق غير الامنة ، متذرعين بامكان وجود الالغام فيها . فحيرني موقفهم هذا ، لانه لا ينطبق على امثالهم من الجنود الممتازين . الا انني سرعان ما اكتشفت ان للسفارة اليوغوسلافية في اليمن جهازا لاسلكيا تتلقى فيه الاوامر من بلغراد . وكانت هذه الاوامر تقضي بان لا يدخل الجنود الاراضي الواقعة تحت سيطرة الملكيين .

وحين عدت الى صنعاء وجدت تغييرا بارزا قد حصل في موقف الامم المتحدة من الملكيين . وسبب هذا التغيير هو اتهام الملكيين مصر بأنها تضرب مناطقهم بالغازات السامة . ففعلت هذه الشكاوى فعل السحر في نيويورك ، لان الحكومة السعودية ، على ما اعتقد ، اسندت الى مؤسسة عالمية للعلاقات العامة امر تجنيد الراي العام ضد هذا الامر . وهكذا شرعت الامم المتحدة باعطائي تعليمات سريعة وحازمة للتحري عن حقيقة استعمال المصريين الغازات السامة في اليمن . ثم اخذت توبخني لفشلي في وضع حد لتهريب الاسلحة الى الملكيين عبر الحدود . وعلمت ان ما دفع الامم المتحدة الى ذلك ، كانت الشكوى التي تقدم بها الامير فيصل الى الامم المتحدة ضد المراقبين اليوغوسلافيين ، تتهمهم بعدم الكفاءة وبارسال تقارير عن وجود قوافل تهرب الاسلحة عبر الحدود دون ان يكلفوا أنفسهم عناء التأكد من ذلك ، هذا اذا لم يختلقوه .

وفي أواخر شهر تموز ، اجريت مقابلتين ادخلتا بصيص أمل الى قلبي . الاولى مع اللواء قاضي ، حاولت ان اقنعه فيها بأن من مصلحة المصريين ان يسحبوا جنودهم من المنطقة المجردة من السلاح ، وان يجلوا عددا ولو قليلا من جنودهم عن اليمن . فأكد لي اللواء قاضي أن في نية المصريين سحب جنودهم من المنطقة المجردة من السلاح ، كما ان في نيتهم اجلاء جنودهم من اليمن ، بمعدل الف جندي كل عشرة ايام . ثم اضاف قائلا ان ليس لديه اي اعتراض على دخول المراقبين الاراضي الواقعة تحت سيطرة الملكيين ، للتحقيق في الاتهامات الموجهة ضدهم .

وحملت خبر موقف اللواء قاضي معي الى جدة ، حيث قابلت السيد السقاف ، نائب وزير الخارجية ، والامير سلطان ، شقيق الامير فيصل ووزير الدفاع . فخرجت من حديثي معهما ان في السعودية فريقان : فريق يتزعمه الامير سلطان مع بعض الامراء ، وهو يقول بمساعدة الملكيين على ربح الحرب ، بصرف النظر عن اي اعتبار ، وفريق آخر ينادي

بالتفاهم مع مصر ، لان هذا التفاهم سيتم ، آجلا او عاجلا ، لصالح الوحدة العربية . وشعرت ان السيد السقاف كان ينتمي الى الفريق الثاني ، وان الامير فيصل لم يتخذ موقفا معينا ، وان كان يميل ضمنا الى الوقوف مع الفريق الثاني . ولو اقتنع المصريون بالتقيد بشروط اتفاقية المنطقة المجردة من السلاح ، لوقف الامير فيصل حتما الى جانب السقاف ، فتميل كفة الفريق الثاني . اما اذا لم يقتنع المصريون بذلك ، فسيكسب الامير سلطان وفريقه المعركة ، فتزداد العداوة بين السعودية ومصر وتعود الوحدة العربية عشرات السنين الى الوراء . وقد اعانتني الاخبار التي حملتها معي من اللواء قاضي كثيرا في مباحثاتي . وسرعان ما تأكد لي ان السعودية ما زالت تمتنع رسميا عن مد الملكيين بالمساعدات الحربية .

وبعد بضعة ايام في جدة ، اتيت الطائف لمقابلة الامير فيصل . وقد ساد مقابلتنا هذه المرة جو من التحفظ والفتور . بدأت بالحديث ، فقلت ان فترة الشهرين ، وهي الفترة المبدئية لمهمة بعثتنا ، قد قربت من نهايتها ، واني اريد من الحكومة السعودية ان تتبع سياسة تنسجم مع شروط الاتفاقية ، بصرف النظر عن السياسة التي ستتبعها مصر . فأجابني الامير فيصل بأن ظنه خاب ، لان المصريين لم ينفذوا شروط الاتفاقية . وقد منعه ادبه ولطفه من ان يقول لي ان ظنه خاب بفعالية بعثة الامم المتحدة ايضا .

ثم قال لي الامير فيصل ان المراقبين اليوغوسلافيين يرسلون تقارير عن قوافل تنقل الاسلحة الى الملكيين دون ان يقتربوا من تلك القوافل لتفتيشها . ولو انهم فعلوا ، لوجدوا ان تلك القوافل لا تحمل سوى الاغذية . واخيرا سألني الامير الى متى ستتجاهل الامم المتحدة وجود الملكيين ، مع انهم يسيطرون على نصف إراضي اليمن تقريبا . فشرحت له واقع الامر على قدر طاقتي . وقبل ان استأذن بالانصراف ، قال لي ان له ملء الثقة في شخصي ، وان رسالته الى الامين العام للامم المتحدة التي أعرب فيها عن فقدان ثقة حكومته بهيئتنا انما كان سببها سوء التفاهم .

وفي الايام الاولى بعد عودتي الى صنعاء ، كنت اركب صباح كل يوم حصان الامام السابق ، واقوم بنزهة حول المدينة . وعند مروري قرب بوابة المدينة الكبيرة كنت أعد رؤوس الرجال المقطوعة المعلقة حول البوابة . فاذا لم يزد عدد الرؤوس عما كان في اليوم السابق ، اطمأنيت الى إن الحالة السياسية في البلد هادئة الى حد ما . اما اذا زاد عدد الرؤوس ، فمعنى ذلك ان الحالة السياسية ليست على ما يرام .

وكان الصبية يأخـذون من رؤوس اولئك المساكـين ملهاة لهم ، فكانـوا يتسلقون الحائط ليضعوا في فم الضحية او في اذنيه اعقاب السجاير . وقد الف موظفونا مشاهـدة هذا المنظر ، حتى انهم اخـذوا يصورونه ، مما دب الذعر في افراد الحكومة ، فعمدوا الى قطع الرؤوس وتعليقها في اماكن مسورة بعيدة عن اعين الفضوليين . واذا كنت اذكر ذلك ، فليس الا لأبين ان اليمن كانت تعيش في القـرون الوسطى .

وفي أوائل آب ، وصل تلقي الى اوجه لانعدام وسائل النقل الجوي. فطلبت الى صديقي الجنرال جياني ، قائد قوات الطوارىء الدوليـة في غزة ، ان يرسل لي احد ضباطه الطيارين لمساعدتي على دراسة الوضع ، ففعل . وقدم لي الضابط الكندي هلادي الذي اوفده تقريراً عن الوضع وعن عدد الطائرات التي كنا بحاجة اليها . لم يكـن لدينا سوى طائرتي شحـن كانتا في اكثر الاوقـات على الارض للتصليح . حتى انه كـان لزامـا علي ان ارسل الى اسمرة في اريتريا من يشتري لنا ما كنا نفتقر اليه من طعام وزيت وقطع الغيار . وكانت سوق أسمرة غنية في كـل شيء ، مما رفع معنويات افـراد البعثة . لكن الذي بقي يزعجنا جميعـا هو اننا لو لم نأخـذ زمام المبادرة في شراء طعامنا مـن اسمرة ، لتركتنا نيويورك نموت جوعا في اليمن .

ان قصة البعثة الدولية في اليمن هي قصة الخداع المدروس الـذي سبب الخيبة لنا جميعا . لم يكـن هذا الخداع يستهدفني انا القائد الاعلى لقوات البعثة ، بل كان ايضا يستهدف الراي العام والسعوديين والمصريين علـى السواء .

على ان المبادرة التي اتخذتها بشراء مؤونتنا من أسمرة قد ازعجت قسم الادارة في الطابق الواحد والعشرين . ذلك لانها فضحت الحالة السيئة والفوضى التي كانت تتخبط فيهـا . لكنني لم أدرك آنـذاك ، المدى الذي سيذهب إليه موظفو الطابق الواحد والعشرين لتغطية عجزهم علـى حساب سمعتي . فقد علمت بعد استقالتي من خدمـة الامم المتحدة ان ناطقا باسم الامم المتحدة ادعى بأن رحـلات شراء المؤن الى اسمرة لـم تكن بقصد شراء المؤن ، بل بقصد الترفيه عن نفسي . هـذا مع العلم انني لم اقم حتى برحلة واحدة الى اسمرة .

# الفصل الثامن والعشرون

في منتصف آب بدأت افكر جديا بالاستقالة من خدمة الامم المتحدة . ولم يكـن من السهل ان اتخـذ قرارا انهي بـه حياتي الجندية . لكـن لم يعد لي خيار في أن اتخذ هـذا القرار اذا أردت الاحتفاظ بثقة افراد البعثة واحترامهم لي . كـان يجب أن يكـون هناك ضحية تفرض واقعا جديـدا يحيي البعثة ، فاخترت ان أكون انا هذه الضحية .

ومرت في خاطري اسئلة عديدة في تلك الفترة . اسئلة كانت كلهـا تتعلق بالاوضاع المخيبة للامل ، التي كنا نواجهها دائما . ما هو الـدور الذي لعبته اميركا في كل هـذا ؟ هل ارادت ان تقوي الجمهورية الجديدة لاحراج الانكليز واتحاد الجنوب العربي ؟ هل مارست ضغطـا للوصول الى اتفاقية المنطقـة الحرام للحصول على امتيازات نفطية في تلـك البقعة من العالم ؟ أم هل ارادت من وراء عملها ان تظهـر نفسها بمظهر المؤيد للكتلة الآسيوية الافريقية ؟ قد يكـون هذا هو الدافع لسياسة الولايات المتحـدة . لكنني مقتنع شخصيا بأن وراء مساندة اميركا للمطالب الوطنية في الشرق الاوسط رغبتهـا في قطـع رقبة النفوذ الانكليزي في الخليج الفارسي .

ليس هناك من شك في أن سياسة الولايات المتحدة كانت في عجلـة من امرها لترى جمهورية يمنية قوية مبنية على اساس متين والا فما فمعنى اعترافها المفاجيء بانقلاب لم يتمكن القائمون به بعد من السيطرة على نصف اراضي بلدهم ؟ وما معني نظرة اميركـا الى الجمهوريين على انهـم يمثلون قوى التقدم والتحرر ، فيما يمثل الامام في نظرها قـوى الرجعية والظلم ؟ اقول هذا ، لانني كنت أعلم تماما ان الواقع لم يكن ينطبق على هذه النظرة !

وبدا لي انه كان للاميركيين مصلحة في ان يروا الامام ينهار ويتلاشى. وبعد استقالتي تعززت عندي جميع هذه المخاوف ، عندما قال لي صديق اميركي يعلم الكثير عن هذه الامور : « ارجو ان لا تكون قاسيا في حكمك علينا عندما تكتب مذكراتك . »

لم اشك في ان وزارة الخارجية الاميركية ساندت عبد الناصر لاسباب لم تراع الدقة في تقديرها . وقد وصف نائب وزير الخـارجية الاميركية ،

فيليب تالبوت ، عملي بقوله : « ان اختيار الجنرال فون هورن لرئاسة البعثة الدولية في اليمن لم يكن اختيارا موفقا . » لا اعلم كيف افسر هذا القول. لكني عرفت فيما بعد ان ما حمل تالبوت على هذا القول هو اصراري على سحب القوات المصرية من اليمن ، وعلى ضرورة الاتصال بالملكيين اليمنيين .

علمت هذا كله عندما تيسر لي فيما بعد ان اقرأ جواب فيليب تالبوت لسؤال كان قد وجهه للحكومة الاميركية السناتور الجمهوري يورك هيكتلوبر. قال تالبوت ان حكومة الولايات المتحدة لم تصر اطلاقا على سحب القوات المصرية من اليمن حتى بعد ان يكون السعوديون قد تقيدوا بشروط الهدنة. كل ما في الامر ان حكومة الولايات المتحدة « توقعت » ان تسحب مصر قواتها من اليمن في حال تقيد السعودية بشروط الاتفاق المذكور . وقال فيليب تالبوت ايضا ان مقاومة الامام ، في رأي السلطات الرسمية الاميركية، او اعادة الامام الى الحكم ، او الرجوع الى عهد الامامة ، سيلاقي معارضة قوية من الشعب اليمني .

هذه هي السياسة التي اصرت الولايات المتحدة على اتباعها . لماذا ؟ هل هو لتعزيز مصالحها في الشرق الاوسط ؟ ام هل هو لاعتقادها ان عبد الناصر هو أفضل ضمانة ضد الشيوعية ؟ ام هو لضرب مصالح النفط البريطانية في الجنوب العربي ، بالسماح لعبد الناصر باجتياح السعودية ، والوصول الى الخليج ؟

كانت لي مخاوفي . وكانت هذه المخاوف تثقلني بعبئها . وبلغت الازمة ذروتها . وتلقيت من نيويورك ان جميع الامدادات ستصلنا في المستقبل بطريق البحر . فجن جنون الموظفين في البعثة ، وانهمر على احتجاجهم من كل صوب . وعندما نقلت هذا الاحتجاج الى نيويورك ، لم تأبه به ، وتصرفت كأن الامر لم يكن يعنيها .

انتهى هلادي ، الضابط الكندي الذي استعرته من غزة ، من وضع تقريره في ١٤ آب وقد عزز تقريره هذا طلباتي جميعها . فارسلت التقرير الى نيويورك قائلا اذا لم ترسل لنا نيويورك طائرة شحن واحدة على الاقل في الايام المقبلة ، فخير لها ان تسحب فرق المراقبة لانعدام وسائل نقل الامدادات التي تحتاج اليها .

وجاءني رد نيويورك فورا ، بلهجة لا تخلو من الدكتاتورية . وفيه يقولون انهم يعملون ما بوسعهم ، وانهم ينصحونني بالتوقف عن التذمر والانصراف الى عملي . ولم اكن قادرا على قبول هذه النصيحة لانها كانت من البعد عن الواقع بحيث ادركت ان حياتنا في اليمن اصبحت بين ايدي اولاد

صغار في نيويورك يلعبون بها كما يشاؤون . وفي الحال بعثت برسالة الى الامين العام يوثنت شرحت له فيها فشل الادارة في نيويورك بحيث كـاد ان يخنق البعثة . وقلت له ان مستشاريه لم يعطوه صورة واضحة عن حالتنا في اليمن .

كان رد الفعل عنيفا . لا شك في ان يوثنت اطلع ريكهي على رسالتي. وان رسالتي طبعت ووزعت على جميع مكاتب الطابق الواحد والعشرين . ولا شك ايضا في ان موظفي الطابق تجمعوا كالنحل وصعدوا الى الطابق الثامن والثلاثين ليقدموا احتجاجهم الى يوثنت . ولا عجب ، فقد انطوت رسالتي على تهديد لسمعتهم وعملهم ، وهما لهم اغلى ، بما لا يقاس ، من حياة جماعة من الناس وبعثة بكاملها في اليمن .

لا أعلم من الذي اعد جواب يوثنت على رسالتي . لكنني لا اشك في ان الذي اعده ذهب بعد انتهائه الى بيته وتناول عشاء فاخرا ، احتفالا بهذه المناسبة فيما كنا نحن في اليمن نأكل السردين . كانت لهجة الجواب قاسية جدا . وفيه قيل لي ان الادارة لم تفشل في مهمتها اطلاقا وان الامين العام يظن انني اشاركه الاعتقاد ان ملاحظاتي العدائية في الرسالة ليس لهـا مبرر قط .

وبالطبع ، لم يكن ظن الامين العام في محله ! كنت اناضل من اجل حياة البعثة وكان لكل ملاحظة ابديتها ما يبررهـا . والان ، بعد كـل ما كنـا نعانيه من فشل الادارة ، رأيت في جواب الامين العـام التأنيبي الضربة القاضية .!

وهكذا دعوت الكولونيل بافلوفيتش الى مكتبي فورا ، وبادرته بالقول انني قررت ان استقيل ، وطلبت منه ان يتسلم قيادة البعثة موقتـا على الاقل . فذهل بافلوفيتش ورفض ان يتسلم القيادة حتى ولو مؤقتا ، ثم خرج من مكتبي راكضا . ولم اشك في انه ذهب ليخبر رؤساءه في بلغراد بالامر وينتظر تعليماتهم .

ارسلت فورا برقية الى يوثنت اعلمه بعدم موافقتي على قوله بان ملاحظاتي ليس لها ما يبررها . وما دام يعتقد ان طلبـاتي المتكررة غير ضرورية ، فقد فقدت ثقته . لذلك لا بد لي من تقديم استقالتي .

وقف جميع افراد البعثة الى جانبـي . وقرر لاري دافيد ان يطلب اعادته الى هيئة مراقبة الهدنة في فلسطين .

وقبل يوثنت استقالتي بعـد تردد ثم قال في برقيته : « اريد ان اؤكد لك كم انا آسف للحالة التي نشأت وكم انا اقدر ، بالرغم من الخلافات الحاضرة ، عملك في انشاء البعثة في اليمن . »

وقال ايضا :«اعتقد انك توافقني على اهمية العمل من اجل أن لا يترك خروجك من البعثة اثرا سيئا على سير عملها ، وذلك من اجل مصلحة البعثة في اليمن ، وضنا بسمعة الامم المتحدة . لذلك فاني اقترح ارسال الجنرال ريكهي الى القاهرة للاتفاق معه على تسليم قيادتك للبعثة وعلى اعـلان استقالتك . »

وقبل ان اغادر اليمن علمت بان استقالتي اثارت نشاطا كبيرا في الامم المتحدة في نيويورك . اذ اشتد الضغط وكثرت المساعي للحؤول دون استقالة الموظفين الاخرين في البعثة تضامنا معي . وقد ظهر الاثر فـي قبول الكولونيل بافلوفيتش بأن يتسلم قيادة البعثة بالوكالة . ولا شك في ان اسياده في بلغراد طلبوا منه ان يقبل اليوم بما كان قد رفضه امس . اما لاري دافيد فتلقى من السلطات الاميركية في واشنطن التماسا بالعودة عن طلب نقله من اليمن . وقد اجاب لاري دافيد على هذا الالتماس برسالة جاء فيها : « كنا في صراع دائم مع قسم الادارة في نيويورك ... وحاول موظفوه ان يملوا علينا كيفية ادارة شؤون البعثة ، مع العلم ان ما كانوا يملونه صادر عن جهل مطبق . وكان قسم الادارة يماطل في تلبية طلبات البعثة ، حتى انه لم يكن لدينا المؤن ولا المواصلات الكافية التي تحتاج اليها مراكز المراقبة . فوصلت معنويات افراد البعثة الـى ادنى مستوى ، ما عـدا اخلاصهم للجنرال ، هذا الاخلاص الذي كان يزداد يوما بعد يوم . والغريب ان تعليمات الامم المتحدة غالبا ما كانت تأتينا متضاربة . فمن جهة كان يطلب منا ان نضع حدا لوصول المساعدات السعودية الى الملكيين ، ومن جهة اخرى ، كـان يطلب منا أن لا نعرض افراد البعثة للخطر مهمـا كـانت الظروف . كنا نفتقر الى كل شيء . وحاولنا بكل اخلاص ان نرضى بما زودتنا به الامم المتحدة ونعيش عليه . لكننا لم نستطع لان ما زودتنا به كان ادنى من الادنى الذي نحتاج اليه . ولم يشأ الجنرال فون هورن ان يزيد ، باستقالته ، من اعباء الامين العام للامم المتحدة . لكن اخلاصه لافراد البعثة الدولية في اليمن ، واحترامه لمهنته ولنفسه ، اجبـراه على هذه الاستقالة . وقد يعيد الجنرال فون هورن النظر في استقالته ، اذا هو اعطي الشروط التالية :

١ ــ ان تلبي الامم المتحدة طلباته .

٢ ــ ان تطلق يده في ادارة البعثة كما يراه مناسبا .

٣ ــ ان يعطى تسع طائرات .

٤ ــ ان يعطى عددا كافيا من المستخدمين الذين يحتاج اليهم .

٥ ــ ان تتساوى تعويضات افراد البعثة في اليمن مع التعويضات

التي تدفع لافراد البعثات الاخرى ، كهيئة مراقبة الهدنة في فلسطين وقوة الطوارىء الدولية في غزة .

٦ ـــ ان يمنح افراد البعثة في اليمن اجازات يقضونها في مناطق على شيء من المدنية والتقدم .

لقد توصلنا الى حال وجدنا انفسنا فيها ملزمين بالنباح والتوســل للحصول على رغيف خبز . واذا استمرت الحال على ما هي عليه ، فان البعثة لن تتمكن من الاستمرار في عملها . »

لخص لاري في هذه الرسالة كل ما كان يجول في خاطري . وفي ٢٤ آب غادرت صنعاء . كانت ساعة الوداع صعبة جدا . فهي لم تكن ساعة وداع اشخاص وقفوا معي بل كانت ساعة وداع لمهنة لزمتني طيلة حياتي .

ونزلت كمادتي في اوتيل شيبرد في القاهرة ، حيث التقيت بريكهي . لم يكن لقاؤنا وديا كما توقعت . فاقترح علي ان اصدر بلاغا اعزو فيــه استقالتي الى اسباب صحية . لكنني رفضت ان اقول ما لم يكن منطبقا على الواقع . وعبثا ذهبت محاولاته المتكررة .

في هذه الاثنـــاء ، زارني صديقي اللـــواء حلمي ليقنعني بأن اسحب استقالتي واعود الى اليمن ، قائلا ان ما من ضابط في الامم المتحدة يتمتــع بالثقة التي اتمتع بها عند المصريين والسعوديـــين على السواء . وقال ان قادة الفريقين يعرفونني ويثقون بي ، وان تعيين قائد جديدة في هذه المرحلة من عمل البعثـــة يؤدي الى نتـــائج وخيمة . فأجبـــت اللواء حلمي بأني افخر بالثقـــة التي اولوني اياهـــا ، لكـــن نيويورك لا تشعـــر بمثلهـــا نحوي . غير ان اللواء حلمي اصر على موقفه ، فوعدته بالتفكير في الامر ، لانني رايت صحة المنطق في كلامه ، فضلا عن انني كنت اريد ، بالفعل ، ان ارى البعثة الـــدولية في اليمـــن تنجح في مهمتها . لذلـــك قررت ان اكبت كبريائي . لكنني ارتكبت خطأ عندما ارسلت برقية خاصة الى يوثنت اعلمه فيها بان ريكهي ، اصبح مقتنعا بان جميع ما شكوت منه كان له ما يبرره ، وباني آسف على تقديم تلك الشكاوى بشيء من الفجاجة ، وهو ما اثار سوء التفاهم . وقلت له ان مسؤوليتي تجاه الذين يعملون معي ، وشعوري بان الحالة كانت تتدهور بسرعة ، ومعها سمعة الامم المتحدة ، كل هذا حملني على الاستقالة ، لعل في استقالتي ما يعود بالخير على البعثة . وبما ان مستقبل البعثة سيتقرر في المستقبل القريب ، وان تغيير القيـــادة في هذه المرحلة سيعرض البعثة للخطر ، فاني اعود عن استقالتي اذا راى الامين العام انه ما يزال بحاجة الى خدمتي .

وفي اليوم التالي علمت ان خدمتي لم تعد مطلوبة . لكن يوثنت اكد

لي ، مرة اخرى ، تقديره لها . واذ كنت اكن له كل احترام ، فقد سررت بموقفه مني .

لم اتوصل مع ريكهي الى الاتفاق على سبب نعلنه لاستقالتي . وفي آخر ليلة قضيتها في القاهرة ، دعـــاني ريكهي الى تنـــاول طعام العشاء ، فاعتذرت قائلا انني افضل ان اقضي آخر ساعاتي في العاصمة المصرية بين أصدقائـــي .

وفي ٢٨ آب ، غادرت القاهرة الى بيروت . كان كل شيء قد حدث فجأة ، فلم يكن لدي اي مخطط للمستقبل القريب . فصممت على اخذ فترة طويلة من الراحة اقضيها في لبنان . وبعد ستة ايام تلقيت رسالة من لجنة المراقبة المشتركة اللبنانية الاسرائيلية تعلمني بان نيويورك رفضت السماح بتوزيع رسالتي الوداعية الى رجال بعثتي السابقة . وكنت قد كتبت تلك الرسالة في القاهرة واعطيتها الى مساعدي اليوغوسلافي ليوزعها على افراد البعثة عند عودته الى اليمن . كانت الرسالة بسيطة جدا ، قلت فيها انني قدمت تقريرا الى الامين العام مطالبا بأقل ما تحتاج اليه بعثـــة المراقبة في اليمن ، لكن الامين العام لم يستطع تلبية طلبي لاسباب تتعلق بموازنـــة الامم المتحدة ، مما حلني على تقديم استقالتي للامين العام الذي تفضل بقبولها .

ولما كانت خدمتي في الامم المتحدة لا تنتهي قبل ٣١ آب ، فقد رفضت ان اتحدث الى الصحفيين الذين حاصروني في الفندق ببيروت . لم ارد ان اقول شيئا ، الا اذا اصدرت نيويورك بلاغا يتنافى مضمونه مع الواقع .

وفي ٤ ايلول ، اصدرت نيويورك تقريرا عن هيئة المراقبة الدولية في اليمن ، جاء فيه أن ما ورد في الصحف عن الحالة السيئة التي تتخبط فيهـــا البعثة لا اساس له من الصحة . ولعل نيويورك حسبت ان ما ورد فـــي الصحف كان صادرا عني . فرأيت ان الوقت قد حان لوضع الامور في نصابها فأقول كل شيء بوضوح والا لوجد القـــادة العسكريون الدوليون انفسهم في الوضع نفسه الذي وجدتني فيه . وفوق ذلك ، لبرهنت على انني لا أؤمن بما اذعته على الذين عملوا معي ، وهو ان « من الواجبات الاولية للقائد ان يهتم بجنوده . » لقد عشت طيلة حياتي وانا اعمـــل بهذه النصيحة . ولعل بعضهم يرى الان في هـــذا التصرف نوعا مـــن التنكـــر للمسؤولية ، اما أنا فأرى من واجبي نحو زملائي ان اكتب هـــذا الكتاب ، بعد ان خلعت ثوب الجندية وعلقت قبعتي الزرقاء .

وهكذا ، فبعد ست سنوات من خدمة الامم المتحدة ، اجد نفسي اجلس طليقا تحت ظل اشجار الارز في لبنان، وقلبي مع اولئك الذين خدموني في فلسطين والكونغو واليمن .



زوجتي سكارلت



مشاهد من عملية ترحيل الجنود الروس عبر اسوج في حزيران ١٩٤٥ . وكان هؤلاء الجنود قد جاء بهم الالمـــان الى النروج للعمل في المشاريع العامة .





امي
مرتا ستنزورد

الامبراطور الالماني وليم الثاني (الشمال) والملك غوستاف الخامس (الى جانب الامبراطور) يتفقدان حرس الشرف في استوكهلم خلال زيارة رسمية قام بها الامبراطور الى اسوج سنة ١٩٠٨ . الجندي الطويل القامة السائر في المقدمة هو والدي الملازم كارل فون هورن .

مع الملك حسين والامين العام السابق للامم المتحدة داغ همرشولد في قصر بسمان في عمان خلال زيارة الامين العام للاردن سنة ١٩٥٨ . سمير الرفاعي ، رئيس الوزراء انذاك يجلس بين همرشولد وبيني .

في مكتبي — القدس ١٩٥٨



مع الثعلب فيجيه في انتظار وصول همرشولد الى مطار القدس (١٩٥٨) .

همرشولد يستمع الى مطالب احد اللاجئين الفلسطينيين في مخيم اريحا



مع الرئيس جمال عبد الناصر خلال زيارتي للقاهرة في ايلول ١٩٥٨

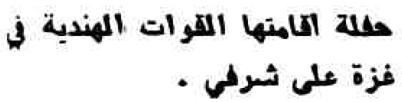
مع همرشولد ورالف بنش (اليسار) في مطار ليوبولدفيل في ايلول ١٩٦٠



حــارسي في الكونغــو العريف
الهندي سنغ



امام مبنى القيادة في ليوبولدفيل
تشرين الثاني ١٩٦٠



حفلة اقامتها القوات الهندية في
غزة على شرفي .



سائقي اليمني . صنعاء ١٩٦٣

حرس الشرف في مطــار تعز



في اثنـــاء الحرب العالميـــة الاخيرة ، تولـــى الجنرال كارل فون هورن مهاما خطيرة في جيش بلاده اسوج ، فـــاشتهر بمقدرتـــه الادارية الفائقة .

وهذا ما اغرى الامم المتحدة على تعيينه، عام ١٩٥٨ ، قـــائدا للمراقبين الـــدوليين في فلسطين ، ثم في الكونغو ، ثم في اليمن .

وبعد استقالته من خدمة الامم المتحدة ، صيف ١٩٦٣ ، كتب مـــذكراته عـــن السنوات الخمس التي قضاهـــا في حمل اعبـــاء مهامه السلمية في أدق المراحل التي اجتازتها قضايـــا فلسطين واليمن والكونغو .



٥ ل.ل. أو ما يعادلها